
د. ماجد السامرائي

بحر من الوهم


مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d


الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.


دار العرب للنشر والتوزيع
AL-ARAB PUBLISHING

بحر من الوهم

د. ماجد السامرائي





بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1436 هـ - 2015 م

ISBN: 978-614-02-2516-9



عمان، تلاع العلي، شارع رافع عثمان
بناية نصار أبو ركبة
هاتف: 790343552 - 65548621 (2-961+)

توزيع
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http: //www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: علي القهوجي
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (9611+) 786233

الأوهام تلفّنا ونعيش سعداء
بداخلها ثم نكتشف
حقيقتها بوقت متأخر

استبدال الألم بالوهم

لم يكن حسن يتخيل أن أرضاً تبعد آلاف الأميال عن موطنه ستحتضنه وتمنحه الدفء والأمان، بعد أن كان القلق يضغط عليه بقوة لحماية نفسه وعائلته من الرعب الذي التف حوله. ألقى ببصره نحو ذلك الجبل الشامخ الممتد على أخدود تلك المدينة التي استقبلته قبل سنوات، فقد اعتاد الجلوس في حديقة منزله المقابلة لذلك الجبل الحالم.. مرّت ليالي تلك السنوات السبع، وفي كل ليلة منها كان يكتشف في ذلك الجبل سراً من أسرار ومفاتيح عالم يعيد إليه بعضاً من الأمان الذي افتقده في بلده، كان يحاور تلك الأيام السابقة التي قادته للانتقال إلى هذه البقعة البعيدة عن وطنه بعد انتقاله للعمل في سفارة بلده بكاراكاس، كان حسن يعلم إن خروجه من بلده يعني نهاية شوط دوامة الدوران كجزء من ماكنة كبيرة طاحنة للمواهب لا قيمة للجزء فيها حينما يصبح خارجها، وليس لهذا الجزء الصامت سوى أداء وظيفته، وإن ذلك إنه يعني أنه سيفتقد الكثير، أهله، أمّه التي وقفت في يوم من الأيام بوجه أبيه الذي أصّر على عدم تكملته لدراسته الجامعية، وأراد له أن يعمل بمثل مهنته، وقالت له: حسن أنا إلى جانبك ولا تلتفت إلى ما يقوله والدك، توّكل على الله وأنا معك، أخوته الذين علّمهم الإصرار ومواصلة الدراسة، أقرباءه الذين وجدوا فيه مثالاً وقدوة، زملاءه الذين أحبهم، وحين إرتقى في مواقعه العليا في عمله لم ينسهم وكان وفيّاً لهم. سيفتقد لفحة الشمس العراقية التي علمته الأصرار والمقاومة، وسيفتقد زياراته الإسبوعية لمدينته الجميلة الشامخة على كتف دجلة الخالد، وذلك المذاق الساحر لأحاديث أهل مدينته الذين لايعرفون لغة المجاملة، وظلّوا على تمسكهم بذلك الشموخ الأسطوري والكبرياء والاعتزاز بتراثهم الماجد على الرغم مما يواجهونه من تهميش وازدراء.

حين اقتربت ساعة رحيله عن بغداد لم يوّدع حسن كل من أحبوه، لم يودع أصحابه، وكذلك مدينته ونهرها الخالد، لكنه وقف أمام والدته قبل أن يودعها، كانت عيناها الحزينتان ينبوعان صافيان لنهري دموع وسط صمت إسطوري لم يتكرر لحسن في جميع فصول حياته اللاحقة، مدّت إليه يديها واحتظنته وأرخى رأسه إلى صدرها الدافئ وقالت له: لاتنقطع عني يا حبيبي.. فليس لي غيرك، صحيح هؤلاء إخوتك يملأون المكان، لكن مكانك لن يملأه أحد،فأنت الأب الحنون لهم،ستأخذ قلبي وروحي معك، لن أتمكن من فراقك يا ولدي الغالي.تمتم ببعض الكلمات، وانسحب بهدوء من البيت.

حين وجد حسن إن رحيله سينقذه مما يمكن أن يصيبه من مصير، لم يكن يعلم بأن هذه الرحلة ليست ككل الرحلات التي لا تتعدى أيّاماً يعود بعدها مشتاقاً إلى عصفوريه الجميلين محملاً بالهدايا، فرحلة الطريق الطويل هذه، طريق الصعوبات والغموض، كان يحاول إقناع نفسه إنها رحلة مؤقتة للركون في مكان بعيد عن المتاعب، يسترجع من خلالها صحتّه التي أهملها رغم نصائح الأطباء له، ويراجع ما قدّمه خلال سنوات عمله الماضية. ماذا قدّم ولماذا ولمن؟ في حسابٍ لم يطو ملّفه بعد..وهل إذا كتبت له العودة إلى وطنه بعد خدمته المحدودة في الخارج سيستطيع مواصلة حياته السياسية والشخصية في ظل الخوف والقلق.

حاول حسن أن يمحو من ذاكرته تلك الأيّام والساعات القاسية، وأن يزيح من عقله تلك المعادلة التي حرص الحفاظ عليها لسنوات طويلة كجزء من خياره الذي تبنّاه لصالح مبادئه، أن يعطي نفسه وطاقاته وإبداعاته للعمل الذي أوكل إليه بصمت من دون أن يفكّر بمكسب ذاتي، كان يشاهد يومياً ما يحصل الآخرون عليه من مزايا وهدايا وتكريمات لانجازات كان هو مصدرها.

حاول كثيراً أن يبعد عن رأسه ذلك الضغط الكبير من الذكريات المشحونة بمزيج من الأحزان وقيم الوطن والتعلّق بالآمال الكبيرة، فلم يكن لتلك المواقف والحوادث الكثيرة أن تستبدل بأخرى نقيضة لأن التعلّق بالأرض والدفاع عنها لاتساويه آلام تلك الأحزان.. فلم يكن يتصوّر هو وغيره من زملائه التراجع عن تلبية نداء الدفاع عن الأرض والوطن عندما تعرّض للغزو من الخارج مهما كانت هوّيته، لأن الهوّية الحقيقية هي في التمسّك بالأرض، ولّعل حسن يحمل الآن جزءاً من عمره الشخصي لتلك الأيام العصيبة فترة الحرب لأنها أصبحت علامة من علامات أبناء وطنه، ويستطيع أن يحكي لطيريه الجميلين بعد أن كبرا حكايات من تلك الذكريات التي قدّم فيها قرابة المليون من جيله دماءهم.

مقطع حواري من ذكرى الحرب الأولى

حاول حسن لمرّات عديدة الانفلات من قبضة مسؤوله في العمل القاضي بإعفائه من المشاركة في معايشة المقاتلين على جبهات القتال التي تمتد على خط طوله أكثر من ألف ومائتي كليومتر على الحدود الشرقية لوطنه وبعد أن مرّت عليها اربع سنوات، حيث أحتلت القوات الإيرانية (مدينة الفاو) في جنوبي العراق لتصبح قاعدة لاحتلالات أخرى. كانت أسباب تأجيله عن المشاركة تتعلّق بضرورات العمل المتواصل الذي يحتاجه فيه وطنه. حاول التوسط لاستحصال القرار الملزم لكي يسمح له بالمشاركة، لم يكن حسن متعطشاً لصوت الرصاص ودوي القنابل، ولم يكن يحمل الحقد والكراهية للآخرين من غير قومه، بل كانت الرغبة تملأ قلبه وضميره للإجابة عن الكثير من التساؤلات: لماذا تصل العشرات من نعوش الشهداء إسبوعياً للعاصمة، يستمع على أثرها إلى أخبار قوائم الأسماء من أهله وأقربائه وأبناء أصدقائه وزملائه، وماذا يمكن أن تكون الحال لو تخلّف الرجال عن جبهات القتال؟ هل سيستقبلون الغزاة على أبواب منازلهم في بغداد؟ أم إن تشكيل جدار الدم للمواجهة يصبح أكثر من واجب مقدّس، وما من شعب كتبت له الحياة إلاّ وقاوم المحتلين، عند الاحتلال تختفي الاجتهادات السياسية حول النظام السياسي، وتتقدم مهمة الدفاع عن الأرض، وليس كما يرى العملاء.

كان على حسن التهيؤ للذهاب إلى جبهة القتال بعد أن تمت الموافقة على ذلك. حيث حدّد الموقع العسكري بما أصطلح عليه (بالقاطع الأوسط) أي في المنطقة الممتدة ما بين (الكوت) و(ديالى) كان ذلك الموقع يخضع لأحد الألوية في منطقة (مندلي) الممتدة حتى نقاط التماس مع (إيران) الذي سبق وأن إحتلت في إحدى معارك القاطع الأوسط شريطاً من المرتفعات المطلّة على مدينة (مندلي) يتخللها جدول نهري صغير.

ولم يكن حسن بحاجة إلى التدريب على استعمال السلاح لأنه سبق وأن أنهى إحدى دورات المدفعية بعد تخرّجه من الجامعة.

إنطلقت الحافلة صباحاً، كان الجو قارصاً لكن خيوط الشمس الصباحية منحته سحراً إشتاق إليه، وقد إنشرح بلقائه ببعض الأصدقاء القدامي خلال الرحلة التي استغرقت قرابة الساعتين من العاصمة، والذين أصبحوا ضبّاطاً في الجيش، تبادل معهم الأحاديث والذكريات. كان من بينهم من إفترق عنه منذ إنهائه الدراسة الثانوية في مدينته الجميلة، وشعر بفرح يغمره لأنه يمزّق في هذه الرحلة نحو حقل صناعة الحياة ضغوط الصمت والنفاق الذي إلتف حوله في كهف الوظيفة، وليتخلّص من الهواء الفاسد الذي يضغط على مناخ العلاقات الرتيبة.

حاول أن يستفسر من آمر اللواء الذي استقبل مجموعة حسن عن طبيعة الوضع العسكري في المنطقة، لكن الآمر الذي استهّل حديثه على مائدة الغذاء في غرفة المطعم الصغير بخلاصة عن مهماته السابقة والمعارك التي شارك فيها لواءه في قواطع أخرى بادر بالحديث عن طبيعة المنطقة وخطوط التماس مع «العدو» التي لا تزيد عن خمسين متراً مما يتطلب من مواقع الأفواج الأمامية عدم التنقّل في النهار، وترك الفعّاليات العسكرية المتقابلة للمدفعية بعيدة المدى من المواقع الخلفية، أي الاستكانة داخل المواضع والملاجئ والخروج بعد الظلام لعمليات الاستطلاع، وقام بتوزيع مجموعتنا المكوّنة من خمسة أشخاص على الأفواج، بعد إلحاح من قبلي على معايشتي للمقاتلين في فوج متقدّم للوصول إلى ذلك الفوج.

كان علينا الانتقال عند حلول الظلام لكي لا نتعرّض للقصف من الجبهة المقابلة. ثمّ نادى آمر اللواء على سائق سيارة الجيب علي المشهور بين زملائه «بمصباح الليل» حيث يتمكن من قيادة السيارة في المرتفعات والوديان في الظلام الدامس:

- هذا هو دليكم وقائدكم للوصول إلى مقرّ الفوج الذي لا يبعد أكثر من مائتي متر عن جبهة العدو، وكيلومترين عن موقعنا هذا.

إنطلق بنا «علي» وهو يغنّي إحدى الأغنيات الشعبية العراقية (مالي شغل بالسوك مريت أشوفك). وكان عليه أن يقود السيّارة من دون أي ضوء، تملكني شعور مجهول شبيه بركوبي لأوّل مرّة في الطائرة، لم يكن خوفاً أو رهبة من المكان، لأن الأرض التي نسير عليها عراقية، وبالتأكيد ينتصب على كلّ شبر منها جندي يحمل السلاح، لكنها رهبة المجهول.حاولت أن أتلمّس وجود الجنديين اللذين يرافقاني في هذه الرحلة، بعد ربع ساعة من إنطلاقتنا حيث دخلت السيارة بمطبّات حادّة، لم أكن أصدّق أن من يقود السيّارة قادر على قيادتها والسيطرة عليها من الانفلات، حاول الجندي الجالس بجانبي أن يقطع الصمت الذي خيّم علينا لخمس دقائق فقال:

- اطمئن فعلي يعرف يجتاز هذه المطبّات جيداً.

ردّ علي وهو يدمدم بأغنيته:

تعرف يا أستاذ كم انا مشتاق إلى خطيبتي التي تسكن مدينتا سوق الشيوخ وحق الحسين لازم بهل العيد الجاي أتجوزها حتى لو ما خلصت الحرب.

وراح يسرد علينا قصة خطوبته وما رافقها من رفض وتهديدات إبن عمّها له ورضوخه في النهاية.

إذن لا خطر يداهمنا فهذا الجندي السائق منشغل بمستقبله الجميل وبشوقه الى حبيبته، لعّل للشوق هنا معان أخرى تنبعث من قلب عاشق يعلم إنه معرّض للموت في كلّ لحظة.

شعرتُ بأن زمن المسافة للوصول إلى مقرّ الفوج تساوي زمن العمر كلّه، تردّدتُ في سؤاله عن زمن الوصول لكي لا يفسّر من قبله ومن قبل الجنديين بأنه دليل القلق والخوف والجبن.

- لم يبق أمامنا سوى القليل.

كانت عبارته كقطعة ثلج على رأسي في تلك اللحظة، فنحن إذن في الطريق الصحيح، بعد لحظات قال السائق:

- إنني أشاهد وميض ضوء غريب ليس لجماعتنا، أرجو ألاّ نكون قد وقعنا في كمين إيراني.

توّقفت السيّارة وساد الصمت بيننا لبرهة، لكنني استدركت:

ولو كان ذلك واقعاً فماذا سنفعل؟

- علينا المقاومة بالسلاح لكي لا نقع أسرى، حتى تصلنا النجدة.

قمت بسحب أقسام الرشاشة والتهيؤ لما يمكن أن يحدث، وفعل الآخران مثلي في الحال، أما السائق فقد قام بإدارة السيارة نحو منعطف حاد وأطلق العنان لها بقوّة، لم أتمكن من الاستفسار منه عمّا يفعل لأنني لست عسكرياً ولا أعرف المنطقة، كلّ ما تحدثتُ به مع نفسي هو لماذا بهذه البساطة نُسلّم أنفسنا كأسرى من دون معركة، وبعد عدّة دقائق تجاوزنا هزات المطبّات، وشعرت بأن عجلات السيارة تسير على بساط من حرير، لاحظتُ وميضاً من الضوء يتحرّك بطريقة تدّل على التحية، ثم توقفت السيّارة وتقدّم حامل المصباح الملثم:

- الحمد الله على السلامة، لقد قلقنا عليكم، لماذا تأخرتم؟

- عطل بسيط، أجابه (مصباح الليل)

دخلت سيارة (الجيب) في ممر ضيّق لكي لا تكتشف من الجهات المقابلة.

- تفضّلوا، قالها السائق (علي) وهو يرّدد أغنيته المفضلّة

صافحنا آمر الفصيل المتقدّم الملازم أوّل (سعد) مرحباً بسلامة الوصول. دخلنا من بوابة الملجأ الصغير حيث تتوزع منضدة صغيرة وضع عليها جهاز اللاسلكي مع مجموعة من الأوراق، وإلى جانبه كرسيان مصنوعان من الخيزران. وتبعنا بعد برهة السائق الذي كان يتحدث مع آمر الفصيل بأمر لم أتبينه.

كان الملازم أوّل سعد قد أعدّ لنا الشاي وقال بابتسامة حاول من خلالها تخفيف وقع الكلمات التي أراد أن يقولها:

- لقد تخلّصتم بإعجوبة من كمين إيراني، كان يمكن أن يكون صيده دسماً لو وقع أخونا (حسن) في الأسر، حيث كانت دورية استطلاع إيرانية قد اخترقت مواقعنا لكنها هربت بسبب يقظة جنودنا، المهم الحمد الله على السلامة.

كان سعد شاباً وسيماً هادئاً معالم الحزن تغطي وجهه، لكنه كان يتحدث بثقة في رواياته لبعض فصول المعارك السابقة. ما كان يتحدث فيه بألم فقدانه لزملاء أعزّاء عليه:

- لقد فقدنا أمس شهيدين في القصف المدفعي، المدفع أعمى. عليك يا اخ حسن أن تكون حذراً بحركتك في النهار حينما تريد قضاء حوائجك. بعد أن ترتاح سوف ننتقل لزيارة مرصد متقدّم قريب جداً من القوات الإيرانية وسيمكنك رؤيتهم.

- أشعر بحاجة شديدة للإطلاع على هذا المشهد.
- أنهم يتبادلون مع جنودنا التحيات.

انتقلنا نحو المرصد عبر ممر أرضي لا يقّل طوله عن خمسين متراً مصنوع بأيدي الجنود. كانت أقدامنا تتحرك ببطئ بفعل الأطيان التي خلّفتها الأمطار، وكان المرصد في نهايته، وكاد رأسي يرتطم بحائط صلد لولا سماعي كلمة (نعم سيّدي) إنطلقت من جندي يمسك ببندقيته الرشاشة.

كيف حالك؟ قالها الملازم للجندي.

- نحن بخير سيّدي.
- ستأخذ إجازتك هذا الأسبوع.
- شكراً سيّدي.

لم أستطع أن أضيف كلمة عمّا سمعته من حوار سريع بين الضابط والجندي، فهذا المشهد أصبح حياة دائمية لهؤلاء الجنود منذ أكثر من أربع سنوات. الكلّ ينتظر اللحظة التي تنتهي فيها هذه الحرب، ويتوقف نزيف الدم الذي يمتص شباب العراق وإيران.

دوّنت في دفتر ملاحظاتي الكثير من لحظات الزمن الذي يقضيه الجنود بين التهيؤ المستمر لمواجهة أيّة استحضارات للدفاع عن المواقع، أو القيام برّد مقابل لانتزاع موضع محتل أو التقدّم في مناورة عسكرية، وكان الوقت الآخر لمشاعر فراق الأهل والأطفال والزوجات والأحبة. ولم أجد موضعاً آخر في مسرح الحياة منح تلك المشاعر حرّية التدفق بحرية وحرارة وصدق مثل مواقع جبهات الحرب. هناك عشرات الألوف من شباب كل من العراق وإيران يكتزون في ذاكرتهم تلك المرحلة الغنيّة في شبابهم عندما يعودون إلى ممارسة حياتهم الطبيعية بعد الحرب، لم تنقضي بلهو وعبث الشباب، بل كانت مقطعاً مليئاً بمزيج من الرعب والشجاعة، ومقاربة لحظات الموت، كان

كلّ واحد منهم يحمل في عقله خيوط الأمل لكي يعيش بكرامة على أرضه، ولا يمكن أن يتصور أن يقاد لحرب جديدة مرّة أخرى، لأن لكّل حرب خلاصة ونتيجة. قد لا تتكررّ بعد أجيال.

نار الحرب الثانية

كان حسن يعمل في مقرّه الجديد في كاراكاس بشعور مضاعف للاخلاص لوطنه، حيث أصبح يعنى الاخلاص لكل الناس فيه، لإمه وأخوته الذين تركهم هناك، لأصدقائه من خارج وسط وظيفته من المثقفين والفنانين والأدباء الذين تربطهم به علاقات حميمة، حيث كان هاوياً للفن والأدب إضافة لاختصاصه المهني.

كان عليه أن يعيد بناء مكتبه الجديد في هيكلية إدارته الصغيرة التي لا يتجاوز أفراده عدد أصابع اليد، وأن يمنحهم الإطمئنان ببقائهم في عملهم، وتجاوز التقاليد القديمة التي تقول إن المسؤول الجديد يحمل معه أشخاصه الجدد الذين يتعامل معهم، خصوصاً أن بعضهم كان من العاملين المحليين من أهل البلد أو من أبناء الجالية العربية هناك، وأن يهتم بتنفيذ مخططه في تنشيط علاقات عمله بمختلف الشركات المهمة الصديقة وجميع الفعليات السياسية والمهنية الأخرى.

كان حسن محمولاً بقيم البراءة والصدق والثقة بالآخرين، ولم يكن يتوّقع أن يصطدم بإنغلاق الأبواب للتعامل بهذه القيم في علاقاته بالمحيطين به داخل مكتب المؤسسة، وهو الذي كان يقود المئات في مؤسسته الكبرى داخل بلده، فهو يعلم طرق النفاق والكذب كموروثات لقيم إجتماعية متخلّفة، لكنه صدم بأن الكثير من الذين توطّنوا خارج بلده لم تفارقهم تلك القيم على الرغم من إحتكاكهم بشعوب أخرى أكثر مدنية وتحضراً، وعلى الرغم من ذلك لم يتمكن من مغادره سلوكه في منح الثقة للآخرين ممن حوله، مما جلب عليه مشاكل شخصية كثيرة، لكن همّه كان النجاح في مهمته..وإستطاع بفترة وجيزة من تكوين علاقات ممتازة نتجت عنها حركة ساخنة في خط العلاقة بين فنزويلا والعراق على الرغم من المعوّقات البيروقراطية في إدارته المركزية التي فوتت الفرص للعديد من مجالات التعاون.

بعد أقّل من ثلاثة أشهر على عمله في (كاراكاس) بدأت تلوح في الأفق سحب أزمة سياسية بين بلده وبعض بلدان الغرب، وكان لديه إحساس داخلي إن هذه الأزمة لن تكون عابرة، بل هي بداية لطريق محفوف بالأزمات والمخاطر، كانت تلك هي أزمة الجاسوس البريطاني (بازوفت) وقد شعر حسن بأن المعركة أكبر من أزمة شخص أجنبي تجسس على معلومات عسكرية في البلاد يمكن أن تدخل كغيرها كثيرة في صفقات لترتيب علاقات أو تعديلها، كان القلق يسيطر عليه في كلّ ساعة من ساعات عمله، وخلال جلساته المسائية مع أصدقائه العرب من السياسيين والمثقفين المقيمين هناك، كان يقول لهم بأن هذه أزمة عابرة طالما تحدث في العلاقات الثنائية بين بلد وآخر، ولكن بمرور الأيام تصاعدت الحملة الإعلامية، وحدثت تطورات متسارعة وعقدت إجتماعات قمّة في كلّ من بغداد وعمّان، ومعها تزايدت الإشارات إلى أن حدثا ما كبيرا يلوح في الأفق، وجد خلالها أن كثيراً من الحماس الذي صاحب الشركات الاستثمارية والتجارية أخذ يتراجع، في وقت يكون البلد بأمس الحاجة لذلك، وقد طويت الكثير من ملّفات العقود المقترحة.

وكان الحدث المفاجئ هو إجتياح القوات العراقية للكويت في الثاني من أغسطس عام 90 والذي شكل البركان الذي انهارت على جنباته قاعدة الدولة العراقية وجسمها الذي تداعى وتفكك في الأيام اللاحقة. في تلك الساعات الرهيبة كانت عائلة حسن تجتاز الحدود العراقية الأردنية للعودة بعد إجازة الصيف التي قضوها بين الأهل في بغداد.

كان الحدث مدّوياً وتدفق طوفان جميع وسائل الإعلام الغربية والأميركية مستنكرة هذا الاجتياح، وكان على حسن كموظف حكومي أن يقدّم جميع التبريرات الرسمية التي كان يتلّقاها لمن

يلتقيهم من العاملين في الأوساط الديبلوماسية والاعلامية والاقتصادية، فيما كان يسمع مباركة من المواطنين العرب المقيمين وهم من الفلسطينيين والسوريين واللبنانيين الذين تفصلهم المسافات الشاسعة عن بلدانهم، وكلّ ما يربطهم هو القضيّة الأم (فلسطين) كانوا يشعرون بأن أهداف المعركة مثلما نقلها الإعلام الرسمي العراقي ليست على أرض الكويت وإنما نحو إسرائيل.. كان الإعلام العراقي يدغدغ عواطف المواطنين العرب الذين خيبّت آمالهم السياسة العربية ونكسة أمتهم في الخامس من (يونيو) حزيران 1967.لكن هواجس القلق قد تزايدت في مخيّلة حسن.. وشعر إن الفخ الذي تمّ نصبه قد إنفتح في الكويت، وسيلتهم نشوة نهاية الحرب العراقية الإيرانية التي سادت مشاعر العراقيين جميعاً، ولم يناقش مع نفسه أو بين بعض أصدقائه العرب الدوافع والأسباب التي تصل لدرجة تعريض مستقبل البلد إلى الضياع والانهيار، كلّ ما كان يهمّه أن يعيش بلده بسلام وإطمئنان بعد حرب الثماني سنوات، وأن تكون له ولغيره من العاملين في الدولة العراقية فرصة خدمة بلدهم وتعويض ما فات من الخسائر، وأن تنفتح آفاق التطور والتقدّم والديمقراطية، وأن تتوفر فرص الاستقرار والطمأنينة للأطفال الذين روّعتهم تلك الحرب، وأن ينفتح المستقبل لجيل الشباب الذي قدّم نفسه مشروعاً للتضحية، وكان يأمل أن يعود أبناء هذا الجيل بعد الثامن من (أغسطس) 1988 حيث نهاية الحرب بين البلدين الجارين العراق وإيران إلى مرافق الحياة ويعّوضون عن الزمن القاسي.

كانت الشهور الأربعة قبل إنفجار البركان عصيبة عليه، وعقد الكثير من الاجتماعات واللقاءات مع معارفه وأصدقائه من أبناء الجالية العربية المتعاطفين مع العراق.. كانوا يعبّرون عن قناعاتهم بصدقية التاريخ القائل بأن الكويت كانت يوما ما جزءاً من ولايات العراق العثمانية، لكنهم كانوا يتساءلون:هل كلّ ما جرى في التاريخ صالح لإحداث أزمات واحتلالات وحروب في ظرف القطبية الواحدة وسيادة أميركا على العالم؟ وهل إن حقائق التاريخ والسياسة تدعو إلى محاربة أمريكا بامكانيات ما بعد حرب الثماني سنوات التي أنهكت الشعب والجيش، وخلفت الأرامل واليتامى، ولماذا هذا التوقيت؟ كان حسن محرجاً في إجاباته التي يقول فيها بأن الكويت كانت تعدّ العدّة لتحطيم إقتصاد العراق من خلال مشروع تخفيض أسعار النفط، لأنه كان يعلم بأن مثل هذا المخطط لا يقايض بمصير حاضر ومستقبل كلّ العراق، لكن عليه أن يقدّم تبريرات نظامه السياسي، لم يجد حسن عربياً واحداً لم يقف إلى جانب العراق متوحدّاً تحت شعار معاداة أميركا وإسرائيل. وخلال جلساته الحوارية مع بعض السياسيين والإعلاميين المحليين والذين يمتلكون علاقات مع سياسيين غربيين معروفين بعلاقات الصداقة القديمة مع العراق، كان يسمع الكثير من الآراء والأفكار الداعية إلى حلّ سياسي، وكان حسن ينقلها عبر القناة الديبلوماسية إلى بغداد التي كانت تهملها ولا تّرد عليها.

كان حسن في حسّه الداخلي ومن خلال معرفته بطبيعة صناعة القرار السياسي في بلده يتوّقع في كلّ صباح أن يسمع خبر إنسحاب القوات العراقية تحت مظلّة سياسية يمكن تدبيرها وتصريفها لحماية وطنه من المصير المجهول في ظلّ الترسانة المخيفة التي نقلتها الولايات المتحدة إلى المنطقة، وما يسمى بالتحالف الدولي الذي صنعته لتمرير المخطط الكبير وهو تحطيم العراق.. وكانت الأيّام تمّر عصيبة ولا تشير إلى إنفراج حقيقي، بل إلى الأقتراب لحظة بلحظة الى فوهة البركان، كان الايقاع الصاخب من بغداد يشير إلى إقتراب (معركة كبيرة مع الأميركان تعيد إليهم هزيمة فيتنام) حاول أن يقنع زميله العربي (أحمد) في مساء أحد الأيام الذي ردّ عليه: هل تعتقد يا حسن إن الأميركان الذين جاؤوا لساحة المنازلة مع العراق في هذه المنطقة الحيوية هم أنفسهم الذين

ذهبوا إلى (أدغال بيونج يانج) وهل يحملون في عام 1990 ذات الأهداف التي حملوها قبل ربع قرن؟ نحن كعرب يهمنا سلامة العراق الذي نتأمل فيه أن يكون النصير الأوّل لقضية الأمة في فلسطين، ولكننا نشعر بأن هذه القوّة قد وضعت على كفّ عفريت، وكلّ ما نتمناه ألاّ تكونوا ضحية خديعة كبيرة.

ولم يستطع حسن تقديم ما يقنع زميله وصديقه الذي كان صادق المشاعر، كان الحزن يشلّ تفكيره، لكنّه كان يتأمل في كلّ لحظة كما يتأمل كلّ عراقي يحبّ بلده وعربي يتعاطف معه أن تحدث المعجزة في قرار الانسحاب، لينسحب البساط من المؤامرة الخبيثة على وطنه. ولكي لا تضيع كلّ جهود البناء الصادقة التي قدّمها الجيل الحالي.

حاول بعض أصدقاء حسن النافذين والممتلكين لعلاقات مع كبار السياسيين طرح مبادرات ومشاريع ووساطات قد تنقذ الحالة وكانت دوافعها نزيهة، وكان حسن ينقلها بحرص وصدق الى بغداد التي كانت تجيبه بالسخرية.

العاطفة المشتتة بالألم القديم

كان حسن يمتلك قلباً نابضاً بالحب لزوجته عبير التي تزوجها عبر قصة حب صادقة خلال دراسته الجامعية رغم ما أعتراها من كبوة خلفت ألاماً كبيرة له حيث سبق له وأن تزوج على عجالة من أبنة بنت عمه عبر قصة تشكل إنموذجا ومثالا لزيجات الاقرباء خصوصا أولئك المنتقلين من مناخ شبه قروي الى عاصمة مدنية كبيرة كبغداد، وكانت تلك الزوجة البريئة ضحية لأزمة اجتماعية لم يتخلص منها المجتمع وهي: كيفية التوازن ما بين العاطفة الفردية والضوابط الاجتماعية والقدرة في المحافظة على تلك العاطفة دون المساس بالتقاليد الاجتماعية، كان التمسك بتلك التقاليد الصارمة يقود في أحيان كثيرة الى خسارة الزواج وهذا ماحصل لحسن حين خيّر زوجته تلك ما بين الحفاظ على رابطة الزواج والتخلي عن تلك القيود الصارمة أو فقدانه، ولم يكن يمتلك أية خلفيات سلبية أخرى تهدد زواجه، كان خيارها في تلك اللحظة طفولياً وغير ناضج رغم فرصة الوقت التي منحها لها حينها حيث فضلّت الانصياع لأوامر الوالدين والتضحية بالزواج رغم إن حسن خلف من عندها طفلة في غاية البراءة والجمال، تحملّت معاناة من تعيش خارج عش الوالدين..أصبحت فيما بعد صديقة العمر لزوجته عبير التي أحبتها خصوصاً في السنوات الأولى من زواجها من حسن حيث تأخر حملها. وكانت تحرص على إصطحابها كل أسبوع عبر المشاهدة الأبوية الاسبوعية وفق القوانين المدنية.

أما عبير فقد أحبت حسن بصدق وعفوية لا حدود لها.. وقفت في لحظة من اللحظات وطلبت منه أن يفسخ علاقته الأولية (الخطبة) لكي لا تكون سببا في دمار عائلة وقالت له بصراحة: حسن مع حبي الكبير لك لكن أهلي ضغطوا علي للزواج من شخص طبيب ومن عائلة معروفة، وأرجو أن تحل مشكلتك مع زوجتك وأنا سأكون سعيدة حينما أراك قد أنهيت هذه المشكلة وانا أذهب في طريقي.. وودعته مسافرة الى مدينتها التي هي مدينته.. كانت تلك من أصعب لحظات عمره، ووجد نفسه وحيدا في بيته بين والديه وإخوانه في بغداد. وحاولت عبير أن تقطع أخبارها عنه لكي تسهل عليه مهمة مراجعة مشكلته الزوجية، لكنه كان متعلقاً بها، رغم الاشارات التي حاول إيصالها الى زوجته المغلوب على أمرها لكي تعاود موقفها باستقلالية وتعود لبيتها، لكنها رفضت بقوة.. مما جعله يتصرف بطريقة جنونية ويذهب الى بيت عمته في مدينته ويتوسل الى عمته بأن تذهب الى بيت عبير وتلتقيها بسرية كاملة وتخبرها بأن حسن مستعد لارتكاب جريمة قتل إذا تزوجت من الخطيب المحضّر لها من قبل أهلها، في تلك اللحظات وصلته تطمينات بأن عبير لن تخطو خطوة الزواج تلك، وكانت تلك الاشارة التي حملتها عمته إليه كافية لكي يرسم خطواته المقبلة لكي يبعث الى والدها بوجهاء لا يرد طلبهم وحصلت الموافقة على زواجه من عبير التي ظلت وفية له حتى نهاية عمرها.

مع رصانة وعمق تلك العلاقة العاطفية بين حسن وعبير، لكن أزماته السياسية والحالة التي واجهها داخل الماكنة التي مزقته ومزقت غيره من أبناء جيله وضعته في لحظات التأزم في كاركاس أمام مفترق طرق مشتت تمتزج فيه العاطفة بالأزمة السياسة.. وكانت عبير واعية لتلك اللحظات العصيبة التي يمر بها حسن فقررت وكجزء من حبها النادر واخلاصها له أن تعاونه وتداويه للخروج من المحنة، غضت الطرف عما وجدته نوعا من الخروج عن خط التقاليد الزوجية، بل إنها وهذا ما عرفه حسن بعد سنوات سعت الى بعض أصدقائه المقربين وكانت ترجوه أن يخرجه معه في أجواء الترفيه، وأخبرته بأن حسن يمر بأزمة نفسية وصحية وهي تريد الوقوف الى جانبه ومساعدته مهما

كلفها ذلك من ثمن. كان موقف التضحية النادرة ذلك من أدق اللحظات التي كلفت عبير فيما بعد مشاكلها الزوجية والصحية التي تعاظمت فيما بعد حتى وفاتها.

لقد تحول ذلك الملتزم العاقل الى رجل المجون والعربدة.. واختار صديقة من أهل البلد (ميرنا) كلفته فيما بعد مشاكل كثيرة، كان يعتبرها الطبيبة المداوية لجرحه، وكانت عبير تعرف ذلك لكنها في المراحل الأولى كانت تعتقد بأن ذلك ضمن التضحيات المسموح بها للحفاظ على حسن من الانهيار الذي تعلم بأنه بسبب أزمة بلده، ومرضه الذي حرصت ألا تعلمه بخطورته على حياته طالما إنه يتعاطى العلاج اللازم.. فقد وصل في بعض الأيام الى حافة الهاوية في أن يسّلم نفسه لأعداء بلده أو يظل في مرحلة «التخدير» التي كلفت عبير وحسن وطيريهما الجميلين ثمنا غالياً، كان يخرج كل مساء الى عيادة مداواته، مودعا تلك العينيين اللتين تحولتا الى أوزتين حزينتين ومهما كان يحاول تلطيف وقع خروجه مع امرأة أخرى لكن الحقيقة هي «الخيانة» مهما وضعت لها التبريرات، كان حسن في لحظات كثيرة يتساءل مع نفسه «لماذا كانت عبير تسامحه»، لكنه عرف الجواب بعد سنين حين أثقل المرض صحتها، ولكن بعد فوات الأوان.

عندما كان يخرج مع (ميرنا) تلك التي سماها «بالنحلة القاتلة» يعلم إنها تداويه بنسيان جرحه الكبير بالهجوم الأمريكي على بلده بسبب حماقة فردية واصرار عنيد على موقف كلف حاضر ومستقبل الاجيال العراقية.

كان حسن يتساءل مع نفسه:

هل ان خروجه من جزيرة الوهم في بغداد قادته الى عوالم الحرية التي كان يفتقدها ويبحث عنها في بلده كغيره من بلدان العالم وكان يعرف بأن امكانيات بلده كانت ممكن أن تقود الى أعظم وطن متحرر وسعيد في العالم. أم ذلك الوهم الذي جره وغيره من الحالمين بعراق رائع ومستقر وجميل وقد تركه في الخلف ليدخل في إقامته الجديدة في بحر لا حدود له من الوهم الكبير والى «أسوار الحرية» فيما أسماها بعدئذ.

تعلم حسن للاسبانية جعله يمزج بين تعلقه بالأدب وكتابة الشعر والقصة في بعص الأحيان الى ناظم مبندئ للقصائد الغزلية.. كان في أحيان كثيرة وفي حالات لا شعورية ممزوجة بحالات الوهم والتشتت العاطفي يخلط ما بين إنه يكتب لصديقته (ميرنا) أو هو يناجي زوجته:

صوتك.. كهذه الأمواج.. أحدّثها أرنو إليها..
أبحثُ عن سرّها القادم من أعماق المحيط.. من أعماق عالم سحيق.
تلثغين بكلماتٍ أفهمُ منها ما أفهمْ، وأعلمُ ما أعلمْ..
أعلم إن فيكِ أسرار.
وأعلمُ إني سأفكّ تلك الأسرار..
سرّ المحيط وسّركِ.
صوتكِ.. صوت الموج.. يأتي من بعيد.. أسألُه.. يجيب.
في الليل.. حينما تخلد الطيورلأعشاشها. ويغفو الطفل على صدر أمّه.. ويسهرُ الحبيب حارساً لثغر الحبيب..
نعم.. هناك من يجيب.. في الليل.. ذلك السرّ العميق.

كانت أعصابه متعبة يحاول أن يخفف عن نفسه بالزيارات العائلية، وفي استقباله في المساءات صديقه العراقي القديم (مصعب) وزوجته (هناء) الذي قرّر الإقامة في (كاراكاس) بعد تركه العمل في السفارة لخلافات وظيفية، كان مصعب في جلساته مع حسن قادراً على فتح مغالق كثيرة من أبواب الذكريات التي حاول حسن أن يدفنها في بغداد بعد مغادرته للوطن، لكنه أخذ يشعر بحنين ساحر لها حينما يعرضها صديقه وجليسه (مصعب) بلغته التي يختار لها الكلمات ذات الإيقاع الأدبي المثير مستثمراً طاقاته القديمة التي كان يحلم أن يحوّلها إلى مشروع إعلامي أو ثقافي، لكنها تحوّلت إلى مشاريع لإتقان فنون الطبخ في مطعمه الشرقي الذي إفتتحه مع زوجته (هناء) التي تحاول في نكاتها الممزوجة بضحكتها ذات المسحة البغدادية إبعاد مناخ القلق والانزعاج الذي تتركه أخبار وتقارير قناة CNN الداعية للحرب على العراق.

وكان الحدث الذي أصبح يتوقعه ويتوقع ما سيحدثه من زلزال مدّمر للعراق كلّ مستمع ومشاهد لمحطات الإذاعة والتلفزيون الأميركية، ما عدا إذاعة بغداد التي حرصت على تقديم تعليقات رسمية تسخر من القوّة المستحضرة ومن التحالف العسكري والسياسي الذي حققته أميركا لمجابهة العراق، حينها شقّ شاشة التلفزيون عند الساعة الثامنة بالتوقيت المحلّي ومن خلال محطة (CNN) بريق العصف الذي مزّق سماء بغداد وحوّلها إلى خارطة من نار.

(أنتهى كلّ شيئ.. تحقق لهم ما يريدون..).

– كيف حال أهلنا هناك.. ماذا سيفعلون وبماذا يحتمون من هذه النار؟)

خرجت هذه الكلمات معصورة بدموع حارقة من حنجرة حسن المتحشرجة كأنه يوّدع الحياة، كان الجميع يبكي، ولم يتمكن من الرّد على الهاتف حين كانت طفلته الصغيرة لا تعرف بماذا تردّ سوى (الأميركان ضربوا بغداد) وتحوّلت الأحلام إلى كوابيس، كان لا يجد جواباً ويبقى حائراً أمام تساؤلات طيريه الجميلين:

– بابا.. لماذا يقصف الأمريكان بغداد بالقنابل؟ وكيف حال جدو وجدة؟ لماذا لا نذهب الى بغداد؟ كانت رجلاه لا تكادان تحملانه الى عيادة تلك المداوية «القاتلة» (ميرنا) التي خدرته من جرحه الكبير لكنها لم تشفيه، كان مخدرا كلفه فيما بعد ثمناً لا تعادله كلمات الاعتراف المتأخر. وهو في الطريق رن هاتفه الجوال، وكانت هي على الهاتف:

– أين أنت أرجو أن تأتي لأنني جلبت لك (واين شيلي) من الذي تحبه أنت.

– نعم انا قادم.. قالها وهوفي حالة دوار. أحس برأسه ثقيلا يكاد يتدحرج أمامه.

أين يذهب؟ هل ينتحر أم يصرخ بصوت عال وينهي كل شئ، ها هو قد فعلها رئيس بلده وسلم العراق العظيم بيد الوحوش لتمزقه بعد أن تأكل قلبه وترميه في غابة موحشه إسمها العالم الجديد، هل يعلن رفضه وتمرده على رئيس نظام بلده.. ولكن ماذا سيقولون عنه (خائن، متواطئ مع الاعداء؟؟) وحتى لو قالوا عنه ذلك المهم أن يريح ضميره الممزق!

(كلا.. كلا..) ووصلته مكالمة هاتفية ثانية، هل هي تلح عليه بالذهاب إليها؟ لكن المتحدث كان صديقه «أحمد الليبي» الذي كان من أعز وأقرب أصدقائه:

– حسن أنا في مكتبي أرجوك أن تأتي سألت عنك في البيت فقالوا خرجت.

شعر حسن بدوار جديد.. أي طريق سيسلك في هذه الليلة السوداء والصواريخ تدك عاصمة العراق الحبيب، أدار مقود السيارة نحو مكتب صديقه وأغلق الهاتف الجوال لكي لا يتلقى مكالمتها،

وصل وفوجئ بأن صديقه يفترش الأرض ومعه مجموعة من الاصدقاء العرب محبي العراق، وهو ينحب بالبكاء.

- حسن لقد حرقوا العراق، أنت تعلم رأيي بصدام، ولكنهم أرادوا أن ينزلق لذلك الموقف مرتين: الأولى عند دخوله الكويت والثانية عندما رفض الانسحاب منها، وقد أكل الطعم وسحب معه شعب العراق ومدنيته الناشئة وكنوزه العظيمة الى الهاوية.

فأجابه حسن وهو يتلعثم بالكلمات:

- إنني أفكر جديا بإعلان موقف مناوئ للحكم صباح الغد، ردّ عليه صديقه وهو يسحبه ويضمه الى صدره:
- لا تفعلها يا حسن.. مهما كان الجرح كبيراً، لكن موقفك سيستفيد منه أعداء العراق والأمة، ماذا سيستفيد أبناء بلدك من هذا الموقف الاعلامي؟ وأنت هل سيرتاح ضميرك؟ أرجوك تعال نناقش الأمور.
- أية أمور سيدخلون العراق من الكويت بعد إنجاز الحملة الجوية وسيدمرون كل شئ. وقد يسقطون النظام السياسي ببديل يحضرونه هم.

رن هاتف أحمد وكان صوت عبير تسأله وهي تبكي:

- هل تعلم أين ذهب حسن؟

إنه هنا لا تقلقي أختي عبير وأعطاه سماعة الهاتف:

- كيف أنت.

الحمد لله..

- أردت الاطمئنان عليك فقط لأن هاتفك مغلق.. ثم أغلقت السماعة.

بقي مجموعة الاصدقاء في مكتب أحمد حتى طلوع الفجر ومحطة CNN تنقل صور الهجوم الجوي وتعرض الاحداثيات لقنص الأهداف الأرضية من محطات الكهرباء والهاتف والاتصالات والمباني الكبيرة ومقار الحكومة المدنية. جرنا الحديث الى تجربة عبد الناصر وكيف قدّم استقالته الشهيرة أمام شعب مصر والأمة حين هزم في حرب 1967 وكيف أعاده الشعب بخروج ملايينه الى الشوارع.

لكن صدام لم يكن واثقاً من ذلك، يعرف بأن بلده ملغمّ بالتدخلات الاقليمية وبدوافع الثأر الايراني من حرب الثماني سنوات حين تحول الهدف الى مشروع لإسقاط النظام وباستخدام العامل المذهبي.. ولعل الضربات العسكرية هي الفرصة التاريخية للزحف على بغداد واسقاط النظام. لكن ذلك لم يحدث وأعاد صدام سيطرته على الحكم بعد سقوط غالبية محافظات العراق بيد مِن أسماهم (الغوغاء) وأطلقوا على أنفسهم (الانتفاضة).

لم يخطر في بال حسن في لحظة من الحظات أن يصبح «فرحان» ذلك الموظف الوديع الذي اختاره للعمل معه في العاصمة الفنزويلية، أمام تنافس طابور الكثيرين وطلباتهم المعززة بالتوصيات والتوسطات للخروج من العراق. ويصبح هذا المستخدم في لحظة من اللحظات مركزاً للضوء من اتجاهين متعاكسين كل يفعل ما يجلب له المكاسب، ولكن أن يتحول فرحان الى حفرة تتجمع فيها أنواع الفيروسات القاتلة وأكوام الفحم والزيت لاشعال الحرائق، فهذا ما لم يخطر ببال حسن الذي كان بريئاً في إيداع أسراره الخاصة لدى فرحان حيث لعب بها لتتحول الى سهام مسمومة موجهة الى صدر حسن. لم يكن فرحان بريئاً من تشبيكات مخابرات متعددة الاتجاهات والأهداف وأهمها

مخابرات البلد التي تغطي نشاط المخابرات الأمريكية التي يعرف حسن انه مرصود ومقصود من قبلها في أية لحظة ضعف يتعرض إليها. عمل فرحان على تفتيت وحدة عائلة حسن عن طريق نقل أخباره المزدوجة ما بين (ميرنا وعبير).

في أحد الأيام أراد حسن أن يبعث الأطمئنان في نفس عبير فعرض عليها قضاء بعض الأيام مع الطفلين الجميلين في أحدى جزر الكاريبي. وافقت عبير، بل اعتبرت تلك الالتفاتة من حسن بمثابة انبعاث لروح الحب الخامدة في أعماق نفسيهما. تطلعت عبير في الأفق الجميل وجسمها يتمايل على سطح المركب الذي ينقلهما الى جانب أكثر من خمسين ما بين رجل وإمرأة وطفل ينقلهم هذا المركب الجميل الذي تحتضنه الأمواج الكاريبية الهادئة على مدى خمسين دقيقة عن سواحل جزيرة ماركريتا شمالي فنزويلا، وراحت تستعيد تلك الصورة حينما كانت هي وأخواتها الخمس يقضين العطلة الصيفية المدرسية على واحة شاطئ دجلة حيث تنسحب المياه مخلّفة جزرات صغيرة من طمى المياه ويتم زرع بعض الخضروات سريعة النضوج على حافاتها. كانت الأخوات وصديقاتهن يغمرن بأجسادهن المغطاة بالملابس الفضفاضة في نهر دجلة تحت غطاء سحر الشمس وظلالها على الأمواج الناعمة لدجلة.

- أين ذهبت يا عبير.. نحن هنا في الكاريبي ولسنا على حافة الكهف المطل على دجلة.

كانت تغمر وجيههما نظرات تستعيد شريط ذكريات الحب الذي جمعهما في بغداد، أشارت الى حسن بالتهيئ للنزول عن المركب بعد اعلان صاحبه الوصول.

اختارا مكاناً منعزلاً عن الضوضاء الصاخبة على امتداد ساحل الرمال الذهبية كما يسمونه في هذه الجزيرة فيما أطلق الطفلان عنان ساقيهما للانغمار في مياه البحر وسط الضحكات العالية وما تردده عبير من كلمات تتعثلم بها شفاهها، سمع منها حسن كلمات دعاء من الله أن يحفظهما من الغرق.

- لا تخافي هناك حارس يتابع جميع الأطفال لكي لا يذهبوا بعيداً.

رن هاتف حسن وكان بجانبه.

- كيف حالك هل أنت سعيد؟
- لماذا تتصلين الآن؟
- أنا هنا قريبة من عندكم على نفس الساحل.

أغلق حسن الهاتف وبدا عليه الانزعاج، من أخبرها لتطارده في لحظات خلوته مع عائلته.. إنه فرحان الدجال المنافق الذي كان ينقل كل تفصيلات علاقة حسن بميرنا الى عبير.. اليوم يلعب ذات اللعبة القذرة، لم تتكلم عبير بعد أن شاهدت ميرنا بجسدها نصف العاري وهي تداعب طفليه الجميلين. اشتعلت النار في قلب عبير، وراحت تعاتب حسن على هذا الموقف من قبله باخبار هذه الفتاة على تفاصيل سفرته هذه.

حاول حسن نفي ذلك.. لكن الجو أصبح مشحوناً بعد عودة الطفلين وجرى عراك ما بين إبنته التي تغار عليه كثيراً وتتصرف بعدوانية أكثر من والدتها الهادئة. لم يستطع حسن تبرير ما فعلته ميرنا بافساد تلك الرحلة العائلية الجميلة، كانت عبير صامتة طوال طريق العودة على المركب بينما شمس الكاريبي تتدلى بحزن على امتداد البحر الهادىء، أما الطيْران الجميلان فقد أحسا بالطعنة التي وجهت الى عشهما من قبل تلك المرأة اللاتينية.

- لماذا لاتذهب معها وتتركننا.. صفعت الطفلة أباها بتلك السهام، اكتفى بتهدئتها لكنها كانت غاضبة جداً بوجهه، ضمتها والدتها الى صدرها بصمت.

لعنك الله يا فرحان لماذا فعلت هذه الفعلة الدنيئة، تمتم حسن بذلك، وأنتِ ايتها الحقيرة سأعرف كيف أرد عليك.

حاول حسن أكثر من مرة التخلص من علاقة المريض بطبيبه المؤقت، هكذا وصف علاقته بميرنا. أخذ يشعر بانقلاب حياته العائلية الى جحيم، لأن ميرنا أخذت تطارده في كل لحظة وهيمنت على عواطفه، لقد أدمن على تلك العلاقة، كان في بعض الأحيان يناقش نفسه: لماذا لا تسعى عبير الى تخليصه منها؟ لماذا لا تعوضه بنفس المواهب التي تقدمها ميرنا له، تتعلم كيف تقدم له «الشراب» وتخرج معه الى المطاعم الليلية إلخ.. عبير إمرأة أحبت حسن بصدق واخلاص وعفوية لا حدود لها، لكنها متمسكة بقيم عريقة تشعر من خلالها بأن علاقتهما الزوجية ورفقة العمر أعمق من تفاهات اللهو العابرة، إنها لا تتمكن من تصنيع نفسها كدمية ملونة ومتحركة، عبير لاينقصها الجمال والثقافة، وحينما فتحت أبواب الحرية الشخصية له في فترة عصيبة مرت به فلأنها تحبه. اليوم تتلقى ما ارتبكته من خطأ كبير ضد نفسها.

فكر حسن جدياً في التخلي عن علاقته بميرنا، شعر برأسه ثقيلاً وهو يدخل سيارته التي يقودها خوسيه الذي ما ينفك يحكي في الصباح لحسن إحدى مغامرات أمسه وسط ضجيج موسيقى الراديو:

- خوسيه أرجوك إغلق المذياع.
- سنيور أنا لا أستطيع السياقة من دون سماع صوت الموسيقى، هل حصل شيء؟ ما أخبار العراق.. هل حدث شيئ لعائلتكم في بغداد؟
- كلا كلا دعنا من كل ذلك إسرع لنصل المكتب قبل انغلاق الشوارع بالازدحام.
- مدينتنا هذه تزدحم بالسيارات خلال النهار وتزدحم بالنساء في الليل.

دخل حسن مكتبه بعد أن نادى على فرحان:

- فرحان لماذا تفعل هذه اللعبة القذرة، إنك من عرفني على هذه الحشرة ميرنا، لماذا أخبرتها بسفرتنا الى الجزيرة.

حاول فرحان بطريقته البهلوانية نفي إخباره لها وهي ربما عرفت ذلك من السكرتيرة أو أي أحد.

- على أية حال إذا طلبتني لا تجب عليها، أنا قررت تركها.
- مثلما تريد. لكن فرحان الملعون كان يعرف ما فعلت ميرنا بقلب حسن.

بدأت أزمة بلده تتصاعد من خلال الضغوط بفرض حصار قاس على شعب العراق، لقد يئس حسن من احتمال تغيير نمط سياسة حكومة بلده بالانفتاح والاصلاح السياسي وإطلاق التعددية السياسية وكان حسن الى جانب عدد كبير من أصدقائه وزملائه يعتقدون بأن الانفتاح السياسي لن يخيف إذا كانت السلطة تعتمد على حب الناس، بل بالعكس ستتكشف القوى والاحزاب على حقيقتها.

فكر حسن في إرسال عبير الى العراق لكي تبيع دارهما بعد أن اتفق مع زوجته من أنه لن يعود الى العراق بعد توارد الأخبار من داخل وزارته بأن هناك إشاعات مفادها بأن حسن لديه علاقة بإحدى الحسناوات المدفوعات من مخابرات معادية؟

هكذا إذن، حسن إذا عاد للعراق فسيقدم رقبته للمقصلة.

أبلغ حسن عبير بقراره سفرها مع الطفلين الى العراق على أساس فكرة بيع الدار. قبلت عبير بالفكرة نزولاً عند رغبة حسن، لقد كسر حسن عادته بالخروج من البيت لوحده في المساء بحجة الشغل في مكتبه، لكنه في الحقيقة يذهب للقاء ميرنا، بقاء حسن في الدار معناه إنه لا يريد الاتصال بها.

جاءت أمل الى ابيها راكضة.

- بابا لماذا لا تسافر معنا؟
- ابنتي انا عندي شغل هنا انشاء الله آخذ اجازة ونروح سوة مرة ثانية.

سافرت عبير ودعهم في المطار.. كانت لحظات عصيبة لم يتمكن حسن من مواجهة نظرات عبير التي تقول له: بعد توديعنا ستعود الى البيت حرا طليقا مع «النحلة القاتلة» ميرنا تلك التي لن تتركك قبل أن تمتص آخر رحيق منك، الجاه والمال والشباب.

جلس حسن على الطاولة المرصوفة في حديقة المنزل بموقع يجعلها تواجه إحدى التلال التي تطل على كاراكاس. جلس لوحده محاولاً تجميع أفكاره المشتتة ما بين أزمة بلده والمخاطر التي تحيط به بفعل الادارة المجنونة، وبين روحه التي بدأت تتفكك بسبب سنين الحرمان، حرمان الحرية والشعور بالقيود المدمية لمعاصم وأرواح هذا الجيل الذي نشأ مقيداً بالعقيدة وبجلاد يحمل سوطها الناري المجلجل بعبارات التخوين والجبن، في لحظات تحط خلالها أجنحة الروح بين حقول القمح الأخضر وشرايين ينابيع الماء المتغلغل بين خرائط الطين الحري الأحمر، روحا جائعة تغرف بنهم حتى الثمالة.. أراد حسن إلهاء نفسه بشيئ يبعده عن مخدرته التي أدمنها، فنهض الى غرفة مجاورة كانت تنتصب على زاوية من جدرانها لوحة تخطيطية كان قد ابتدأها منذ أيام لمشروع رسم لوحة ترمز الى شاطئ عائلة عبير يحتضن مجموعة من فتيات الحارة وهن يسبحن على حافاته الرملية، فحسن يرسم كهاوي وليس محترفا، أراد ان ينجزها قبل عودة عبير من بغداد. راحت فرشاته تتمايل على سطح القماش الأسمر وقد انتشى بنسيم دجله يدغدغ روحه، انها عبير التي أحبها لأنها عجينة من وطنه بكل ما يصدر عنها، لقد عشقها حتى الأعماق وانجبت له هذين الطيرين الجميلين، لم يتمكن المقارنة بينها وبين هذه العلاقة من إمرأة لا طعم لها سوى الجنس المحمول بالعبثية والمراهقة التي أخذ يحس بأنه بحاجة اليها لكي تبعده عن التفكير، كانت مخدرة له. بدأت أفكار سوداء تتسلل الى رأسه: قد يمنعون عبير وطفلينا من مغادرة العراق لأي سبب لكي يجعلوا حسن يعود الى البلاد، وماذا يعني ذلك؟ ماذا سيفعل: هل سيضحي بعشه، زوجته وأطفاله لقاء أنانية مفرطة بأن يأمن على نفسه، أم إنه سيستسلم للمصيدة ويعود الى بغداد؟ لا يعرف ماذا تعني حياته لوحده في المنفى من دون أطفاله وزوجته، وماذا تعني أيامه المعدودة بعد عودته؟ أخذت الصور تتزاحم في رأسه بطريقة غير مألوفة، ولم يجد في تلك اللحظة إنه يحتاج الى الإدمان الذي إعتاد عليه، ميرنا، لن يتحدث إليها وسيغلق الهاتف بوجهها إن طلبته، ماذا ستقدم إليه غير كلمات الغزل والمداعبة والجنس، ماذا تعني له، إنها سم معجون بالعسل.

وراحت الريشة تداعب أفكاره على لوحة القماش وبألوان نهر دجلة الوديع وهو يحتضن تلك الأجساد الطرية لفتيات حارة عبير في (الشطية)، فيما انهمرت عبير بالاغتسال على صخرة تنتصب وسط الماء الزلال. لم يشعر حسن بالوقت حتى فاق على رنين الهاتف أسرع نحوه وإذا بصوت إبنته (أمل) من الجانب الثاني: بابا لقد وصلنا بغداد ونحن عند بيت جدو، ثم صدرت عنها كلمات الخصام مع شقيقها (وليد) الذي يريد مزاحمتها على مسك سماعة الهاتف قبلها، وسمع منه فقد كلمة (إحنا عند جده وجدو) ثم تناولت عبير السماعة وطمأنته بوصولهم بالسلامة.

- الحمد لله على سلامتكم.

شعر حسن بالارتياح يدب في عروق دمه داعياً من الله أن يحفظهم من أي سوء، مع إنه لا يأمن أوضاع الأجهزة الخاصة هناك وما تدبره من مكائد وقصص وتلفيقات إذا ما أرادت الايقاع بأحد مهما كانت مكانته.. فالرأس الأول هو المرجع الأخير لأية خطوة مهما كانت صغيرة. حسن أصبح واثقاً إنه يسير على خيط رفيع ما بين الاستمرار في الوظيفة أو الانفصال عن النظام. يتوقع كذلك من الرأس أن يحافظ على هذا الخيط ممدوداً لكون حسن خارج البلد، هل سيستعمل زوجته وأطفاله رهينة؟ قد يحدث ذلك. وبينما اختلطت في رأس حسن الهواجس، حاول القضاء عليها باستمراره في رسم لوحة (الشطية) المفاجأة التي وقعت على رأسه كانت نقر ميرنا لباب غرفته،

- كيفك حسن.. وهجمت عليه تقبل وجهه وتسقط على الأرض متوسلة إليه أن يصفح عنها.
- كيف دخلتِ ومن سمح لك ونادى بعصبية على الخادمة:
- كيف تفتحين الباب من دون إذني، حضري حالك لترك البيت فوراً.وراحت الخادمة تبكي وتتوسل. وفوراً عقّبت ميرنا.
- أنا التي أجبرتها وهي تعرفني جيداً يا حسن أنا لست لصة أو مجرمة أرجوك سامحها، ها.. ها.. ماذا ترسم؟ أريد أن ترسم لي لوحة أضعها في الصالة، لقد فاجأتني بأنك رسام؟
- أنا لست رساماً، هذه هواية لقضاء الوقت، ماذا تريدين؟ أرجوك ميرنا أنا في وضع صعب، وأتمنى أن نخفف علاقتنا خصوصاً إن لك طفلة من زوجك السابق وقد يخلق لك ولي مشاكل.
- لا مشاكل، لماذا لا تشربني شيئاً أنت لست مضيافاً.
- ماذا تشربين؟
- ويسكي.

ناولها كأساً وأخر له أيضاً، أخذت تداعبه وفق طريقتها التي أوقعته وفقها قبل عام، راحت تتمايل في الغرفة وتتعمد تحريك (الخلخال) الذي يطوق كاحل رجلها اليسرى، فقد سبق لها أن صاغته وفق وصف حسن قبل أشهر حينما كان يتحدث لها عن طريقة تزيين النساء العربيات وكيف يعتبرن «الخلخال» وباللهجة العراقية «الحجل» أحد أحلى وسائل الافتان، تذّكر كيف وقفت أمه قبل خمسة عشر عاماً الى جانب طموح حسن في استكمال الدراسة الجامعية في بغداد ولم يوافق والده على ذلك:

- حسن هذا هو «حجلي» سأبيعه وأدفع تكاليف إقامتك في بغداد.

استجمع حواسه لكي لا يقع في غواية ميرنا هذا اليوم مهما كلف الثمن.

- أريدك أن ترسم لي لوحة أضعها في غرفة الاستقبال.. وفيها ملامح عراقيتك.
- وهو كذلك سأرسم لك لوحة.

شعرت ميرنا إن حسن لم يكن ذلك الطفل الضامئ الى صدر أمه، فكلماته التي أطلقها منذ دخولها ولحد اللحظة تعني إنه تجاوز تلك الحالة اللعينة التي استثمرتها ميرنا. وقبل أن تنسحب أودعت بين يديه ورقة كتبت عليها مقاطع من قصيدة للشاعر الانكليزي (روديارد كيبلنج) يقول فيها:

اذا استطعت ان تحتفظ برأسك عندما يفقد كل من حولك رؤوسهم وينحون عليك باللائمة.
إذا وثقت بنفسك عندما يفقد كل إنسان ثقته فيك.
إذا استطعت أن تنتظر من دون أن تملّ الانتظار.
أو أن يعاملك الآخرون بالكذب من دون أن تلجأ اليه.
أو ان تكون موضع كراهية، ولكنك لا تدع لها مجالاً للتسرب الى نفسك.
إذا أستطعت أن تحلم، لا تدع للأحلام سيادة عليك.
إذا تمكنت أن تتلاءم مع النصر والخسارة.
إذا استطعت أن تفكر لا تجعل الأفكار غايتك القصوى.
إذا استطعت أن تكدّس كل ما تملك من أرباح.
وتغامر بها دفعة واحدة.
وتخسرها جميعاً ثم تبدأ من جديد.
من دون أن تنطق بكلمة واحدة عن خسارتك.

في صباح اليوم التالي شعر حسن بأنه قد أستطاع تحقيق خطوة مهمة على طريق الخلاص من الإدمان، تناول إفطاره الذي أعدته له خادمة البيت بعد أن صفح عنها وأبلغها بعدم تكرار هذه الغلطة الكبيرة، وجاءه سائقه خوسيه ملقياً عليه تحية الصباح متندراً بما فعله ليلة أمس من مغامراته.. نظم جميع التزاماته للأيام القليلة المقبلة.. زيارات للزملاء والأصدقاء يعود بعدها للبيت من دون مخابرات لتلك النحلة القاتلة.. إنهمك على إنجاز تلك اللوحة التي شعر من خلال رسمه لها إنه يتحدث مع عبير، حبيبة العمر، كانت تملأ حياته.. لا يعرف لماذا وقع في هذا الفخ، وقرر أن ينجز اللوحة التي وعد بها ميرنا قبل عودة عبير وطفليه.

كانت الأيام التي تلت الضربات الجوية على بلده وحريق خط الجيش العائد من الكويت، قاسية ومريرة.. كلما تغرب شمس كاراكاس وتتدلى خيوطها من بين التلال يشعر حسن بأنها لن تشرق من جديد، أخذت الضغوط تعصره من كل جانب، سلطة النظام في بغداد تعمل بأساليبها لكي تجبره على العودة. ومعارضة لندن تضخ الفاكسات يومياً تدعوه فيها للانفلات من قبضة النظام والالتحاق وأخذ مكانه في صفوفها.
كان يتساءل مع نفسه:
- لماذا علمونا في المدارس حب الوطن ويخرجوننا كل صباح في أيام الشتاء القارصة لنصطف في ساحات المدارس ونحيي العلم قبل دخولنا صفوف الدرس.؟
لماذا كانوا يخرجوننا للتظاهر تضامناً مع شعب مصر حين تعرض للعدوان الثلاثي؟
لماذا كان إسم جميلة بوحيرد الجزائرية يرن في آذاننا؟
لماذا كان معلم الدرس يقص علينا حكايات من انتفاضات الشعب العراقي ضد المعاهدات البريطانية التي كبلت شعب العراق وكيف خرجت تظاهرة جسر الشهداء في بغداد حيث سقط فيها شقيق الشاعر الجواهري شهيداً.. تظاهرة تسقط بسببها حكومة صالح جبرعام 1948.
لماذا ملأوا رؤوسنا بحكايات العروبة وترابط حركات التحرر بيننا وبين سوريا الشامخة بعروبتها ومصر الأبية بقوميتها، وحولونا كجيل كامل الى مشاريع للوطن ولقيمه الخالدة؟

هل هذه كذبة ابتلعناها على امتداد شبابنا؟ ومن أجل ماذا؟

واليوم يدعوننا للانضمام الى خيمة ذلك الذي قالوا لنا عنه بأنه استعمار، معارضة تنطلق في مشروع إسقاط الحكم من لندن وواشنطن وليس من بغداد او البصرة أو الموصل؟

عندما قامت حركة التمرد العسكري للعقيد عبد الوهاب الشواف من مدينة الموصل مع رفاقه العسكريين للانقلاب على حكم عبد الكريم قاسم عام 1959 أتهم الشواف بالعمالة لعبد الناصر رئيس مصر العربية حامل لواء القومية العربية في ذلك الحين؟ هل هناك وطنية، وهل هناك خيانة؟ كانوا يعلموننا نعم: الوطنية هي هذه الشعارات الواردة في دروس التاريخ والتربية الوطنية التي لقنوننا إياها في المدارس.. ثم تحولت الى دروس من قبل دعاة الأحزاب القومية العروبية والديمقراطية المسّطّرة في كراسات التثقيف خلال الاجتماعات الحزبية للمنتمين أو خلال الأحاديث العامة في المقاهي والنوادي وقاعات مكتبات الادارات المحلية في الأقضية والنواحي، كانوا يقولون لنا بأن من يخرج على القيم الوطنية فهو خائن، ولم نجده بين صفوفنا لأنه خارج الوطن، فبلدان الخارج تدعو للخيانة.. هكذا كان الخارج بالنسبة لنا إضعاف للوطنية والوطن.. ولهذا كانوا ينظرون بريبة الى العائدين من البعثات، ودائماً ما كانوا من بين الأغنياء والميسورين، وهؤلاء ضعاف الوطنية.

فكيف بحسن أن يتقبل أو يتحمّل رأسه هذا الفيضان؟ كيف له أن يقول نعم لهذه المجموعة المعارضة التي تعمل من عاصمة الاستعمار؟

لم يرّد حسن على جميع الرسائل التي تصله من معارضة لندن.

ألاعيب المخابرات

سمع وقرأ حسن كثيراً عن ألاعيب المخابرات في العالم، وطرقها في الإيقاع بالأشخاص، كان يمقت هذا الأسم كثيراً لأنه عالم يخلو من القيم والمبادئ، تجسس وتخابر وأساليب للايقاع بالخصم وتوريطات شخصية من خلال استغلال نقاط الضعف. وإذا كانت أجهزة المخابرات تعمل من أجل حماية أمن أوطانها، فإن تلك المهمة لدى الدول الكبرى تتجاوز الدفاع الذاتي الى إختراق مؤسسات جيوش وأمن واقتصاد دول أخرى، وقد تصل الى تغيير نظم حكم، أو اغتيالات سياسية لمصالحها. في العراق كما في العالم العربي ومنذ عقود لعبت المؤامرة دوراً كبيراً في خطاب الأنظمة السياسية ومؤسساتها، كان اعتقاد أجهزة المخابرات إن العدو موجود خارج الحدود لأن داخل حدود الوطن الأفراد محصنون، وكذلك المؤسسات.في العراق تكرست فكرة المؤامرة في جميع أنسجة المؤسسات، ولهذا فلم يرسل أحد تابع لمؤسسات الدولة سواء أكان موظفا او طالبا الا وخضع قبل سفره الى ما يسمى بدورة الحصانة الأمنية، وهي دورة تقام في الغالب وخاصة لموظفي مؤسسات البعثات العراقية في الخارج. في مركز المخابرات يحاضر فيها ضباط متخصصون في شؤون الأمن القومي ويعرضون بالمحاضرات أو الأفلام لتجارب تاريخية في صراع التجسس وأدوات الايقاع في عالم الجاسوسية واستغلال نقاط الضعف التقليدية (المال والجنس). وتعلّم حسن من تجربته الشخصية إن الحصانة الذاتية في الحياة هي وحدها قادرة على الحفاظ من الهبوط الى مستوى الخيانة والتجسس على الوطن. ولأن من أبرز مقومات الشعوب هي حفاظها على أوطانها والدفاع عنها، صحيح إن من أهم مقومات قوة أي بلد هي قوة أجهزة مخابراته. والتي دائما ما تكون موجهة الى النشاطات الخارجية وليست نحو قهر شعوبها في الداخل. وغالباً ما تستثمر الأغطية الديبلوماسية في السفارات لتمرير عمل موظفي المخابرات وملحقياتها ومراكزها التجارية والثقافية في العالم. هناك قصص كثيرة حول استخدام السفارات كغطاء لنشاطات استخبارية، والعراق ليس وحده في ذلك بل جميع دول العالم بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية.

ربطت حسن علاقة صداقة بجورج الموظف الديبلوماسي لأمريكا الدولة العظمى، وكانت تصرفات جورج تشير الى إنه موظف مخابرات لبلده. توفرت فرص عدة للقاء حسن بجورج على مستوى الدعوات الديبلوماسية أو أصدقاء مشتركين، لكنه دائماً ما كان يبدى اهتماماً خاصاً بحسن الذي كان يشعر بأن هناك هدف ما يسعى اليه مع حسن. حاول جورج في تلك الدعوات أن يكون قريباً في جلساته من حسن الذي يبادله المجاملات الشخصية، في أحد الأيام ألمح جورج الى صديقة حسن «ميرنا» وهي في علم المخابرات ثغرة يمكن النفاذ من خلالها يوماً ما. لكن حسن لم يعط اهتماماً لتلك الملاحظة طالماً يشعر بحاله محصناً.

انتقل جورج الى بلده ولكنه ظل على اتصال بحسن، وكانت الاتصالات لا تتجاوز الاستفسار الشخصي والعائلي والمجاملات العامة. وبعد أكثر من أربع سنوات على الهجمة العسكرية الأمريكية على العراق.وفي أحد الأيام وخلال سفر عائلة حسن لبغداد فوجئ حسن بمكالمة هاتفية من جورج:

- مرحبا حسن أنا هنا في كاراكاس فكرت بمقابلتك.
- هل من أهمية لهذا اللقاء؟
- نعم.

كان حسن قد إمتلأت نفسه كرهاً لحكام ذلك البلد الذين يضربون بلده بالصواريخ ويحرقون جيشه المنسحب من الكويت في الشهر الأول من عام 1991 ولم تكن الصواريخ موجهة نحو رئيس

النظام.

- أنا أجد ضرورة لهذا اللقاء يا حسن خصوصاً وإنك تمّر بظروف صعبة، وأنا أعلم بأن زوجتك سافرت الى بغداد لكي تبيع داركم، لكن الحكومة وضعت معوقات أمام هذا الاجراء، والسبب يريدونك أن تعود، وتعلم إن ذلك يعني قطع رقبتك.

شعر حسن بأن جورج يمتلك المعلومات التفصيلية عنه وعن أوضاعه الشخصية والعائلية، كانت تلك العبارات جزءاً من الضغوط النفسية، حسن يعلم ذلك، ويعلم إنه لا مفّر له وهو في إرجوحة بين الموت في بلده أو الحياة خارجه لعله يجد حلولاً للخلاص من هذا النظام دون كلفة العمالة أوالتبعية.. لماذا لا يلتقي بجورج؟

- طيب نلتقي.

أخذت الأفكار تشتعل برأس حسن.. لماذا أتى جورج إليه؟

هل يريد دعوته للعمل معهم كجاسوس على بلده؟ الى جانب من أرتضى هذا الطريق تحت تبريرات المساعدة على الخلاص من نظام صدام؟ وهل أصبح الطريق المعارضي الوحيد هو الخضوع لإرادة المخابرات الدولية؟ وأين ما قرأناه عن الوطنية والتحرر الديمقراطي..؟ هل تغيرت لعبة السياسة لتصبح صراع أجهزة مخابرات دولية، والكبير يأكل الصغير في عالم متوحش؟ أين الأحزاب الوطنية التي كنا نسمع بها، هل إختفت لتحل محلها أشكال ورموز سياسية ذات عناونين وهمية، لكنها في الحقيقة هي مجموعات متشظية تحت عباءات مختلفة عربية وإيرانية وأمريكية.. والعباءة الأمريكية هي المتصدرة والنافذة والمغطية لساحات العالم.. وما مصير من يريدون تغيير نظام بلدهم بامكانيات داخلية وطنية ذاتية؟ هل أصبحوا حالمين بالماء وسط صحراء يغطيها السراب!!.

بدأ جورج حديثه مع حسن بمديح وإطراء تتخلله إشارات بأن الطريق الوحيد لنهاية حكم الدكتاتورية هو الانضمام الى المعارضة الخارجية التي تديرها أمريكا في لندن.. وإن هناك معارضات في طهران وسوريا لكنها أضعف ومهما طال الزمن لا تتمكن من الوصول الى هدف تغيير النظام إلا من خلال واشنكن.

- نحن وحدنا القادرون على تخليصكم من الوضع الحالي.
- وكيف تساعدوننا؟
- بالعمل معنا.
- وكيف؟
- هناك مشروع معلن للمعارضة العراقية «المؤتمر الوطني» في لندن يمكن أن تأخذ مكانة مهمة فيه.. ونحن ندعمك.
- مقابل العمل معكم كجاسوس.
- لماذا تطلق هذه العبارة المباشرة يا حسن؟
- جورج انتم لا تعرفون العراقيين جيدا، ولا أقصد المجموعة التي لا يتجاوز عددها أصابع اليد التي تتحكمون بها؟
- نعم نعرفهم.. والهدف إسقاط صدام.
- لماذا لا تقدمون العون بطريقة سياسية لائقة، وليست عبر الخضوع لجهازكم الاستخباري؟

- هذه هي قوانين العمل السياسي المعارضي.. يبدو إنك لم تتعامل بعد كمعارض سياسي قضيت كل عمرك السابق موظفاً في حكومة يرأسها صدام.
- وهل الموظفون الحكوميون وعددهم ما يقارب المليون وبينهم علماء وأطباء ومهندسون وسياسيون وديبلوماسيون يتركون العمل الحكومي لأن صدام يرأس النظام؟
- أنت إذا لم تتعاون معنا فستعود الى بغداد ويقطع رأسك.

شعر حسن بنبضات قلبه كأنها خناجر تخترق صدره، وبغثيان يغلي في رأسه، ما هذه المقايضة؟ كانت المرة الأولى في حياته التي يواجه فيها موقفاً عليه الاختيار ما بين الموت القادم في بغداد أو العيش في ظل رعاية المخابرات الأجنبية.. إنها حالة شبيهة بحالة الفتاة العذراء التي تربت على قيم أخلاقية وروحية عميقة، وتوضع في غرفة مغلقة وتتعرض للاختيار مابين الخضوع للاغتصاب بعد إزالة بكارتها أو التحدي واحتمال الموت. حضرت في تلك اللحظة صورة طيريه الجميلين وزوجته الوفية..وقف أمامهم يستنجدهم بأن يعاونوه للحل الأفضل بين رفض العرض السخي، وما بين الدخول في نفق مظلم من المجهول.. وهل سيتحملون نتائج الطريق الصعب الذي سيختاره في هذه اللحظة الحرجة، أم طريق الرخاء والعيش في أرقى بلد في العالم بنعيم وأبوهم يتحوّل الى أجير تابع للمخابرات الاجنبية تحت لافتة سياسية معارضية أنا وغيري يعرفونها، أنت يا زوجتي تعرفين بانني لم أجمع مالاً ولم أرتش او أسرق لكي أضعكم في سفينة النجاة المبهرجة خارج الوطن مثلما فعل كثيرون غيري، أنا غني وممتلئ بقيم حب الوطن والوطنية.. ولست غبياً كما يدعي البعض ممن رضوا أوتمنوا هذا الخيار السهل، إنها لحظة إختيار مصيرية.. أعرف صعوبتها عليك يا زوجتي الوفية حيث وقفت الى جانبي في أصعب الظروف وكان حبك الطاهر هو زادك الدائم، وأنتِ لا ترغبين ان أخذلك في منتصف الطريق، أعلم صعوبة الاختيار على أهلي هناك في العراق، والدتي ووالدي أشقائي وشقيقاتي.

- أشعر بشرف لي ولأبنائي أن أموت على تربة بلدي ولا أكون جاسوساً.

أطلق حسن عبارته هذه من دون إرتباك أو تخاذل بالكلمات، وكان يتوقع ما ردّ به جورج وقد تحولت اذناه الطويلتان المنتصبتان على طرفي وجهه الأبيض الى أرنبتي فلفل أحمر، وانقلبت معالم ذلك الوجه المبتسم الى ثورة من الغضب.

- هذه المبادئ والقيم إذهب لتصرفها بالبنك.. لكنني أعطيك فرصة الجواب ليوم غد، وهذا رقم هاتفي. وترك ورقة صغيرة على الطاولة التي جمعتهما.. حمل حسن الورقة وبحركة لا شعورية بصق عليها ومزقها ورماها على الأرض.
- ستندم يا حسن لما سيحصل لك في مستقبل الأيام.
- لا يهمني ذلك..

كانت هذه العبارات نهاية ختام اللقاء حيث قرر فيه حسن طريقه الذي اقتنع به. وتحمل تبعاته الصعبة، ليتحمل في سنواته اللاحقة أقذر عملية انتقام مخابرتي من جهاز عالمي تجاه فرد لم يقبل هذا الطريق، تلك السنوات التي ارتضاها حسن بقناعة رغم قساوتها في خياره لمعارضة النظام بصورة مستقلة دون تنظيمات ترعاها أجهزة مخابرات أجنبية.

بغداد.. الأمل الضائع.

ظلت الأفكار السوداوية تدور في رأس حسن.. لقد وقع ما بين فكي كماشتين لا ترحمان (نظام صدام في العراق وجهاز المخابرات الذي أبلغه بأنه سيؤذيه) هل لديه خلاص، ومن الذي سيساعده؟ هل يعود الى وطنه ويتحمل أعباء موقفه الذي أختاره؟ ولماذا يختار الطريق السهل للموت؟ إذا كانت هناك فرصة للعيش من أجل أطفاله وزوجته وأهله بكرامة وشرف، ولماذا لم يقبل التعاون مع أولئك الذين بيدهم مقدرات العالم ليخلصوا بلده مما يعانيه من دكتاتورية!! ماهذه القيم التي هيمنت على عقله وعقول جيل كامل من أمثاله!! لماذا لا يقرأ الواقع بموضوعية ويقبل الصفقة، لقد فات الأوان وعليه التمسك بما دفعه لهذا الموقف «الرجولي» الثابت ضد العمالة الرخيصة، كلا.. كلا، ليس خطأ ما إتخذه من قرار جريئ وليلعن الله الأمريكان وليتحمل عواقب قراره هذا.

أحس بشعور جنوني حيال أخبار زوجته وطفليه في بغداد.. تناول الهاتف، كانت عبير على الجانب الثاني، وبهدوئها وقدرتها على التحمل قالت له: سنغادر بغداد غداً عن طريق عمان.. هل تحتاج الى شيء؟

كلا.. ولكن لدي وثيقة شهادة الدكتوراه مصدقة أرجو أن تجلبيها معك.

- طيب.. والداك والعائلة جميعاً يسلمون عليك.
- مع السلامة..

بدا حسن أكثر تماسكاً بعد ان أنهى مكالمته مع عبير عبر الهاتف لأنها القوة الحقيقية التي تمده بالتماسك وهي هناك في بغداد، عائلته الصغيرة، طيراه الجميلان،عبير، زوجته الصامدة القوية رغم بوادر الوهن على قلبها النقي الصادق بحبٍ تحدى وصمد بوجه كل الظروف. وكذلك أهله الذين تنتظرهم ظروف قاسية معروفة لمن يمتلكون إبناً يخرج عن الطاعة ويتمرد أو (يرتد) حسب التعبير الدارج عند أجهزة النظام واعلامه، والحكم الذي تلقاه حسن الى جانب أكثر من مائة مثقف على صفحات الجرائد بعد سنتين من إنشقاقه عن النظام.

لم تعد «ميرنا» تحرك دوافعه للتخدير الذي لم يعد ملائماً لوضعه الحالي، إنه بحاجة الى يقظة قوية كالريح العاصفة التي تكتسح أوراق الشجر الصفراء، لقد قرر بصورة نهائية هجرانها.. مع بقاء كل مشاعر الوفاء لتلك اللحظات العصيبة التي عاونت حسن خلالها.

توجه حسن بسيارته الى مطار كاراكاس ولم يصطحب معه سائقه. كان يرغب بالتمتع بخصوصية لقاء زوجته العائدة من بغداد بصحبة طيريه الجميلين، ولكي لا تتطاير الأخبار الى ميرنا حيث أخذ يعدّ عدة الاحتراز منها مما قد تثيره له من متاعب له ولعائلته مستقبلاً.

لم يتمالك نفسه من احتضان عبير بقوة وذراعا طيريه تتدليان على كتفيهما، لحظة تنبض بحرارة مشاعر الحب والفرح بعودتهما وانفلاتهما من مصيدة النظام وعدم مقايضته باستدراجه للعودة الى بغداد.

لم يوافقوا على إجراء معاملة بيع البيت لأعذار واهية غير مقنعة.

- لا يهمك إنسي البيت المهم أنتم بخير.

كانت نظرات عبير تشع بالحب الصادق، وهي مثلما كانت لا تصرّح بعبارات الحب والاشتياق، لأن اللغة تخجل من أن تتحرك على أطراف لسانها، وكما كانت تقول لحسن دائماً.. لغة مجاملات الحب عدة المنافقات، عدة أبطال الأفلام الرومانسية، وإذا كنت تريد السهولة لسماع تلك الكلمات فاذهب الى أقرب صالة سينما أو احتضن عشرة فيديوهات من قصص الغرام واستمتع بها.

- شقيقك عمر سيصل بعد يومين.. لقد رافقنا الى عمان وودعنا بالمطار، لديه شغل ثم سيلتحق بنا، عنده رغبة بالعمل في الخارج، هنا في كاراكاس يريد تعلم اللغة ثم الدخول في عمل حر.
- على كل حال نتحدث فيما بعد المهم لنذهب الى تناول السمك في مطعم البحيرة على أطراف العاصمة. تعرفين إنني احب هذا المطعم خصوصاً فترات الغداء حيث الاستمتاع بالمناظر الخلابة والشمس الساحرة.
- كما يعجبك.
- ألم تشتاقي إليّ يا عبير؟

كعادتها لا ٍجواب إلا من ذلك الشعاع الصادر من تلك الأوزتين اللتين تنحنيان خجلاً ووقارا، عيناك يا عبير أوزتان تتبختران على أطراف بحيرة الحب الخالد، لن أخذلهما بعد الان، لقد هجرت تلك النحلة القاتلة. ردّد ذلك مع نفسه دون أن يدع عبير تكتشف أمره.

- أتعلم يا حسن ماذا جرى معي في بغداد.. قصة تستحق أن تتحول الى فلم بوليسي محكم الجوانب.
- طبعاً.. هناك الجماعة يتقنون صناعة الأفلام.
- قالوا صدرت قرارات تمنع بيع عقارات الموظفين الحكوميين في الخارج إلا إذا عادوا وأجروا المعاملات بأنفسهم.
- لو كانت بغداد كلها بإسمي لا أذهب.
- طبعاً اخبرني صديقك جاسم بان عليك الحذر لأن مصيراً سيئاً سينتظرك.
- أتعلمين يا عبير هذا الكلام قاله لي جورج حيث زارني قبل أسبوعين وأخبرني بمعلومات عن ذهابك لبغداد وتقديمك معاملة بيع الدار؟
- الله يلعنهم وهل وافقت للعمل معهم؟
- ماذا تتوقعين!!
- أنا أعرفك جيداً لكننا سنواجه أياما صعبة.
- المفاجأة الثانية.. هي ان صدام سألني عنك.
- انتفض حسن من مكانه:
- كيف وأين؟؟
- في إحدى جولاته للبيوت في مدينتنا زارنا وكنت أنا والأطفال هناك قال لي:
- كيف اخبار حسن.
- هو بخير لكنه متضايق من مكانه في كاراكاس.
- طيب ننقله الى مكان آخر قولي له ليأتي الى بغداد ويقابلني.
- هذه هي اللعبة.. المهم ان يعود الى بغداد.. حين سمعت عبير كلماته تلك شكرته، لكنها تيقنت بأن حسن تحيطه الضغوط من كل جانب، أمامه طريق واحد، الهروب و ولكن أين ومع من؟ بريطانيا، أمريكا، السعودية، سوريا، إيران، لكل دولة شروطها ومصالحها ومجموعاتها من العراقيين الهاربين تستخدمهم في لعبة المخابرات المعروفة. أمريكا وبريطانيا وحلفاؤها في المنطقة من جانب، وإيران وسوريا من جانب آخر،أمريكا جعلت من لندن مقراً للمعارضة العراقية التي تشرف عليها، إيران لها عملاؤها من نفس المذهب (الشيعي) بينهم من رتبت إقامتهم في دمشق.

شعر حسن إن الوقت غير مناسب الآن خلال تناوله الغداء مع زوجته وطفليه العائدين من بغداد لمناقشة خيارات الهروب. هو الآن خارج العراق، لكنه في جزيرة تحيطها المياه من كل جانب، لا توجد خيارات بعد أن قال للأمريكان كلمته القطعية برفض العمل معهم، أية معارضة مستقلة عن ألاعيب المخابرات يمكن أن تقوم بعمل ما.. إنها أحلام. وأين هو البنك الذي دعاه جورج لتصريف شيكات القيم فيه، لا طريق وسطاً، حسن لا يملك شيئا مادياً غير راتبه الشهري الحكومي وبيته في بغداد الذي منعت المخابرات بيعه، ليست لديه قدرة على العمل التجاري حتى في الحدود الدنيا، علمته ولقنته دروس العقيدة إن من يدخر في الخارج ولو ألف دولار يجب أن يخبّر فيه حكومته، وماذا سيشتغل؟ هل لديه مدخرات كرأسمال لعمل مشروع تجاري صغير، كلا، هذا هو المأزق، وطنيته الزائدة تركته الآن وحيداً وسط سوق رائج للمعارضين العراقيين في التقاطهم من قبل مخابرات الدول وعلى رأسها امريكا..

استقبل حسن شقيقه عمر في مطار كاراكاس بعد عدة أيام، كان لقاء حميمياً قبلات حارة تنفس حسن خلالها بعمق:

- رائحة أمي معك يا عمر.. كيف حالها؟
- صحتها جيدة.. وحتماً اخبرتك عبير بكل التفاصيل.

في الطريق من المطار الى البيت حاول عمر عدم تقديم صدمات جديدة لحسن. حيث لم يتمكن من حضور جنازة والدهما في مدينتهما الذي توفى قبل ستة أشهر.. كان ذلك مؤلماً لحسن فوالده كان رمزاً للقوة والشجاعة بالنسبة إليه.. لم يكن يخاف أحداً فسلك الشرطة الذي إشتغل فيه برتبة متوسطة كان فرصة له لاستعراض القوة والشجاعة ضد المخالفين للاجراءات التنفيذية في الدعاوي، وللمهربين الذين كانوا يشكلون شبكات خطيرة ضد الحكومة. وتعزيز الهيبة بين أبناء مدينته.

- مجيئك ضروري يا عمر أنا محتاج اليك الى جانبي هذه الأيام والى جانب عبير والأطفال، وفرصة لك لتتعلم اللغة الاسبانية وقد تكون هناك فرصة عمل، ولكن قل لي وماذا عن زوجتك؟
- ستبقى في بغداد لحين ما تتوفر لي هنا فرصة للعمل والاستقرار.

مع كل ما خلفته عودة عبير والأطفال وكذلك مجيئ شقيقه عمر من ارتياح لدى حسن، الإ أن ساعة حسم المصير أخذت تقترب وتدق بقوة في رأسه، أصبح لها وقع مخيف يبعث رعشات القلق في أنحاء جسمه، تساؤلات تلح في رأسه:

لماذا وصلنا الى هذا المصير؟ لماذا يتهدم كل شيئ ويهوى الى واد عميق، لماذا يتعرض هذا البلد الى عاصفة صنعها الغرور وحلم الزعامة خارج حدود الوطن؟ لماذا راح قرابة المليون شاب عراقي ثمناً لكارثة حرب دامت ثمان سنوات تحت تبريرات وأوهام مواجهة «التوسع الايراني» وكأن العراق وحده مسؤول عن مصير أمة. هو البوابة الشرقية كما سماها؟ وهل نصيب العراقيين الموت والتشرد، في حين يعيش من هم خلف تلك البوابة من العرب الرخاء والأمن والاستقرار؟ أم إنها الزعامة للأمة المقهورة النائمة. وإذا كان العراق يدافع عن العرب وأهل الخليج وفي مقدمتهم الكويتيين.. فلماذا لم يوفوا للعراق وقفته، وأخذوا يطالبونه بتسديد القروض، قروض السلاح، وهل كان ذلك مبرراً لغزو هذا البلدالصغير لإعطاء مبرر لسحق العراق بعدما تعب جيشه وشعبه من حرب الثماني سنوات؟؟

والآن تدوي تحت صالة الأمم المتحدة في نيويورك سلسلة قرارات العزل السياسي والاقتصادي الذي سيكلف الأجيال العراقية المقبلة أثماناً تفوق ما خلفته الحرب النووية على اليابان..
شراك العاطفة مرة أخرى.

لم تمر أيام على تخلص حسن من تلك النحلة القاتلة ميرنا، وانشراح صدر عبير بذلك حيث أصبح حسن لها ولطفليه.. حتى نسج القدر له قصة جديدة مع إمرأة أخرى التقته في إحدى الحفلات العامة التي كان يحضرها، تعرفت عليه وقدمت نفسها كمسؤولة علاقات في شركة تجارية نفطية، وكانت هناك مناسبة قرب انعقاد مؤتمر نفطي عالمي في مدينة بورتالكروس بفنزويلا حيث عهد إليه من بغداد لحضور ذلك المؤتمر، تحدثت ساندريلا بكل تفصيلات برنامج المؤتمر:

- هل ستحضر المؤتمر فأنا من بين المدعويين؟
- نعم سأحضره.
- هل لديك الوقت لزيارتك في المكتب للحديث عن التفصيلات؟
- ولم لا غداً؟ أنا بانتظارك.

كان شعور حسن البريىء بأن هذه الفتاة وهي جميلة جداً تريد بحكم وظيفتها تمتين العلاقات العامة بين العراق ودول أمريكا اللاتينية.. استبعد أي احتمال بأن لها أهدافاً أخرى، خصوصاً إنه خرج من قصة كادت تهدم أركان بيته.

كان لقاء تخللته حادثة ملفتة.. فقد أراد حسن أن ينادي سكرتيرته لجلب القهوة، وكان مكان اعداد الضيافة متداخلاً مع مكتبه، لكن السكرتيرة لم تجب، ويبدو إنها في مكان آخر، قفزت ساندريلا بسرعة وطلبت منه الإذن بجلب القهوة بنفسها.

أحضرت كوبين من القهوة وجلست على كرسي مقابل له.. لم يتمكن من التعليق على ذلك التصرف (غير الرسمي) وأدخله في خانة البساطة وعدم التعقيد التي تتمتع بها شعوب أمريكا اللاتينية.

قدمت ساندريلا فقرات برنامج المؤتمر وعدد الحضور ومن بينهم إسم خبير نفطي عراقي هو صديق حميم لحسن، استقر في كاراكس منذ أكثر من عقدين وتزوج إمرأة من ذات البلد.

- سيحضر محمد معي ضمن الوفد فهو خبير دولي معروف، وسننغادر بعد ثلاثة أيام.
- قد نكون على نفس الطائرة.
- فرصة طيبة.

غادرت ساندريلا، و خلفت لدى حسن تلك العفوية الطاغية، لكنها لن تستطيع اختراق مشاعره، فيكفيه ما حصل، وعبير هي كل الدنيا بالنسبة إليه. لكن تصرفها غير التقليدي هذا بجلب القهوة يعني إنها اخترقت جدران اللياقة الديبلوماسية كونها تتعرف عليه لأول مرة، لماذا؟

هل تعرف عنه شيئاً؟ هل لديها معلومات عن تركه تلك النحلة القاتلة ميرنا؟ وأرادت أن تأخذ مكانها؟؟ ولماذا؟ ومن دفعها لهذا الاختراق الجديد؟؟

أسئلة حاول حسن طردها من دماغه طالما إنه لن يقع في الفخ مجدداً، وجه ساندريلا لم يفارقه بعد عودته للبيت واحتضانه لحبيبيه الطيرين الجميلين:

- بابا لماذا لا تأخذنا معك الى بورتالكروس، راحت إبنته تتوسله.
- لديكما مدرسة وماما لا تقبل أن تتركوها،كما إن عمو عمر معكم الآن.

غضب الطفلان وانصرفا بعيدا عنه، فيما عينا عبير تراقبان الموقف بصمت، لقد كانت عبير صبورة قنوعة لا تمتلك ما تمتلكه شياطين النساء من مكر، هي تحبه رغم كل ما يفعل.

- وأنت يا عبير ماذا تفكرين هل تريدين إصطحابي في هذه السفرة؟
- لا الطفلان لديهما مدرسة، كما انني متعبة من سفرة بغداد.

شعر حسن بأن عبير اجتاحتها عاصفة من الغضب الصامت:

فهل من يريد أن يصطحب أسرته بمثل هذه السفرة يسأل أم يقرر؟

بعد وصول حسن مدينة بورتلكوس توجه مباشرة الى الفندق المخصص للوفود وبصحبته محمد. كان حسن منشغلاً بما يمكن أن يقود هذا التعرف على هذه الفتاة خلال تبادلهما الأحاديث في بهو الفندق،أطلت ساندريلا بفستانها الأحمر وشعرها الأشقر المتلوي وهي تتأبط مجموعة من الملفات.

- مرحبا لدي برنامج المؤتمر حتماً وصلكما.
- نعم شكراً.

طلب حسن منها الجلوس لتناول فنجان قهوة أو عصير. جلست ساندرلا بعطرها الذي تبخر منها وهي تتحدث عن مدينة بورتالكروس وكأنها مدينتها:

- هذا ميناء مهم في فنزويلا كما إنه يحوي مصافي مهمة للنفط الفنزويلي، لهذا وجدت الحكومة الفنزويلية عقد المؤتمر العالمي للطاقة هنا.تتحدث وكأن من يقابلها سائحان.

كانت طريقتها في إلقاء المعلومات البسيطة بشكل مثير أرادت من خلاله جذب انتباه حسن وليس محمد المنهمك في قراءة سريعة لأحد التقارير التي ستلقى في المؤتمر.

- هناك دعوة عشاء من وزارة النفط تتخلها سهرة فنية لا بد من حضوركما.
- وهل نستطيع عدم الحضور؟

نهض الجميع بخطى بطيئة نحو قاعة المؤتمر، إلتقى مندوب إحدى الدول العربية بحسن مسلماً عليه:

- يبدو إنه سيغلب على حضور المؤتمر المندوبون، قال ذلك لزميله محمد.
- هناك حصور وزاري خصوصاً لدول الأوبك.

كان حسن يحمل هاتفاً نقاًلاً نزل للأسواق لأول مرة، ولكبر حجمه كان حسن يدسه داخل حقيبة صغيرة رغم إنه لا يحب حمل الحقائب اليدوية لما عاناه من مشاكل معيقة لتنقلاته خلال النهار خصوصاً إذا كان لديه إلتزام ليلي قبل عودته لداره..

- ألو عبير كيفك وكيف الأطفال؟
- الحمد لله وأنت كيف اجتماعاتكم؟ متى تعود؟
- إنشاء الله ثلاثة أيام يوم انتهاء المؤتمر أعود، مع السلامة.

كان المناخ جميلاً في بورتاكلوس وغروب الشمس يضفي جواً شاعرياً يمتزج بالضجيج الذي تثيره الجميلات داخل الفندق والمسؤولات عن جلسات المؤتمر، وكانت ساندرلا تلوح له بالتحية بين لحظة وأخرى تتحرك بنشاط بين جموع المؤتمرين، لم يعرف حسن لماذا كانت عيناه مشدودتان نحوها.

- أين أنت يا حسن.. يعني بشق الأنفس تخلصت من ميرنا.. هذه المرة تقع في ساندريلا.. أطلق محمد تلك العبارة ضاحكاً.
- ماذا تقول يا محمد.

- لا شيئ لا شيئ ولكنها فاتنة ما رأيك؟
- فاتنة نعم ولكن دعك في منطقة الأمان الخضراء، والابتعاد عن مخاطر الفساتين الحمراء، لأنها توقد الحرائق في الأفئدة.
- نحن في مؤتمر فتيل النار، النفط والطاقة.

ضحك الاثنان وهما يدخلان المصعد على أمل اللقاء الساعة الثامنة. وبعد دقائق من دخول حسن غرفته رن جرس هاتف الغرفة.. كانت هي ساندريلا..

- كيف حالك.
- الحمد لله.
- سنلتقي المساء ولا تتفاجأ أن يكون مقعدي على طاولتك الليلة وهناك صديقة فنزولية لي سترافقني.
- الى اللقاء.

بعد غلق سماعة الهاتف أدار حسن رقم هاتف محمد.

- هل تعلم يا صديقي ماذا فعلت هذه المجنونة؟
- ماذا؟
- رتبت شراك المصيدة لي ولك.
- رد محمد ضاحكاً:
- إنه مؤتمر للطاقة يا أخي العزيز.

شعر حسن بأن الأوهام تتصارع في نفسه كالأمواج، واحدة تزيح أخرى، أوهام القائد وماكنة العمل التي حولته وجيلاً كاملاً معه الى أجزاء من الماكنة الكبيرة، عملية إزاحتها تدخل أوهاماً جديدة تتصارع داخل روح حسن، فهو من جهة يحب زوجته لدرجة عالية، لكنها لا تقدم له ما يغذي متعته، في أحد الأيام قالت له عبير وهي تطلق زفرات الألم بصوت منخفض:

- أنا لا أستطيع أن أرقص لك وأن أتفنن في عبارات الجذب والاغراء، لا أستطيع أن أقدم لك هذه العدّة التي تجدها خارج البيت.

حضرت هذه الكلمات في رأس حسن وهو يستعد لسهرة الليلة.

لم تكن ساندرلا أقل فتنة من إطلالتها في النهار، فقد إرتدت فستان سهرة جميلاً على قامتها الطويلة وشعرها ذي التسريحة الجذابة، طلبت يده للرقص، على غير العادة التي يطلب فيها الرجل من المرأة الرقص، كانت صديقتها الى جانب محمد من أهل بورتالكروس ذات فتنة عالية إنشغل معها محمد في أحاديث عن الطاقة والنفط والعالم، نهض الجميع في رقصة إسبانية على إيقاعات الفلامنكو التي أجادت أدائه ساندريلا فيما بدا حسن كطفل يقاوم سقوط خطوات مشيته الأولى أمام راقصة بارعة.

- أنت تحمل جينات لاتينية في حيويتك وحرارة دمك.
- أنتم اللاتينيين تحملون جيناتنا نحن العرب.

شعر حسن إنها تضمه بهدوء الى صدرها النافر، حضرت صورة عبير في تلك اللحظة، ونزلت على صدره جبالاً من الثلج، فلا يريد تجديد معاناة تلك الانسانة المخلصة زوجته، لكنها لحظات أنس عابرة يا حسن!!!

خرج الجميع بعد انتهاء السهرة، منتشين وسط ضحكات عالية مصدرها أعضاء الوفود العربية طبعاً ترافق كلا منهم فاتنة من فاتنات فنزويلا، لكن حسن اتخذ قراراً بتوديع ساندريلا، وكان بذلك

يقاوم أباليس الغيرة التي راحت تغلي في نفسه (ستذهب مع آخر أو ستنام وحدها؟؟)

وبكل لطف وكياسة مدّ حسن يده الى يد ساندريلا ومال برأسه نحو وجهها ليقبلها مع كلمات وداع حميمية:

- تصبحين على خير ساندريلا، أنا محتاج للنوم آسف
- تصبح على خير.

أما محمد فقد اصطحب صديقتها معه لإكمال سهرتهما في غرفته المجاورة لغرفة حسن.

عند الصباح التقى الأربعة على طاولة الإفطار، محمد وصديقته كانا في غاية السعادة يتناولان النكات الفنزيلية.. فيما ساندريلا كانت شاحبة الوجه جلست الى جانب حسن تقاوم كآبتها التي خلفتها نهاية السهرة بعدم اصطحابها معها لاستكمالها

- هل نمت جيداً
- وأنت؟
- مثلك.

.

أراد حسن بعد عودته من مؤتمر بورت الكروس أن يرتاح مما مر به من إرهاق نفسي وعصبي، وظلت كلمات جورج تدق في رأسه: ستندم ولا ينفع الندم، لماذا وقف بوجههم؟ ما هي قوته؟ وهل صحيح إن القيم تمتلك من القوة ما تواجه به أصعب الظروف؟ إنه حالم وما زال يعيش مع الحالمين مثله بعالم مليئ بمفاهيم الصدق والاخلاص للوطن، ما هذه الرومانيكية، حسن يعلم إنه لا يمكنه العودة الى وطنه، فالى أين سيلجأ إذا ما قرر الانفصال عن النظام؟ أليس الأمريكان هم الذين احتضنوا أعداداً كثيرة من المعارضين، فلماذا يشذّ حسن عنهم ويتمرد على الأمريكان؟. ولكن ساندرلا هل ستحل محل ميرنا لتشغله عن آلامه وأحزانه.. وهل سيدخل قصة جديدة أقسى وأصعب من سابقتها (النحلة القاتلة)؟

لقد غرق حسن في أوهام ماضية حين كان جزءا من منظومة قالت عن نفسها بانها تاريخية ووقع أسيرا لاحكامها في صرامة القيم والالتزام العالي بالمسؤولية، واليوم يجد نفسه معلقا بالهواء في أرجوحة تمزج ما بين أوهام الشعارات وأوهام العواطف المشتة. فكيف له أن يخرج من شرنقة غموض المصير والمستقبل. القيود ما زالت تطوق روحه قبل يديه، وكلمات جورج اللعينة تدق في رأسه «ألا تفكر بمصير أولادك، وكيف يمكن أن توفر لهم مستقبلا يليق يهم في بلد الحرية والديمقراطية والمدنية». واذا كان قد حسم أمره اعتماداً على سنده عبير، فلماذا يعود مرة ثانية ليجعل من إمرأة جديدة يعجب بها ستارا لأوهام العواطف المشتتة التي أصيب بها منذ خروجه من بغداد؟ هل الجسد الممزوج بدعابة التحرر والانعتاق والاستمتاع بطقوس الليالي الحمراء، وهو ما لا تستطيع عبير توفيره له. مرة قالت له عبير «انا لا استطيع ان أرقص وأغني وأرتدي ثوب سهرة نصف عاري تستطيع ان تجده بكل سهوله خارج البيت».

يبدو ان ساندريلا تختلف عن سابقتها، فهي تبدو كأمرأة رصينة في تعاطيها العاطفي وكأنها تخطط لأفق بعيد، وهنا تكمن خطورتها على عبير والعائلة.

حاول حسن أن يرقع هذا الخرق الكبير في عواطفه ومشاعره، فهو يحب عبير بعمق، ولم يكن في لحظة من اللحظات أنانياً، لكنه في لحظات معينة تنتابه نوبات عبثية لا تستطيع عبير توفيرها له. إحدى المرات وقبل خروجه مساء من البيت لموعد مع «سندريلا» حيث كانت عبير تعرف إنه سيخرج معها، لكنها جلست صامتة على الأريكة، وهو يستعد لتبديل ملابسه عند خروجه من

الحمام، شعر إنه أخذ يضغط على عبير بشكل غير معقول، انحنى عليها لتقبليها لكنها ابتعدت عنه، وعبرات الدموع تتدفق.

- عبير أنت الجنة وغيرك النار، أنا احتاج الى النار، لكنك ملاذي وحقلي الأخضر أرجوكي سامحيني.
- لا يهمك، المهم إنك تكون مرتاح وصحتك جيدة.
- أنا مازلت متأزما، ولا أعرف ماذا أفعل.. لحظات السعادة الحقيقية هي معك ومع طيري الجميلين، لكنني لا أعرف، ساعديني عبير على الخروج من هذه الحالة فقد كنت معي وأنا داخل ذلك القفص الجنوني، وحين خرجت بقيت تسانديني وانا أعبر تلك العاصفة الملعونة عاصفة الصحراء..وتظلين معي كل العمر.

يبدو إن هناك قوى غريبة تتصارع داخل الانسان وتدفعه لتصرفات تبدو شاذة لكنها ممتعة ولذيذة، قوة الانسان في قدرته على التوازن الداخلي، وهناك شعور عميق داخل حسن يقول إن ما بينه وبين عبير أقوى من كل المحيط الخارجي الذي يحيط بهما، فهي إنسانة عظيمة، ومخلصة لدرجة خارج المعقول. هو لم يشعر في لحظة من اللحظات إنه يستغل حبها واخلاصها له. هو على يقين إنها من هذا الشرق المفعم بأساطير الحب والحرب، ويبدو إن في داخله شوق للحرية المجنونة.

لقد اعطاها أقوى مشاعر الحب والاخلاص حين قرر الارتباط بها كزوجة رغم اعلان خطوبتها من أحد المتقدمين اليها وفسخت خطبتها من أجل ذلك الحب الخالد الذي حطم كل الحواجز.

لم يكن حب حسن لعبير مبنياً على أساس المتعة، كان ورقة في سِفْر طويل من قيم الاخلاص، فالقيم لا تتجزأ، كانت عبير بالنسبة اليه علامة مشرقة للتحدي من أجل حب طاهر، فالحب ليس عبارات تطلق في فضاء سمر الليالي، إنه تضحية وثقة ووفاء لا ينقطع، لم تكن عبير أحجية من مرض عارض. كانت مرسمه الذي ارتصفت لوحات عمره على حيطانه الأربعة إلا لوحة واحدة لم تكتمل، كان حسن يشعر بنقطة البحث عن اكتمال تلك اللوحة، وهو في عبثيته يحاول أن يستكمل رسم تلك اللوحة. ولم يتملكه شعور الخيانة لرفيقة عمره، إنه يسعى للتخلص من هذا الثقل في رأسه، يريد أن يرتاح لاستكمال اللوحة الناقصة، لا يعرف ما هو النقص، وأين يجده من زوايا هذا العالم، وأين تكمن لحظة الانبهار والراحة التامة. حسن مؤمن بالقيم والاخلاق، لكنه يمتلك قلباً يرتجف عند أول إشارة لظل إمرأة، لا يعرف لماذا؟ هل لأن سبعة من أعتى نساء محلته في مدينته العظيمة كن قد أرضعنه حينما جدب الحليب في ثديي أمه، وهل هذا لأن صداقاته في طفولته كانت من بنات (حارته) وكان يميل للعب معهن أكثر من ميله للعب مع أشقياء أطفال ذلك الحي الذي ولد فيه.

يشعر بأن شيئاً ما ينقصه ليفرح، مع أن اللون الأخضر كان يحيط به في الرايات المنتصبة في تكية الشيخ الذي يعيش جيرانه، لقد كان هذا الجانب المهم في طفولته التي تغمرها الأساطير وإحلال الأرواح الطيبة وطرد الأرواح الشريرة من جسد الانسان الذي يقولون عنه مجنوناً، فهذه الطفولة المشبعة بالبخور والعنبر، وبأصوات الدفوف وإيقاعات الرماح والحراب التي تخترق أجساد الدراويش من دون دماء، لا مكان للدم في عنفوان التراتيل والتسابيح الصوفية التي تختلط فيه اللغات وترتفع لغة التسامي الروحاني.

ساندريلا كغيرها من النساء تسعى لاقتناصه من عائلته وزوجته، ويبدو إن عواطفه الرقيقة وركامات الحرمان القديم تجعل الطريق سهلاً أمامهن.

اللعبة الغامضة.

يحاول حسن إبعاد فتيل الأزمة عن عائلته، وقبل أن يفكر بخطة الرحيل عن كاراكاس كان يقضي لياليه مع أصدقاء العائلة وخصوصاً عائلة مصعب وهناء القريبة جداً منهم.

في صباح أحد الأيام حضر مصعب مبكراً الى بيت حسن مطلقاً قهقهاته التقليدية..

- هل تضيفنا على قهوة؟
- خير انشاء الله عندك أخبار ؟
- صديقك وزميلك المعارض عفيف هنا في كاراكاس ويريد مقابلتك؟
- ماذا عنده؟ قد تكون احدى صديقاته اللاتينيات جلبته من عمق الصحراء التي أسكنته فيها زوجته بعد دعائها من ربها أن يقيم في صحراء قاحلة حتى يرتاح قلبها.
- أعتقد عنده شيئ ولم يخبرني به..
- لا يوجد مانع..

تم ترتيب الموعد لكي يكون اللقاء انفرادياً وسرياً.. التقى الصديقان الزميلان خارج العاصمة في مطعم للسمك على بحر الكاريبي.. وانفردا قليلاً عن صديقهماالمشترك.. تبادلا الأخبار والأحاديث.. بعدها دخل عفيف في الموضوع.

- أنا في زيارة لامريكا اللاتينية وقررت الحضور هنا للقائك.. أنا اعرف وضعك مع النظام.. وقرارك معروف بعدم العودة الى بغداد.
- ومن قال ذلك؟
- معلومات مضيفينا تقول ذلك.. وهم يقدمون لك عرضاً للعمل المعارضي.
- يعني معك؟
- نعم ولدينا آخرين في داخل البلد.
- أنا ليس لدي مانع ولكنني لا اتحمل العيش في الصحراء.. هل يمكن أن يكون عملنا من البلد العربي المجاور وأستطيع الاقامة هناك وأفتح مركزاً للدراسات كغطاء للشغل.؟
- فكرة جيدة وسأنقلها الى هناك وانتظر مني الجواب.. وأرجو أن يبقى هذا الموضوع سراً فيما بيننا، حتى صديقنا مصعب لا تخبره.
- وهو كذلك.

عاد الثلاثة الى كاراكاس، وحرص حسن ألا يلتقيه هناك لكي لا يتسرب الخبر الى مسؤولي الأمن في السفارة..

- أنا اعتذر عن عدم دعوتك الليلة.
- اقدّر ذلك.. انتظر مني مكالمة أو فاكس.
- انشاء الله..

****

حرص حسن على اخبار عبير بما حصل له مع عفيف التي تعرف ماضيه حينما كان يشتغل مع حسن، وتعرف قصصه جميعها.

- هل هو صادق معك؟
- أعتقد ذلك.. ويبدو إنه مكلف بالمسألة وليس تبرعاً من عنده.

- أعتقد من المناسب أن تسافري أنتِ والأطفال الى هذا البلد المجاور وتقومي بتسجيلهم في مدرسة عربية فقد شارفوا على نسيانها لحين استكمالي لخطة أخذ اجازة وبعدها اترك العمل واستقر في هذا البلد.
- انشاء الله يكون خير.

بعد ثلاثة أيام وصل فاكس الى دار حسن من عفيف يخبره فيه بأنه تمت الموافقة على الخطة المقترحة والجماعة ينتظرون منك الخطوات المقبلة وفق المقترحات.

تم ترتيب استعدادات سفر عبير والأطفال، واستئجار شقة لهم بعد وصولهم، كان على حسن انتظار موافقات الوزارة على منحه الاجازة لقد تأخرت أكثر من شهر.

لم يهدأ بال حسن لحظة واحدة، فعائلته ذهبت الى تلك العاصمة، ولا يريد أن يكون بعيداً عنهم، صحيح إن فكرة تعليم اللغة العربية فكرة حكيمة، لكن حسن لا يعلم الخطوة المقبلة، إنها بداية مظلمة نتيجة موقفه السياسي، فهذا النظام سيتعامل معه بقسوة، وهل أكثر قسوة من الشعور بالكبت وغياب الحرية، وكيف سلّم مصيره ومصير عائلته بيد عفيف، ومن خلفه الأفق أمامه غامض، صحيح إن عفيف حسم أمره وذهب هناك هو وعائلته، أما حسن فمن جهة لا يريد أن يذهب للعيش في ذلك البلد ليس كرهاً فيه وبأهله، ولكن لظروف الحياة القاسية، على أية حال، لا يريد حسن مناقشة الأمور بهذه الطريقة. إذا تمت موافقة وزارته على منحه الاجازة لكي يتمكن من السفر عندها يكون الى جانب أطفاله وزوجته، فذلك أمر جيد، ويمكن تحقيق مخططه للعمل السياسي المعارض البعيد عن ألاعيب المخابرات الأجنبية. وصلته برقية موافقة منح الاجازة من بغداد، وأخذ يستعد للسفر وتشطيب جميع ملفات عمله وكأنه سيغادر بلا عودة للوظيفة.

وتمت اجراءات السفر واتصل بعبير يخبرها الموعد وقد فرحت كثيراً بعد انتظار لشهرين وحدها هي والأطفال في ظل ظروف قاسية، وإشاعات وأحاديث بين أوساط العراقيين العاملين بالسفارة بأن حسن سيترك عمله ويلتحق بالمعارضة، وكانت مثل هذه الاشاعات مضرة بوضعه الأمني وبنظرة نظام البلد من علانية العمل المعارضي العراقي. اتصل بصديقه عفيف الذي أخبره بأن كل شيئ على ما يرام، وأن هناك صديق مشترك سيستقبله في المطار ويذلل له جميع الصعوبات في مكان الاقامة الجديد. لكن بعد وصول حسن المطار لم يستقبله ذلك الصديق المشترك والذي كان من المنتظر العمل معه. فاستأجر سيارة تاكسي الى عنوان سكن عائلته، وكانت هذه أولى المنغصات، فلا يوجد مبرر للكذب، وقد لايكون ذلك، لماذا يتسرع بالحكم، لعل هناك ظرف طارئ قد حصل لذلك الصديق.

كانت فرحة طفليه كبيرة وتسابق كل من وليد وأمل لعناقا لوالد العائد، طبع قبلة على خد عبير:
- شكراً حبيبتي على صبرك وأنا آسف الأمر لم يكن بيدي، انشاء الله تكون الأمور جيدة.
- يا رب.

اتصل حسن هاتفياً بعفيف وأخبره بما حصل وأنه لم يستقبله أحد، فاعتذر، وقال له يمكن أن يكون هناك ظرف طارىء، وأعطاه حسن رقم هاتف المنزل الذي يسكنه مع عائلته فوعده إنه سيتصل به ليعلمه الاجراءات اللاحقة.

كان على حسن أن يشيع الفرح بين عائلته، وان ينظم لهم الخروج للنزهة بعد استكمال واجبتهما ويبدو ان المدرسة لم تكن سهلة عليهم بعد ذلك الانقطاع عن العربية، حيث ان الصعوبة على وليد أكثر من أمل التي خرجت من العراق وهي في الصف الثاني ابتدائي أما وليد فلم يدخل الروضة

بعد ودخلها هناك في كاراكاس وباللغة الانكليزية. ومع هذا الجو العائلي المريح الذي أراد حسن إضفاءه، إلا أنه بدأ يقلق لطريقة التواصل بينه وبين عفيف.. الذي لا يبادر الاتصال به لإخباره بالاجراءات المتفق عليها، كما إن الصديق المشترك لم يكلف نفسه بالاتصال، بدأت علامات الاستفهام تكبر في رأس حسن، لماذا؟ هل إن الوعود ليست صحيحة، ولكن ذلك تم عبر فاكس مدوّن ومحفوظ لدى حسن، لم يحاول عكس هواجسه تلك على عبير فيكفيها ما تعانيه وما فعلته من خطوات من أجله، واهتمامها الاستثنائي بأمل ووليد، أما هو فحاول عدم مغادرة المنزل كثيراً لحين حسم موضوعه على وجهة معينة.

كان حسن يتوقع إن عفيف سيزوره الى الدولة التي انتقل اليها لكي يمنحه الاطمئنان بأن كل شيئ تمام، لكنه لم يفعل ذلك، كما إنه لا يتصل للإطمئنان عليه وحسن هو الذي يبادر بالاتصال دائماً!!

شيئ غريب يحدث، لكن ماذا؟ لقد وثق به وخطا خطوته هذه حتى قبل أن يرسل له الفاكس، وأرسل عائلته للاستقرار قبل انفكاكه من الاجازة ومن ثم ترك الوظيفة، هل إن عفيف لم ينقل الصورة الواضحة والكاملة للاخوان هناك، أم إن هناك شيئ غامض لا يعرفه، هل هي خديعة ما، ولكن لماذا؟ إن حاله حال العشرات ممن تركوا النظام واحتظنتهم هذه الدولة أو تلك. وشعور حسن بأن الاعتماد على بلد عربي أهون بكثير من الأجنبي.

هل إن فكرة المشروع الذي اتفق عليه الاثنان لم يكن واضحاً لدى المسؤولين هناك، أم إن عفيف كذب أو تخيل الخطة؟ أسئلة محيرة، وعليه التأكد من مسار الموضوع، فظروفه لا تتحمل اللعب.ولهذا وجد حسن إنه من المناسب الطلب من عفيف إخبار الجماعة إنه يريد الاتصال بهم وزيارة بلدهم، وافق عفيف على هذا الأمر وبعد يومين أخبره بأن هناك دعوة له وسيحدد موعد سفره بعد أيام. واللقاء بالمسؤولين هناك والتفاهم حول كل شيئ.

لم تمض خمسة أيام حتى كان حسن في مطار ذلك البلد العربي، وفي ذات اليوم التقى بالمسؤولين عن الملف العراقي الذين أستقبلوه بروح الضيافة العربية الأصيلة وقيمها، وحين سأل المسؤول المهم الذي استقبله في مكتبه عن عفيف وسبب عدم حضوره. أجابه بنوع من الانزعاج:

- أنت هنا بضيافتنا ولست بضيافة عفيف، كما انه مشغول بأمور أخرى. لم يعقب حسن وآثر الصمت، فلعل عفيف تحول الى موظف لديهم وغير قادر حتى على التعبير الشخصي.
- أنت في بلدك الثاني وفي ضيافتنا وإذا رغبت فيمكن أن نؤمن جلب عائلتك فوراً.

صُدم حسن بهذا الجواب، فلم تكن الخطة التي اتفق مع عفيف حولها في كاراكاس تتضمن الاقامة هناك، بل في البلد المجاور. فشكرهم على حسن الضيافة وقرر المغادرة والعودة الى مقر إقامة عائلته.

عاد حسن من المطار الى بيته حاملاً بعض الهدايا لطفليه ولعبير، التي رأت في وجهه علامات الحزن والخيبة.

- ماذا.. هل تبينت لك حقيقة عفيف؟
- نعم يبدو إن الخطة لا يعلمون بها، وكانوا مضيافين ورحبوا بذهابنا الى هناك، لكنني لا أرغب بذلك.
- وماذا الآن؟

- يكمل أولادنا المدرسة ونعود الى كاراكاس.

كان الاحباط يلف رأس حسن وعبير التي تحاول التخفيف عنه:

- المهم حققنا هدفاً جيداً وهو تعلم أمل ووليد اللغة العربية، أما أنت فعودتك الى عملك، ولا أعتقد الأمر سوى فترة للمراجعة تفيدك في ترتيب الخطوة المقبلة باتقان أكثر، وألا تحسن الظن كثيراً بالآخرين.

خلال وجود حسن وعائلته خارج فنزويلا لم ينقطع في التواصل ما بين حسن وصديقه الوفي أحمد حيث وجد إن عليه اطلاعه على ما يجري عليه وعائلته، أما عبير فلم تنقطع يوماً واحداً عن هناء صاحبة الضحكة البغدادية التي تتلمس بين تراتيل وقعها العفوية مسحة الحزن لجيل كامل.

تلقى حسن مكالمة هاتفية من كاركاس و كان المتحدث أحمد:

- أين انت يا رجل هكذا تتركنا بلا عودة وكأن المقام طاب لك؟
- لا والله قررت العودة الى مرابعكم الدافئة، بعدما واجهته من كدمات كادت تسقطني.
- أنت قوي لكن حيلك في المغامرة ضعيفة لكونك مبرقع بعباءة القيم، وشربت حتى الثمالة كأساً لم يعد شرابه متداولاً بين الناس.. تعال يا أخي.....
- الى اللقاء في كاراكاس.

رحلة المجهول.

اذا كان حسن قد غير مسار طريقه من بيته الى مكان عمله لعدة أشهر فإن تلك الشجيرات المزهرة الجميلة التي كانت تستقبله كل صباح، واعتادت نفسه على استقبالها بكل ارتياح قد آثرت عدم توديعه اذا ما أزف الرحيل.

كان حسن يعشق الخروج عبر الممر الجبلي الجميل الذي يفصل بيته عن مقر عمله.. كانت زخات المطر تغتسل بعض الأحزان التي تتلبد بين طيات روحه.فتلك الاحزان امتدت جذورها في أعماقه، لقد احترقت نخلة حسن في وطنه وهي واقفة.. كان يسعى الى أن يرى ظلال تلك النخلة الشامخة في حديقة منزله عن طريق زرع نخلة مماثلة لها على أرض كاراكاس لكنه فشل في مسعاه، فزرعَ مكانها تلك الشجيرة المورقة بالورود الارجوانية، وقبل أن يودع داره بأيام وقف مناجيا تلك الشجيرة وكأنه يتحدث الى نخلته في العراق:

الآن أودعك يا نخلتي.. أنا أعرف إنك لم تحترقي، ولم تمت الحياة في عروقك.. قد تذبلين حزناً لكنني أوعدك بأنه زمن قصير وسأعود اليك، ليعود الربيع الدائم، قد تكون الأيام المقبلة قاسية لكنها ستعلّمك وتعلمني بأن العاصفة لن تتمكن من قلع الجذور العميقة.

حاول حسن أن يتحسس جوانبه، ماذا حصل له خلال السنوات السبع التي قضاها هنا في كاراكاس، ويتساءل مع نفسه الممزقة:

هل إن السنوات التي قضاها في وطنه منذ ولادته وترعرعه في بيئته، شبابه وطموحه الدراسي ثم انتمائه الفكري الذي وجده متناغماً مع طموحه الثقافي، كل ذلك هل تحول الى رماد لشجرة يابسة احترقت على قارعة الحياة، لسبب لا يتعلق به وبأبناء جيله، وإنما بسبب صندوق التسلط والفردية وانعدام الحرية الذي إنغلقت تحته الأرواح المتطلعة للواحات الخضراء وشلالات المياه، كان يشعر هو ومن معه بأنهم قادرون على صناعة غد راق ومتمدن لأنهم وجدوا بلدهم لا تنقصه عوامل النهضة الكبيرة، وهم في محيط عالم من المعرفة والعلم الذي يصلهم بسهولة لأنهم يمتلكون جميع الأدوات، ولكن لماذا، هل إن المؤامرة هي التي قادتهم الى هذا المصير، أم الاستبداد والفردية والزعامة؟

شعر حسن إنه لوحده في صحراء يغطيها السراب.. أين البنك الذي عليه أن يصّرف فيه قيمه حسب وصية ذلك الأمريكي الذي أراد تجنيده لصالح مخابراته، وهل حقيقة إن جميع الآديولوجيات العقائدية السياسية وليست الدينية تقود الى تلاشي الفردية والانسانية في كومة من خيوط الصوف المتشابكة، ليس لها طرف واضح، ولا يفك عقدها إلا المتمرسون على غسل الأدمغة.

ولكن حين تنعدم صورة المستقبل، ويغيب الأفق ويتقدم الضعف والوهن على القوة، فماذا بعد، أهم شيئ هو التغلب على التردد والارتباك لأنه والاصرار والعزيمة.. يسيطر الخوف بسبب المجهول، الخوف من الغد، قد يكون ذلك سهلاً حينما تكون لمفردك، فلو غرقت، فلن تعتدي على أحد ولن تؤذي سوى نفسك، ولن تحس أو تشعر بآلام من يحبونكَ، لا بد من الانتصار على الخوف.

حاول حسن لملمة ملابسه وحاجياته الضرورية، لكن هذه المرة لم يتمكن من تنظيم حقيبته التي اعتاد في كل سفرة أن تكون جاهزة قبل يوم واحد من موعد السفر. هكذا كان موصوفاً داخل بيته بأنه منظّم لدرجة عالية ابتداء من تذكرة السفر وخط الذهاب،الى العودة. هذه المرة كل شيئ مبعثر في غرفته، كان يحاول إجبار نفسه على قبول فكرة انها سفرة قصيرة لا تحتاج أكثر من حقيبة،

والتذكرة قطعها للذهاب والأياب. يريد إقناع نفسه بأنه سيعود لأن عبير وطيريه الجميلين سيظلون هنا في كاراكاس عند صديقه الحميم أحمد الذي شجعه على السفر دون الخضوع للعبة استدراجه الى بغداد،.

هكذا إذن الرحيل..

كانت هناك قوة كبيرة تقاوم يديه المرتجفتين وهو يلملم احتياجاته ويضعها داخل الحقيبة، أحس في هذه اللحظات كمن يلفلفون كفنه حول جسمه العاري البارد، ويداه تتحركان من خارج هذا الكفن تستنجد بمن حولهما لكي ينزعوا عنه هذا الكفن.

سأفارقك يا كل الأشياء الجميلة التي كانت تمنحني حرارة الحياة ونسائم الربيع، سأغادر ولن أقول وداعاً، وسأواجه كل المفاجآت بشجاعة. لن أقيم اجتماع وداع للأصدقاء، فلم أحتفل يوماً بوداع من أحب، الوداع لحظة حزن وانكسار هائل أعيشه لوحدي ولا أريد مشاركة من أحب لكي أخفف من آلامه.. وأرفض طقوسه الجماعية، فالبكاء والنواح يذكرني بملحمة كربلاء، فالذين يلطمون الفقيد الحسين لم يتمكنوا من إرجاعه منذ ألف وأربعمائة عام، والفراق لا يحتاج الى احتفال لأنه استسلام للهزيمة، إنه موت بارد يمر على الروح الدافئة فينزع عنها جمالها ودفئها ويتركها عارية في الصقيع.

لا يدري حسن لماذا تذكر في تلك اللحظات أمه العظيمة حينما كانت في مدينته الخالدة تستقبل ساعات سفرته الاسبوعية الى العاصمة بغداد حينما كان يدرس في الجامعة، وكان عليه العودة في نهاية كل أسبوع لتزوده في لقائها بطاقة جديدة من الحنان والصبر والعزيمة على مواجهة جميع الصعاب، فكانت تحتفل بطقوس تهيئة متاع الاسبوع المقبل له وغسل ملابسه، كانت تنشر البهجة والفرح بعودة حسن الى بيت أهله بين أخوته وأخواته، لكنها كانت هي حزينة داخل نفسها، وكلما اقتربت ساعات سفره كان الحزن يخطف تلك الابتسامة ثم تقوم بدس المصروف الاسبوعي في جيبه، ولا تنسى أن ترش الماء على عتبة الدار تيمناً بسلامة العودة. كانت والدته تمنحه طاقة لا حدود لها على تجاوز جميع أشكال الصعوبات، محنة العبودية والاضطهاد السياسي. كانت هذه الأم العظيمة على بساطة ثقافتها تحمل كبرياء وعناداً لا حدود لهما، كانت تحمل وعياً وطنياً كأبناء مدينته المعروفة بالصمود والشجاعة والمقاومة، كانت تعرف كيف تمحو من الحيطان الشعارات المنددة بجمال عبد الناصر من قبل الشيوعيين.

كم اشتقت اليك يا أمي الآن واشتقت الى حنانك الذي يمنحني القوة، أنا أعرف إنك تعاتبيني اليوم لأنني أبتعدت عنك حيث اصبحت قادرا على المسير وقادرا على الطيران، وحيث اصبحت الى جانب من لا يدفعن ثمناً للمحبة سوى أن يكن قريبات من عندي. كم أنا محتاج اليك الآن لتمنحيني قوة احتاجها في رحلتي المقبلة هذه، حيث تتشابك أمامي الرؤى بين خيوط الضوء والظلام، فكأن الحقيقة سراب والسراب حقيقة، لقد علمتيني ان الاستسلام للصعوبات هزيمة ونهاية، وغرستِ في نفسي قدرة المشي في الطرقات الصعبة، ذات الأحجار الصغيرة والمتوسطة.. والآن أبتدئ المسير في طريق تملأه الصخور الكبيرة. أنا لا أخشى أن تدمى قدماي، لكنني أحمل ثقلا لم أكن احمله سابقا، ثقل طيرين جميلين مع أمهما، لم يعتادوا العيش سوى في غابات الورود الربيعية والأشجار الخضراء، وثقل مَنْ أحب، أخشى أن ترتجف يداي وتضعف عن حملهما وأسقط معهم في بداية الطريق وينتهي كل شيئ وقد يضعف قلبي عن دق نبضات حب أحمله في ثنايا صدري نما وكبر حتى أخذ مساحات روحي كلها، وأصبحت أرى العالم من خلاله جميلا مضيئا كضوء القمر على شواطئ دجلة الخالد حينما كنا نلعب ونتسامر وتدغدغ اقدامنا حصاه الملونة.

أخيراً قرر حسن أن يودع مجموعة محددة جداً من الأصدقاء القريبين جدا منه دون أن يخبرهم بقراره الرحيل عن هذا البلد الذي قضى فيه سبع سنوات والذي أحبه وألف فيه وتآلف مع ظواهره، فهنا تشرق الشمس وتغرب بمستوى واحد طيلة أيام السنة، لا شتاء ولا خريف ولا صيف، فصل واحد يرافق البشر هو الربيع بكل نسائمه وأزهاره، ومزنه ذات المطر الدافيء، فيمنحهم فرحاً دائماً تقرأه على وجوه الفقراء والأغنياء، إنهم يقاومون الحزن قبل أن يقترب من نفوسهم بحزام من الفرح المنظم وغير المنظم، تتحول الحياة في بعض الأحيان عندهم الى عبث حسبما ننظره نحن بقوالبنا وصناديقنا الصلبة الحديدية التي صممناها نحن بأنفسنا ووضعنا أنفسنا داخلها وقفلناها ورمينا مفاتيحها في بحور الظلمات.

انهم يخترعون مناسبات لا تحصى للفرح وقسمّوا الزمن حسب وظائفهم وصفاتهم ليقيموا لهم أعيادا وطقوساً للاحتفالات، مثلما نحن نبحث في أبجديات تاريخنا السوداء الحزينة فنجترها، ونقيم حولها طقوس اللطم وجريان الدم تعبيراً عن تطهير النفس من ذنب الخديعة.

لم تستوقفني الكثير من الأسماء لكي أقضي وقتي القصير لتحيتها، قد يكون هناك من بنى العلاقة معي على أساس إنساني والبعض الآخر على الصفات والمواقع.

فمصعب الصديق الحميم، لم يكن يكلّف نفسه بالاستئذان لزيارتي في البيت، وحينما يدق جرس الباب في ساعة متأخرة عن وقت الزيارات الطبيعية في المساء كنا نعرف انه هو وحينما يدخل ترافقه زوجته المرحة ذات الروح الصادقة خصوصاً تجاه صديقتها زوجتي عبير، يبتسم مصعب ابتسامته التي دائما ما تخفي شيئا مضموماً خلفها، وعندما يرد حسن عليه التحية وبأنه مبّكر جدا في زيارته يضحك عاليا غير مبال وفارشاً رجليه على الكنفه ومجنحاً يديه على جانبي المقعد بشعره الأبيض المنفوش ضافيا على نفسه سمات العباقرة. وهو راوية مقتدر في نقل قصص الناس المهمين وغير المهمين في المجتمع العراقي، فيضفي على رواياته مسحة من خياله الواسع ويعكس جزءا من قدراته على التأليف، فيمتع الحاضرين، زوجته وزوجة حسن بسرده الجميل ورواياته البغدادية لا يكون فيها هو البطل وفي جميعها لا يترك للبراءة مكان. فقصصه تحمل الخديعة والمكر وأبطالها يتسلقون قمم الشهرة والمال والجاه ثم ينتهون نهايات مكسورة مهزومة، واذا كان له دور بواحدة منها فدائما ما يكون هو المنتصر، لأنه لم ينساق مثلما انساق اليه الآخرون ونجا بنفسه من النهاية غير السارة للآخرين.وعند الطلب إليه بتغيير طبيعة الأحاديث من الروايات القديمة الى أحداث الحاضر يتحول الى منّظر للمشاريع التجارية على اختلافها ويقرب أمام المستمعين صورة أفكاره حتى يدعهم يتصورون المشروع أو الفكرة حقيقة بين أيديهم.

كانت تلك الجلسات العائلية سلوة لحسن وزوجته عبير لتخفيف الألم الجماعي بمحنة الوطن ودخوله نفق الحروب والتشرد والأحزان.

ومع ذلك سيفتقد حسن هذه الاوقات الحميمية للصداقة البريئة بين العائلتين، ولا يريد أن يحدثهم عن المستقبل ورحلته الغامضة التي فرضتها عليه الظروف القاسية، كان مصعب دائما ما يحدثه عن قصص مماثلة لاقى خلالها أصحابها الموت المحقق، فلماذا يرمي حسن نفسه في لهيب الموت.

سميرة كانت الصديقة التونسية المغتربة لهذه البلاد، علامة من علامات طهارة الصداقات النادرة، كانت عبيرتحبها بشكل ملفت وتحرص على زيارتها دائماً، وتتعاطف مع احزانها. تركت سميرة وطنها دون رجعة لأنها كانت تمتلك من المشاعروالأحاسيس والعواطف والروح الصادقة مع

الرجل الفنزويلي الذي عشقته عبر صدفة عابرة ورحلت معه الى بلده لتواجه فيما بعد صعوبات أكبر من قدرتها على التحمل، لكنها كافحت من أجل أبنتيها الصغيرتين، وواجهت فشلها في العلاقة الزوجية من أجلهما. وظلت متمسكة بدينها الاسلامي وقيمه الأصيلة، مكسورة الروح والقلب كل حياتها. وحاولت تغطية هذا الفشل بعلاقاتها الواسعة بالجالية العربية وبصداقاتها المخلصة، كانت سميرة تحدّث حسن في لقاءاتهما العائلية وتقول: الانسان الذي يعيش بلا حب يظل كل حياته يبحث عن نفسه فلا يجدها، لذلك عليه أن يتمسك بحبه لكي لا يموت.

اتصل حسن هاتفيا بها وكانت مريضة ووعدها بزيارتها وكانت الزيارة الأخيرة حيث تم نقلها على عجل لاجراء عملية جراحية لورم ظهر في رأسها، وكانت تعاني من وجعه منذ فترة، لم تكن تمتلك أجور العملية الجراحية، فقام حسن وصديقاه أحمد ومصعب وآخرون بحملة تبرعات جمعت تكاليف العملية الباهضة في الدماغ والتي لم تنجح حيث تعرضت مباشرة الى غيبوبة، قبّل حسن جبينها وهي ممدة على سرير المستشفى وودعها.. الوداع الأخير.

سبع ليال في مطار أمستردام

الخطوة الأولى.

منذ طفولته لم يكن حسن وأبناء مدينته القريبة من بغداد العاصمة يعرفون شيئاً عن المطارات والطائرات ورحلاتها، كانوا حينما يخرجون للعب يتطلعون الى السماء الزرقاء الصافية، وينظرون بتعجب الى تلك النجمة الفضية المتلألئة في كبد السماء، كانوا ما يسمعونه من قصص وأحاديث عن ذلك العاشق الذي أحب فتاة من مدينتهم، وكان يأتي بطائرته خلال فترة تدريبه العسكرية، ويؤدي الألاعيب البهلوانية بارتفاع منخفض ويجعل أهل المدينة يتحدثون عن ذلك اللغز ومن هي صاحبته. أو تلك الحادثة التي كسر فيها أحد اسنان حسن الأمامية حين انضم الى مجموعة من أصدقائه الصبية راكضين نحو الموقع الذي هبطت فيه طائرة الهيلوكبتر للملك فيصل الثاني ملك العراق الذي حضر لافتتاح سد الثرثار بمدينة سامراء. ومع مرور السنين تشكلت في نفس حسن أشواق حب المطارات التي وجد فيها حالة إنسانية عالمية خاصة، أخذ يجد في المطارات متعة جميلة وغريبة في حركة المسافرين واختلاف وجوههم ولغاتهم ورّقة احاديثهم، وإن هؤلاء نماذج من المجتمعات الانسانية تجمعهم لغة واحدة هي السفر. إنها عملية تجميع غيرمقصودة من قبل أحد وغير اعتيادية لشعوب العالم في بقعة صغيرة إسمها المطار، هذا الذي يسألك عن موعد اقلاع طائرتك حيث يشاركك فيها وتلك التي تطلب منك توليع سكارتها. وهذان الشاب والشابة اللذان قررا أن يلفا حزام حقيبيتهما الصغيرة على محزميهما لكي لا يفترقا بعضهما عن بعض، فهما يعاندان أحكام المطار حيث هو موفع الوداع والافتراق، فلم يخطر في بال حسن الوجه القبيح للمطار الذي يواجهه اليوم، أجهزة الأمن والتفتيش والبحث عن هاربين، وتهريب الممنوعات، أو ما يصيب أولئك الذين يقررون سفر اللاعودة لأوطانهم، ويمزّقون جوازات سفرهم في ساحات مطارات دول اللجوء التي تحترم حقوق الانسان عندما تنتهك وتهان كل تلك الحقوق في أوطانهم. كان هذا الوجه غائباً عن حسن لأنه كان دائماً يحلم بأن العالم يسير نحو الخير والاطمئنان، وان الحضارة الجديدة هي لخدمة الانسان في هذه المرحلة المتقدمة من نموه في الحياة، واذا كان الانسان قد جاهد آلاف السنين من أجل رقيه، فلا يمكن تصور إن يمارس أفراده أقسى أنواع الهمجية والكراهية والظلم فيما بينهم. ولعل الأديان السماوية كانت على مر العصور عنصراً خلاقاً لاشاعة المحبة، وإن البشر اللادينيين وهم قلة في هذا العالم لا يعتنقون تلك المفاهيم، مع إنهم يخترعون مفاهيم أخلاقية تؤكد على المحبة والسلام.

وبدت أمامه عينية قوائم بلدان اللجوء فأخذ حسن يشعر بالظلام يلفّه من كل جانب وهو يستعد للرحيل بعد توديع رفيقة عمره عبير وطيريه الجميلين الذين أودعهم عند صديقه الوفي والذي اختار له طريق الذهاب الى بلده ليبيا بعد أن أقنع حسن بأن لا طريق أمامه سوى هذا البلد الذي يعرفه، وإنه أفضل له من الارتماء بأحضان العمالة والجاسوسية.

لم يرغب حسن أن يودعه أحد في المطار لكي لا تكتشف المخابرات العراقية توقيت هروبه، شعر حسن بأنه دخل النفق المظلم الممتد من العاصمة الفنزويلية حتى المطار.. كان عليه مواجهة كل صعوبات وظيفته الدبلوماسية وجواز سفره، وغيرها، وهوية بلده المحاصر والممنوع على مواطنيه دخول غالبية بلدان العالم. ومع ذلك فهو لم يواجه مايواجهه أبناء بلده من صعوبات السفر. فهم ليسوا إرهابيون، هم بشر أرادوا أن يعيشوا الحياة كغيرهم.

هذه هي المرة الأولى التي يرتب فيها حسن اجراءات سفره بنفسه من دون بروتوكول المطار، وسلم حسن حقائبه لمكتب الطيران بعد الاتفاق مع صديقه على اختيار الطريق الى طرابلس عبر

البر التونسي وهذا يتطلب الحصول على «فيزا ترانزيت» والتي تعذر الحصول عليها، لكن صديقه الليبي قال له بأن العربي يمكن أن يأخذ فيزا ترانسيت من المطار، ولعل الجواز الديبلوماسي يوفر له هذه الفرصة. انتظر حسن استعادة جواز سفره الذي سلمه لموظف البروتوكول الذي حضر للسلام عليه وتوديعه، ولعله علم بموعد السفر بواسطة أجهزتهم الأمنية، سلمه جواز السفر بعد أن ألغى ختم الاقامة عليه وتم تأشير «خروج نهائي لنهاية العمل».

إذن بدأت الدقائق الأولى من الرحلة الصعبة، فهاهي قاعة الترانزيت تقول لحسن: لو حاولت الغاء رحلتك فلن تتمكن، الآن امامك طريقان لا ثالث غيرهما: أما العودة الى بغداد حيث ينتظرك مصيرك المعروف أو طريق امستردام.. تونس طرابلس. في هذه اللحظات شعر حسن بقشعريرة تهز جسمه، فها هو يحمل حقيبته اليدوية وترك من يحبهم هناك، لكنه بدأ يستجمع قواه لأن أمامه مغامرة طويلة لا بد أن يخوضها بقوة. وتبدأ رحلة المطارات المعروفة لدى طالبي اللجوء العراقيين حيث كان يسمع عنها القليل، والآن خلع حسن كل الألقاب والأوصاف الوظيفية، إنه حسن فقط. أصبح على قناعة الآن بأن الانسان يمتلك طاقة مخزونة بحاجة الى مِنْ يتمكن من تحويلها الى فعل، وها هو أمام الامتحان الصعب.

العروبة المهزومة.

دخل حسن عنق الطائرة التي ستقله الى امستردام كمحطة وسيطة الى عاصمة ذلك البلد العربي الذي أتفق مع صديقه على عبوره كترانزيت الى طرابلس التي يدخلها كل العرب من دون تأشيرة دخول. كان جواز سفر حسن الدبلوماسي قد أمتلأت صفحاته بتأشيرات دخول الى عدة بلدان لاتينية، وضعها كاحتياط مثلما عمل جوازات سفر عراقية عادية له، باختلافات في الميلاد واللقب لعله يمّوه في معرفة شخصيته الحقيقية. ولكن ماذا يفعل بتأشيرات تلك البلدان؟ بيرو، كولومبيا، كوستاريكا، الماكسيك، غواتيمالا) وهي بلدان كان يزروها، ولكن ماذا يفعل بتلك البلدان اللاتينية..لقد رفض خيار الاقامة في كاراكاس حين عُرض عليه من قبل أحد أصدقائه من المسؤولين الفنزوليين، لأنه يعلم بأنه سيكون تحت مطرقة أجهزة المخابرات العراقية والأمريكية. كان عليه تحمل ضغط الساعات التسع التي ستقطعها الطائرة من كاراكاس الى أمستردام قبل السفر الى تونس ثم طرابلس. لقد أودع أحباءه عند صديقه الوفي أحمد في كاراكس وهو متوجه الى المجهول، صحيح إن هذا البلد عربي، وقد سبق أن عمل به، ولديه أصدقاء مسؤولون وغير مسؤولين، وعراقيون كثر.

لقد أصبح الحزن شارة مرورنا في الطريق الطويلة نحو مشارف الحرية، تلك اللؤلؤة المختبئة في أعماق البحار، وهل يمكن ان تنالها وأنت خارج وطنك، لا أعتقد ذلك فالغربة هي قيد مطلي بالذهب، وأغنياتها هو ذلك السجان الذي يوعدك كل صباح بأمل الغد، إنك حين تبتعد عن وطنك تتحول الى غواص هاو يبحث عن تلك اللؤلؤة الفريدة في أعماق البحر، وتتلاشى روحه بين طيات أسرار ذلك العالم، ويأخذ معه قصته كواحد من أولئك الضياع في هذا العالم الموحش تضرب مسامعه أغنية الحرية الموعودة.

كان كل شيئ يمر بهدوء لتنظيم الرحلة الى هذا البلد العربي بعد اتخاذ القرار المشترك بين حسن وبين صديقه الدبلوماسي الليبي العزيز على قلبه أحمد والذي خيّره بالذهاب الى ليبيا هروباً من قبضة نظام بغداد، وبين ارتمائه في أحضان المخابرات الامريكية التي قدمت له الاغراءات الكثيرة وهددته بأنه سيندم على رفضه العمل معهم.

كان شاغله الوحيد في تلك اللحظات هو كيفية الوصول الى طرابلس ليبيا من جنوبي أمريكا اللاتينية خصوصاً بعد القرار الأمريكي بالحصار المفروض عليها وغلق مطارها. الأمر الذي يتطلب الوصول الى هذا البلد طريقان بريان الأول تونس والثاني عن طريق مصر. والبلدان عربيان يدخل أبناؤهما الى ليبيا من دون تأشيرة دخول، والطريق الآخر بمر عبر الطريق البحري من جزيرة مالطا، وفي إحدى جلسات حسن مع صديقه قال له: هل تتوقع إن سلطات المطار في تونس ستمنع مرورك عبر الحدود الى مدينة جربا التونسية ثم الى الاراضي الليبية وأنت تحمل جواز سفر ديبلوماسي، بعد أن اعتذر السفير المصري وهو صديق لحسن عن منحه تأشيرة دخول ترانزيت عبر القاهرة.لقد فكر بمفاتحة السفير التونسي غير المقيم في واشنطن وطلب منه تأشيرة دخول الى تونس للعبور الى ليبيا فهو منقول الى بغداد ولكنه يريد السلام على بعض الاصدقاء قبل سفره الى بغداد، وعده السفير التونسي خيراً وانتظر ليومين لكن السفير ومثلما فعل السفير المصري لم يرد على الهاتف خجلا من ابلاغه اعتذار بلاده عن منحه فيزا مرور، هل يمكن أن توصل الحالة الى أن بلدين عربيين يعرفان حق المعرفة من هو مقدم الطلب إنه ليس متهم بعصابات المخدرات أو مجرم

مطلوب دولياً، انه ببساطة لا يريد العوده الى وطنه خوفاً من بطش النظام لانه خالفه الرأي، هل يمكن تصور مدي الخوف الذي كان يسود الحكومات العربية من إغضاب صدام بتسهيل طريق هارب من قبضته.. لقد فوجئ صديقي العزيز أحمد من هذه المواقف، وكان هو وغيره من أبناء جيله يؤمنون بالقومية العربية والوحدة وغيرها من الشعارات التي هزّت ضميرنا ووجداننا ردحاً من الزمن، قال:

- للأسف لم أكن أتوقع إن الحالة العربية وصلت الى هذه الدرجة من المهانة، يا أخي سافر وإنزل في مطار تونس وماذا سيحصل، قل لهم أريد الذهاب الى مدينة جربا بطائرة أخرى وليس لدي نية الدخول الى أراضيكم، أنا واثق بانهم سيسمحون لك خصوصاً وانك عربي وتحمل جوازا ديبلوسيا، توكل على الله يا رجل!!!

كانت هذه الكلمات حافزاً لقبول الدخول في هذه المغامرة على الرغم مما كان بداخل نفس حسن من آلآم.

وهكذا قرر السفر عبر امستردام الى تونس وتذكرة السفر فيها ما يشير الى الانتقال عبر العاصمة تونس الى مدينة جربا، ركب الطائرة وهو على يقين فيما سيواجهه من صعوبات.

وصل مطار امستردام ولديه تأكيد على بطاقة السفر على الخطوط التونسية على الطائرة المتوجه الى تونس، كانت الأمور تشير الى أن الوضع طبيعي جداً وهو في قاعة الترانسيت كان الوقت يشير الى الساعة الثانية ظهراً، وهذا يعني إن إقلاع الطائرة سيتم بعد ساعة واحدة واستلم pass board، سار مع موكب الراكبين وهو يدعو الله أن تمر الأمور بصورة طبيعية، الجميع يتحرك نحو عنق الطائرة التونسية، وكان شخص من الخطوط التونسية عند نقطة الكونترول يتسلم بطاقات الدخول، مر جميع من هم أمامه في الطابور، وحين وصل حسن الى الكونترول اطلع موظف الخطوط على إسمه فطلب منه التوقف قليلا وعدم الدخول الى الطائرة:

- ماذا وما سبب تعطيلي عن دخول الطائرة؟
- هناك مشكلة ببطاقتك.
- لا مشكلة فيها انها مدفوعة نقداً وعن طريق خطوط KLM التي لديها اتفاق مع شركتكم، واذا كان أي سبب يتعلق بالسعر فأنا مستعد لدفعه الآن.
- ليس كذلك وأنا لا أستطيع تسوية الموضوع.

وبعد مشادة طويلة مع مدير مكتب الخطوط التونسية الذي أعطى إشارة غلق باب الطائرة، وقف وقال لحسن:

- أخي أنا وصلتني برقية من تونس تمنع دخولك أراضينا، وانا اعتذر عن ذلك.
- لماذا، هل هذه هي عروبتكم..؟

ثم اصطحب حسن الى مكتب الخطوط الجوية الهولندية، وقال له:

- يمكن أن تحجز على الخطوط الهولندية، وإنني سأغيب قليلاً وأعود اليك.

لكنه ذهب ولم يعد، فأضطر حسن الى التعامل مباشرة مع مسؤول الخطوط الهولندية التي لديها رحلة في اليوم التالي، والذي استقبل حسن بطريقة لائقة، وقال له بان البطاقة أصولية ولكن هذا الموظف أراد أن يتهرب، ويبدو إن للموضوع خلفية سياسية، لم يعد أمام حسن سوى المبيت في فندق المطار لأنه لا يمتلك تأشيرة دخول الى امستردام، كما إنه لم يفكر بطلب اللجوء الى هذا البلد، وكان على مكتب الخطوط التونسية أن يرتب له موضوع السكن لهذه الليلة وخطوطه ملزمة

بدفع تكاليفها، ولكن مندوب الخطوط التونسية تهرب من هذا الاستحقاق. وأتم حسن جميع الحجوزات، ولكن مسؤول مكتب الحجوزات الهولندية اضطر لإخبار بوليس المطار بالحادثة الذي حضر أحدهم مستفسراً عن السبب فقال له حسن إن الأمر عادي، فاصطحبه لترتيب موضوع الحقائب والمبيت في فندق المطار الذي يقع خارج الترانزيت، وأخذ جواز سفره الدبلوماسي.. ويبدو إن هناك نظاماً، فغالباً ما تدفع الخطوط الناقلة أجور الاقامة لما لا يقل عن أثنتي عشرة ساعة، أما أن تكون صباحية من الساعة الثامنة صباحاً وحتى الثامنة مساء أو من الثامنة مساء وحتى الثامنة صباحا، على أية حال اضطرحسن لدفع أجرة الفندقً، ولم تكن معه ملابس لتغييرها.

لم يتمكن النوم، كان القلق يلف رأسه، لكن حسن حاول مقاومته لكي لا يضعف منذ بداية الطريق، توجه نحو قاعة الترانسيت واستلم pass board وتهيأ لدخول الطائرة الهولندية المتوجه الى تونس بعد أن تأكد من دخول حقائبه.

في لحظات دخوله الطائرة وجلوسه عل المقعد المخصص تملكته مشاعر الإحباط، ولم يكن حزيناً على وضعه كموظف خدم دولته ووطنه بعز وشرف خمساً وعشرين عاما ثم يتحول الى مشرد هو وعائلته لكونه عبّرعن رأي وموقف مخالف للحاكم الأول..ولم يكن حزيناً على النكسة الاخلاقية القومية التي حلّت بالعرب، حيث لا يتمكن المواطن العربي حتى عبور أراضي بلد لآخر على أساس الترانزيت وليست الاقامة، كان حزيناً لأنه شاهد المئات يمرون أمامه ويدخلون هذا البلد الأوربي بالبطاقة الشخصية وليس بجواز السفر.

هبطت الطائرة الهولندية مطار تونس، ودخل حسن بوابة الجوازات بكل هدوء، وكان على زاوية القاعة مكتب صغير يديره شاب تونسي عليه قطعة كتب عليها «تاشيرات الدخول» فتقدم إليه وأعطاه جوازسفره الديبلوماسي، وأعلمه بانه سيحّول وجهة سفره الى مدينة جربا لكي يواصل سفره البرّي الى ليبيا، وليس عنده تأشيرة ترانزيت، فابتسم وقال:

- بكل سرور وختم على جواز سفره – ترانزيت –. فردد حسن في نفسه (الحمد لله) وعبر البوابة لكي يستلم حقيبة السفر، وبعد أقل من دقيقة وهو يحاول التقاط حقيبته حصل ما لم يتوقعه، فقد جاء أحد موظفي المطار راكضاً منادياً بإسم حسن، وبشكل مذعور خطف منه جواز السفر وطلب منه مرافقته لمكتب أمن المطار مردداً الكلمات التوبيخية لمن سمح له بالدخول، ورأه يلغي ختم التأشيرة بقلمه قائلا:
- يا أخي أنت ممنوع من دخول الاراضي التونسية
- لماذا؟ أنا لا أريد دخول تونس، أريد العبور عبر الطريق البري الى ليبيا.
- هذه أوامر.
- أريد التحدث بالهاتف الى الداخلية.. هل يوجد سبب يمنعني؟
- نحن آسفين، واذا أنت ديبلوماسي فلماذا لا تتصل بالسفير العراقي في تونس ويخرج اليك ويسهل أمرك؟

هو لا يعلم إن كان السفير العراقي في تونس لديه معلومات عن هروبه من استخبارات حكومته التي تحاول قطع خطوط الاتصال عن طريق الضغط على البلدان العربية التي لديها علاقات جيدة مع العراق.

- ذن عليك العودة الى الطائرة العائدة الى امستردام قبل أن تغادر ونحن قد أعدنا حقيبتك الى الطائرة وتفضل معي.
- طيب لماذا لا تنقلوني الى مالطا؟

- نحن لا نستطيع علينا إعادتك.

ورافقه الى الطائرة الرابضة على أرض المطار وسلم جواز سفره الى كابتن الطائرة.

- هذه هي عروبتكم؟ انسان عربي ليس مجرماً أو محكوما أو هارباً من الانتربول، ويحمل جواز سفر ديبلوماسي نافذاً تتعاملون معه بهذه الطريقة البشعة.
- ليس علينا سوى تنفيذ الأوامر.. ثم همس في إذن حسن:
- ستجد طيب المعاملة في أمستردام عند الهولنديين.

كان حسن منهك الأعصاب واستقبلته مضيفة الطائرة بكل رقة، واصطحبته الى قمرة الطائرة، وقالت:

- سأجلسك الى جانب الكابتن لكي ترتاح أكثر والذي كان مهذباً وسأل حسن:
- لماذا أنتم العرب هكذا؟

لقد صفع حسن بهذا السؤال، ثم انتقلا بالاحاديث عن جنوبي أمريكا وحياة الناس هناك، وبعد الوصول الى أرض مطار امستردام قال لحسن:

- أنت الآن في عهدة بوليس المطار لكي ترتب أوراق سفرتك المقبلة وداعاً.

ودعه قائد الطائرة وكذلك المضيفة بلطف عال خفف من وطأة ما واجهه في مطار تونس. وبدأت رحلة البحث عن مخرج للسفر ما عدا العودة الى كاراكاس أو بغداد، والبحث عن مخرج لهذه الورطة.

مثال من الحضارة الجديدة.

إذن على حسن التعاطي مع حالة مكوثه في مطار أمستردام لحين إيجاد حل ومخرج. جلس على مقعد من بين مقاعد كثيرة تضم مسافرين تقطعت بهم الطرق لديهم حكايات شتى لا حصر لها، انها حكايات المطارات في بلدان أوربا، هناك هاربون من قمع حكام بلدانهم وهناك الى جانبهم هاربون من متابعات قانونية وعليهم أوامر إلقاء القبض من الانتربول، وغيرها كثير. إذن هنا على أرض العالم الحرة، يلتقي السياسي الهارب من جور نظامه مع المتهم الهارب وتاجر المخدرات، وفاقد جواز السفر، انه عالم خاص لا يستطيع التعايش معه وفهمه إلا من يكابد تلك القصص والروايات. لقد أصبح حسن اليوم رقماً من بين أرقام كثيرة، عليه أن يتعامل مع الحالة التي يعيشها، ببساطة لا يعرف ماذا يفعل، ففنزويلا أنهت إقامته كدبلوماسي لديها، وبغداد، أيا بغداد، لقد أصبحتِ بالنسبة اليه رمزاً للألم والمعاناة، وبذات الوقت طاقة للقوة من نوع خاص. لقد تحول حسن من ذلك الموظف الديبلوماسي المتأزم الى هارب، لم يذهب كغيره الى من يقدمون اليه كل التسهيلات مقابل نسيان كل قيم الوطنية ومحاربة الاستعمار والخضوع لتعليمات المخابرات الامريكية. رفض هذا الطريق، فعليه تحمل كل التبعات. الثقل الذي يزيد في رأسه مع كل ساعة تمرّ به، طيراه الجميلان وعبير تلك الانسانة الصابرة، فحين قرر حسن الرحيل لوحده لم تعترض، ولم تجادله، كان ما يهمها ان يكون هو بوضع جيد والا يتعرض لمكروه ولطالما كانت هي وولديها في مأمن فلماذا لا تدع حسن يخوض مغامرة الهرب لوحده!!..

طلبه مسؤول مكتب أمن مطار أمستردام. حضر أمامه ودار بينهما الحوار التالي الذي ابتدأه مسؤول الامن:

- لقد اعادتك السلطات التونسية لسبب مجهول فجواز سفرك عادي ونظيف وديبلوماسي ووفق بطاقة سفرك انت رغبت بجعل تونس ممرا للطريق البري الى ليبيا، لماذا رفضوك؟
- لا أعلم.
- لا أريد الدخول بتفصيلات وضعك، ولكن هل لديك مشكلة مع حكومتك؟
- أنا سياسي واختلفت مع رئيس حكومتي، ولا أرغب العودة الى بلدي.
- وهل لديك عائلة؟
- نعم تركتها في كاراكاس عند صديق لي ديبلوماسي من البلد الذي أرغب الذهاب اليه.
- نعم.. نعم لدينا سفير بلدكم ترك العمل بالسفارة وطلب اللجوء السياسي عندنا.
- أعرف ذلك.

كانت اشاراته تنتظر من حسن مبادرة طلب اللجوء السياسي في بلدهم، لكنه لم يعلق وأردف قائلاً:

- أنا أنتظر صديقي ليؤمن لي الفيزا الى مالطا.
- على أية حال أنت الآن في حمايتنا على أرض المطار ولكننا نعتذر عن تقديم ضمانات الاقامة والطعام حيث سيتطلب منك دفعها في الفندق الذي هو داخل المطار لحين وصول تأشيرة الدخول.

حاول حسن المعايشة مع المناخ الذي وضعه فيه الظرف الجديد، فعالمه الآن قاعة ترانزيت. قضى حسن ليلته الأولى بعد نهار طويل ومتعب أثر محادثته مع مسؤول أمن المطار، تجول في عالم السوق الحرة. تطلع الى قوافل الناس من كل الأجناس، هذا مسافرممدداً على أريكة ينتظر الطائرة التي تأخرت رحلتها، وذاك الذي تتشابك يداه مع يدي صاحبته أو زوجته لا فرق متوجهان الى إحدى مخارج الطائرات الكثيرة. أما هو فينتظر الفرج القادم عبر الهاتف من صديقه في كاراكاس ليخبره النتيجة حول منحه تأشيرة ترانزيت عبر مالطا، ويبدو أن أيام أعياد الميلاد قد أخرت هذا الأمر حسبما أعلمه صديقه الليبي.

كان كل شيئ في صالات المطار جميل حيث ينتشر العاملون في الليل عندما يخف زحام الناس، لترتيب معالم زينة أعياد الميلاد، وحضر فريق لا يقل عن عشرة أشخاص لنصب شجرة كبيرة في وسط صالة الترانزيت. حسن حاول تأمين سكنه في الفندق فتوجه اليه وكان موظف الفندق مبتزاً، حيث عرض سعر الليلة على أساس يومين نهار وليل.. فاذا كانت ثلاثة أيام وهذا ما توقعه حسن فعليه دفع ثمن ستةأيام. استسلم لهذا الواقع، لم يتمكن من المناقشة، فهو متعب جدا، ولا يعلم متى سيستلم تأشيرة الدخول الى جزيرة مالطا، وعلى الرغم من حالة الاجهاد هذه، فقد شعر ان ذهابه في هذه الساعة وهي الثامنة مساء الى غرفة النوم في الفندق يعني المزيد من القلق. وجد ان عليه التخلص من الحقيبة اليدوية وفيها وثائقه المهمة، مجموعة جوازات السفر العراقية، وبعض النقود لتغطية نفقات سفره. وقبل ذلك قرر النزول الى صالة الترانزيت لشراء قميص. وجد أحد المحلات مفتوحاً فطلب شراء قميص يناسبه لكن العاملة طلبت منه بطاقة الدخول للطائرة فقال لها بأنه لا يمتلك تلك البطاقة، فاعتذرت عن بيعه القميص لأن كل مسافر موجود على الترانزيت لديه هذه البطاقة.. لم يحاول اجهاد نفسه بهذه التفصيلات المتعبة.

بدأ الطقس مثلجاً حيث تطلع حسن من خلف الزجاج الكبير الى المساحات الواسعة التي أخذت تتلون بفراش من القطن المبثوث، حيث أخذت الثلوج تهطل بغزارة، كانت حركة المسافرين قد تناقصت مع تقدم ساعات الليل وتتلاشى حركة الجموع، كنافورة أخذ ينقطع عنها الماء، وهذا ما لم يعجب حسن الذي شعر بأنه يريد أن يضيع بضجيج المسافرين وصورهم الملونة. تمنى في تلك اللحظات أن يمر جميع مسافري العالم كله عبر هذا المطار ليستمتع بمشاهدتهم، وليبعد الوحدة التي أخذت تضغط عليه وهو يتذكر طيريه الجميلين وعبير. وأخذت الأسئلة تنساب الى قلبه كالخناجر: لماذا تركتُ ابنائي وزوجتي هناك ولم يصاحبونني في رحلتي هذه لكي يكون مصيرنا واحد، أعرف بأنني في قرارة نفسي وجدت هذا الخيار أخف من غيره، قطعتْ عليه هذه الأفكار المؤلمة تحية ألقيت عليه بلغة انكليزية ممزوجه بلغة أخرى لا يعرفها، التفت الى مصدر التحية، شخصان رجل في السبعينيات من عمره وإمرأة تقل عن عمره قليلاً، وكانت الابتسامة تملأ وجهيهما، ومع رده على التحية سألهما بالجلوس الى جانبه إذا كانا يمتلكان الوقت ويبدو انهما كذلك:

- إلى أين أنت مسافر..؟ بادرت المرأة بسؤال حسن ليس على أساس الفضول الخاص وانما هو سؤال العابرين على قاعة الترانزيت، ولأنه لا يعرف الى أية جهة هو مسافر، ودفعاً للحرج اختار مكاناً ما في العالم إلا إذا كانت نفس طائرتهما، عندها سيكون الحرج كبيراً. وجد أحسن مكان هو الذي ليس له وجود على شاشات العرض للمسافرين.
- الى الشرق الأوسط الى مالطا..
- يبدو عليك أنك عربي، ردتْ المرأة هذه الكلمة وبدت على وجهها علامات الانشراح وكأنها تستحضر ذكريات عزيزة.

- نعم أنا كذلك ومن بلاد الرافدين.
- بغداد ألف ليلة وليلة، لقد زرتها قبل عشرين عاماً مع زوجي الذي يرافقني الآن، كانت إحدى قريباتنا التي يعمل زوجها بإحدى الشركات هناك وقد وجهت الينا دعوة فلبيناها، بغداد قطعة من الحلم، إنها ساحرة قضينا أسبوعاً لن ننساه من عمرنا، تلك الآثار والمواقع التي تتحدث عن حضارتكم، بابل وأور وتلك المأذنة الشامخة في مدينة «سر من رأى».
- انها مدينتي سامراء.

نقلتني هذه المحاورة البسيطة الى أيام الطفولة والصبا، تلك الأيام الجميلة وذلك الطموح نحو المستقبل الذي كان يتملكنا حينما كنا نحن مجموعة من الطلبة نطالع دروسنا على جانب السور الكبير الذي يحيط بهذه المأذنة الشامخة «الملوية» التي لا نطيق كل يوم البقاء تحتها إلا باعتلائها بسرعة البرق، ونحن نتطلع من هذا العلو الشامخ الذي يبلغ أربعاً وخمسين متراً الى دجلة الخالد وهو يمر بحنان الى جاب هذه المدينة الساحرة، والى القبة الذهبية للإمامين «علي الهادي وحسن العسكري» التي تعانق الشمس الساطعة، وهي تعكس كبرياء اهل المدينة وشموخهم وهم يحتضنون مرقد الأمامين علي الهادي وحسن العسكري والذي يقتنعون بأنه جدّهم، فهذا الكنز الذي ينطق بالاصرار على الصمود بوجه الزمن يمنح أهل المدينة قوة لا حدود لها، لكي يدرس أبناؤها ويتعلمون المعرفة ليحققوا ما أراده أجدادهم، الحرية والعلم والابداع..

- وأنتما الى أين ذاهبان؟
- سنسافر بعد قليل الى روما، ابنتنا هناك مع زوجها ذاهبان لزيارتهما، وأخرجت من حقيبتها اليدوية صورة ابنتها وهي تحتضن طفليها.
- وأنت هل لديك أولاد؟
- نعم تركتهما مع أمهما هناك في كاراكاس.. وسنلتقي قريباً.
- إذن ستقضون أعياد الميلاد معاً اتمنى لكم السعادة.

استأذنا وودعهما.

بعث هذا اللقاء السريع في نفس حسن شيئا من الارتياح، شعر بالجوع يداهمه، وجد نفسه بالقرب من مطعم صغير، فطلب ساندويج دجاج لسد رمق الجوع، عليه الاقرار الآن بأن مساحة التفكير الواقعي محدودة بحدود جدران المطار، لكن عالم اليوم صغير جداً، هكذا تقول التكنولوجيا، إذن لا بد له من إلغاء حواجز المكان. توجه نحو كابينة من كابينات الهاتف المنتشرة في أرجاء قاعات المطار، سأل إحدى المنظفات عن مكان تبديل النقود فأرشدته، كان عليه تصريف النقود لكي يتمكن من استخدام آلة الهاتف.. أدار رقم الهاتف الذي احتفظ به وكان على الجانب الثاني في كاراكاس صديقه العزيز فأوضح له الحالة، لاحظ من كلماته السريعة إنه أخذ يتعامل مع الموضوع بجدّية بعد هذا الموقف المشين حسب تعبيره من سلطات المطار التونسية بمنع حسن من العبور، فطمأنه كثيراً وناول سماعة الهاتف الى زوجته عبير التي وصله صوتها الهادئ المعجون بلمسات الحزن لكنها تداركت ذلك بقولها:

- المهم أن تصل الى طرابلس بالنسبة لنا نحن بأحسن حال وكذلك شقيقك عمروطفلاك بخير.

لم يتمكن من الاستمرار في سماع طفلته التي سبقت أخاها في التحية.

- بابا نحن سنلحق بك قريبا، ثم جاء صوت البطل الصامت:

- متى تصل؟ نحن نريدك فوراً.
- إنشاء الله، وداعاً.

قيم الانسانية الجديدة.

بدأ يرسم علاقاته مع مكتب بوليس المطار حيث تم تحويله الى رئيس قسم البوليس لمتابعة شأنه الذي رحب به وحاول التخفيف من مشكلته فبادره حسن:

- لقد أجريت اتصالاتي، وأنا بانتظار تأشيرة الدخول الى مالطا.
- هذا جيد. وناوله قصاصة ورق كتب فيها رقم فاكس مكتب الجوازات في مطار امستردام لكي يرسلوا اليه أية رسالة تخص تأشيرة دخوله وقال:
- أرجوك أن تكون هادئاً وأنا مسؤول عن ملفك واذا انتهت ساعات عملي فسيكون زميلي مستعداً لاستقبالك في أية لحظة تحتاجنا فيها.

انصرف حسن من مكتب رئيس البوليس شاكراً و مودعاً إياه وتاركاً جواز سفره العراقي الدبلوماسي وتذكرة السفر التي تحتوي على طريق العودة: امستردام – كاراكس.

لم يكن أمامه سوى الذهاب الى غرفته في الفندق محملاً بمزيج من الاحباط والآمال.

وراح يردد مع نفسه: لا أريد الدخول في التداعيات قبل أن تحصل، فأنا صاحب قرار الهروب والرحيل، لا بد أن أحصر القضية باحتمال وصول تأشيرة الدخول الى مالطا، عليّ مقاومة أية بادرة من بوادر الانهيار وفقدان المقاومة لأنني في بداية الطريق.

استيقظ صباحاً بعد أرق أصابه ومنع عنه النوم الهادئ، نزل من بوابة الفندق الى صالة الترانزيت لكي يكسر الروتين قليلاً حيث يتوافد المئات، بل الآلاف، من المسافرين المتدفقين نحو بوابات الفضاء والحرية. أخذ قليلا من القهوة والبسكويت كإفطار سريع ثم توجه الى مكتب البوليس مع إن المسؤولين عليه يُستبدلون كل وجبة عمل لكن يجمعهم نظام رائع، فالى جانب جهاز الكمبيوتر الذي يحتفظ بكافة معلومات وصول حسن الى مطار امستردام وسفره الى تونس وإرجاعه بالقوة عن طريق ذلك الضابط اللعين الذي يفوق ضباط الاحتلال الاسرائيلي وحشية.

سأل الضابط بعد إداء تحية الصباح عن موضوعه وإذا كانت أية إشارة قد وصلت؟

- هل وصلكم أي شئ حضرة الضابط؟
- للأسف لم يصلنا شيىء، وأشار الى جهاز الفاكس.

في تلك اللحظة الغريبة رن جهاز الفاكس مع إنه يرن عشرات بل مئات المرات، فقال وعلى وجهه بدت علامات الهدوء والبشاشة التي تدخل الاطمئنان حتى على المحكوم عليه بالاعدام، هذه هي الانسانية التي نفتقدها ولا أعتقد إننا سنكتسبها لمئات من السنين القادمة.

- لعلها الرسالة، وخرجت الورقة المكتوبة، وكانتا عينا حسن مشدودتان الى رأس الورقة الخارجة من الجهاز، وقبل أن يتفحص جزءها العلوي.. قال الضابط.
- إنها مالطا.

يا رب صحيح إنها رسالة الخارجية المالطية، طمأنه مبتسماً:

- ستسافر الى مالطا وعلينا انتظار الطائرة التي ستقلك الى هناك.. عليك ترتيب بطاقة سفرك وحقيبتك ونحن سنساعدك، ولكن عليك دفع تكلفتها المالية.
- لا يهم ذلك.

وبدأت حلقة جديدة من البحث عن الحقيبة ومكان إيداعها حيث لا يمتلك حسن أي رقم أو إشارة لأن أولئك الحقراء كانوا من القباحة لدرجة إنهم وضعوها في طائرة العودة الى أمستردام دون

تسليم البطاقة الخاصة برقمها، كان همّهم هو أن يقذفون حسن الى داخل الطائرة، ولولا إصراره على مشاهدة حقيبته على أرض مطار تونس وهي تقذف الى خزان الطائرة الخلفي لما تيقن إنهم وضعوها في الطائرة.

أمر مدير مكتب البوليس شابة ممن في معيته لتولي مساعدة حسن حتى يتم استكمال اجراءات حجز التذكرة وجلب الحقيبة من المخازن الخاصة بالأمانات. كانت إنسانة رقيقة جداً طلبت منه الانتظار قليلاً لأن الساعة الآن الواحدة والنصف ظهراً حيث تبديل وجبات العمل، لكنها طمأنته بأنها لن تخرج حتى تؤمن سفره بصورة كاملة.

جلس حسن على طاولة جانبية في صالة كبيرة مفتوحة هي جزء من قاعة الترانزيت وبهدوء هبط عليه من الله راح ينظر الى الحركة العاملية في بوليس المطار، إنها خلية عمل عجيبة، فعلى الرغم من أن هذه الوظيفة فيها من شّد الأعصاب ما يدعو بعض الأحيان لكي يكون رجل الأمن في حالة من العصبية، لكن ما تشاهده مختلف تماماً، فضابط البوليس يطلب من صاحب المشكلة الهدوء والجلوس الى إحدى الطاولات المخصصة ثم يخرج هذا الموظف من جيبه ورقة مدون عليها كل المعلومات الشخصية لصاحب المشكلة وفيها أمر للمقهى بتجهيزه بالقهوة أو الساندويج، في ذات الوقت كانت شابتان منشغلتان بنصب شجرة عيد الميلاد، وخلال نصف ساعة سطعت أنوارها وأضافت في نفس حسن بهجة مضافة لفرحته بوصول تأشيرة الدخول الى مالطا، لحظات مرّت وجاءته ضابطة البوليس فبادر الى مجاملتها:

– هاتان الشجرتان جميلتان حقاً وأتمنى أن يمر عيد الميلاد.

عليك وعلى من تحبين بكل سلام وسعادة.

– شكراً، وهل ستقضي أعياد الميلاد مع عائلتك.. أنا أعرف إنك ذاهب الى بلد عربي وتركت عائلتك في كاراكاس التي لن تعود اليها، لكن أتمنى أن يكون أطفالك وزوجتك الى جانبك خلال أعياد الميلاد ورأس السنة الميلادية.

– شكرا على مشاعرك الطيبة.

– هذا الرجل من عندنا سيذهب معك خارج منطقة الترانزيت لتأمين شراء بطاقة السفر، والبحث عن الحقائب. وأشارت الى شاب من البوليس الذي رحب به وطلب اصطحابه للبحث عن الحقيبة ثم قطع تذكرة السفر الى مالطا. وهو يردد طمأنته الى أن كل شيئ سيسير على ما يرام. ذهبا الى مكتب الخطوط المالطية، كيف لا.. وإن تأشيرة الدخول حقيقية الى مالطا، فالفاكس ناقل ولا يكذب وليس قادماً من ذلك البلد العربي.

– نريد تذكرة سفر الى مالطا ذهاباً فقط بهذا الأسم المثبت على جواز السفر.

قامت الموظفة بقطع التذكرة ودفع حسن ثمنها، أما بشأن الحقيبة فقالت:

– لا توجد أية معلومات حول الحقيبة لأن الراكب حين عادت به الطائرة الهولندية من تونس لم تمنحه سلطات المطار التونسية رقماً لحقيبته، ثم استفسرت عن شكل الحقيبة ولونها فذكرها لها وكذلك ساعة الوصول، وبأقل من دقيقتين قالت:

– توجد حقيبتان بنفس المعلومات موجودتان في مكان أمين خاص. وتحدثت مع رجل البوليس باللغة الهولندية التي يجهلها، وأخبرته على الفور:

– نحن الآن ذاهبان بمعية هذه الشابة الى مكان خاص جداً لا تدخله إلا مجموعة قليلة ولها علاقة بأمن المطار، هذا المكان تحفظ فيه الحقائب والامتعة التي تفتقد للهوية والمصدر.

- أتقصد أنه إذا كانت تلك الحقائب قد تحتوي على متفجرات او ممنوعات؟
- هذا صحيح أتعلم بأن هذا المكان محصّن جداً وتكاليف بنائه عالية جداً؟.

قال حسن في نفسه: والله تمتلكون الحق في تحصين أنفسكم، فأنتم تريدون الحفاظ على بشركم وإنسانكم أولاً، ثم على ممتلكاتكم المدنية والحضارية أما نحن فالانسان عندنا لا يساوي شيئاً وما نمتلكه من مواقع حضارية وشواهد آثارية ندمره بالحروب الأهلية وبحروب الحفاظ على كراسي الحكم وبدعوات التطرف. الإنسان في بلداننا حاجة للحاكم المستبد وحين تنتهي هذه الحاجة أو يتحول هذا الانسان الى صاحب رأي أو لا يعجبه حاكمه، فتسقط قيمته وقيمة أهله وأطفاله ويتحول الى رقم من أرقام الضحايا الذين يجب تصفيتهم بمختلف الوسائل.

كان يوم استلامه للحقيبة هو الخميس، وبعد استلامه لها أخبره ضابط البوليس بأن الحقيبة ستبقى معه حتى مساء غد الجمعة لأن طائرة حسن تقلع الساعة الثامنة من صباح السبت، ولكن عليه اعادتها اليهم قبل إقلاع الطائرة ليؤمنوا إيصالها بأنفسهم، أما جواز السفر والتذكرة فستبقى معهم لحين ساعة السفر والدخول الى الطائرة. ودعّ حسن رجل البوليس وذهب الى غرفته في الفندق مرتاحاً لما وصلت اليه الأمور، حيث فتح الحقيبة وأخرج بعض الملابس الداخلية النظيفة حيث استبدلها. خرج من الغرفة وهبط الى صالة الترانزيت التي أصبحت مقر إقامته المؤقت.

لقاء الغرباء.

توجه حسن نحو كابينة الهاتف ليتصل بالعائلة وأخبارهم بان كل شيئ على ما يرام. انجز المكالمة، ثم أثارت انتباهه فتاة حيث سلمت عليه باللغة الانكليزية، كانت تحمل صوراً..

- من أين أنت قادم؟
- من كاراكاس.
- تتكلم الاسبانية؟
- نعم.
- إذن نحن نتكلم لغة واحدة أنا كولومبية، وأعمل في شركة خاصة بالطيران ولدينا احصائيات واستطلاعات راي نقوم بها مع المسافرين، وأخرجت مجموعة من الصور لكي تطلع حسن على تفصيلات الطائرة ومزاياها.. الخ.

وهكذا جرهما الحديث باللغة الاسبانية الى أمور عدة، ويبدو إنها قد أنهت ساعات عملها، فدعاها الى تناول فنجان قهوة، لبّت الدعوة، لكنها قالت بأن عليها إتمام عملها وتسليم معلوماتها الى مسؤولة العمل في المكتب المؤقت لدى شركة الطيران التي تعمل لديها، وطلبت عشر دقائق فقط.

- بكل تأكيد أنا سانتظرك في تلك المقهى. الى اللقاء.

وجد حسن من الضروري أن يقتل بعض الوقت من الساعات المتبقية لديه وهي ثلاثين ساعة في قاعة الترانزيت الاجبارية، أصبح هذا الوقت قليلاً بالنسبة له، وهوالذي كان يرفض الترانزيت إذا زاد عن ثلاث ساعات. وبعد قليل أطّلت تلك الفتاة مسرعة مبدية اعتذارها كانت الابتسامة تملأ وجها الجميل، ذات قامة رشيقة يتدلى شعرها الأسود على كتفيها وترتدي معطفاً طويلا رمادي اللون يخفي فستانها السماوي القصير الذي ترك لصدرها أن يبعث بأنوثة رائعة، وبحركة إغرائية سحبته من يديه وكأنها صديقة قديمة:

- تعال نغيّر هذه المقهى نحو ذلك المطعم بالطابق العلوي فالجو هناك مختلف عن هذه المقهى.

لم يجد في هذه اللحظات سوى الاستسلام، فأي تصرف إنساني هذا الذي يغمره في هذه اللحظات ويبعث في نفسه ارتياحاً بدون حدود. دخلا المطعم الصغير الذي يبعث في أجوائه والموسيقى المنبعثة منه شيئاً من الدفء الخاص يقتل الأجواء الباردة هذه الأيام ويقتل الكآبة والملل، رمت بملفاتها وأوراقها جانباً وكأنها عائدة لبيتها من يوم عمل طويل.

- هل عملك شاق؟
- كلا أنا مستمتعة بعملي هذا خصوصاً الساعات التي اقضيها في مطار امستردام.
- وهل لديك ساعات أخرى تعملين فيها خارج منطقة الترانزيت، وفي أي بلد من بلدان العالم مثلاً..

لام حسن نفسه على هذا الاستطراد الفضولي في الأسئلة، لعله يتصور حتى إن العاملين داخل منطقة الترانزيت هم مقيمون فيه ليل نهار مثل حالته.

- عفوا على السؤال ولكن قصدي ما نوع المؤسسة التي تعملين فيها؟
- إنها مؤسسة خاصة ذات خدمات للطيران في مجال التأمين والوقاية خلال طيران المسافرين، لذلك فهذه الخدمة تحاول تحقيق نتائج حول معرفة خدمات الوقاية

داخل الطائرة، وهذه المعلومات ونتائج الاستفتاءات تربط بمعلومات أخرى تخدم مؤسسات الطيران العالمية بدأت بهذا الشغل منذ ثلاثة أشهر فقط.

- وهل جئت من كولومبيا لهذا العمل مباشرة؟
- كلا أنا اقيم في امستردام منذ أربع سنوات.
- للدراسة مثلاً؟
- كلا.

شعر بأنه اصبح ثقيلاً بطرح الأسئلة فبادر للحديث عن نفسه.

- انا ديبلوماسي عراقي عملت في فنزويلا لسبع سنوات وأنهيت عملي هناك، ولدي عائلة تركتها في كاراكاس، وأنا ذاهب لزيارة صديق في ليبيا، وعلي الوصول اليها عن طريق مالطا، فأنت تعرفين لا يوجد طريق طيران بسبب الحصار على هذا البلد.
- هل تريد أية مساعدة في هذا الأمر فأنا لدي علاقات بشركات الطيران في مالطا جيدة.
- شكراً تم كل شيىء.

كان على حسن إخفاء وضعه الحقيقي أمامها. وبعد أرتشفت كأس النبيذ الذي طلبته لاحظ حسن إن وجهها ينبعث باطلالة جديدة تفوح منها أنواع الرياحين، لكن ملامح الوجه الباسم أخذت تتغير مثلما تتبدل الألوان على سطح نهر دجلة عند المغيب. وراحت تتحدث بعد أن تغيّرت نبرات صوتها القوية الى عبارات انسيابية فيها مسحة من الحزن لم تتمكن من إخفائها.

- جئت قبل أربع سنوات لزيارة صديقتي التي أكملت دراسة الطب، واشتغلت بإحدى المستشفيات، وخلالها تعرفتُ أنا على رجل في الثلاثين من عمره، وأحببته وقد وفّر لي فرصة عمل في إحدى قاعات الرسم حيث كنت قد تخرجت من كلية الفنون القسم التشكيلي. وارتبطنا مع بعض بعلاقة حب عميقة، وحملت منه، ثم دبّ الخلاف فيما بيننا حيث أكتشفت بأنه متزوج، وأنجبتُ منه طفلة في غاية الجمال، وانفصلنا، وأصبحت هذه الطفلة هي فرحتي في هذه الحياة وأنا أعمل من أجلها ومن أجل استمرار الحياة.

إنها تمتلك ثقة عالية بالنفس، وتمتلك الحرية، وبذلك تضعف الصعوبات أمام إرادتها. ثم نظرت إلي وهي تتوقف عن مواصلة الحديث:

- وانت؟
- أنا مسافر كما ترين.
- نعم أنا أعلم إنك كذلك.. المسافر بقدر ما يحمل في حقائقبه من أثقال كذلك يحمل معه مخزونه من الذكريات والاحلام، يحملها معه من محطة الى أخرى يحمل معه الفرح والحزن.. ماذا تريدين القول يا.
- كارولينا..وأنت.
- حسن.
- أريد القول إنني أقرأ في وجهك حزناً مدفوناً.
- لا.. لا. إنه إرهاق أربعة أيام في الترانزيت الاجباري لأنني كنت أنوي السفر الى بلد عربي مجاور لبلد آخر ولكنني لم أحصل على تأشيرة مرور من هذا البلد العربي الى ذاك، لكنني حصلت على تأشيرة دخول الى مالطا.

- حسن يبدو أنا وأنت كلانا مشتاقان للحديث الى بعض ولطالما طائرتك بعد غد لماذا لاتخرج معي ونقضي يوماً في امستردام وهي مدينة جميلة
- أنا لا استطيع لأنني لا أمتلك تأشيرة دخول الى هولندا، كما ان جواز سفري مع بوليس المطار لكوني عدت من الطائرة من تونس. دعينا من مسألة الخروج إذا لم يكن لديك مانع لنكمل سهرتنا هنا، وأنا لدي غرفة في فندق المطار.

نظرت الي حسن واغرورقت عيناها بالدموع.

- أرجوك كارولينا.. ماذا بك؟

لاحظت يدها تتسلل نحو يده، حاول سحب يده ببطء فقد انتابته قشعريرة يلفها غموض.. لعل هذه الفتاة قد أخطأت في ملامحه وتصورت انه شخص آخر تعرفه أو تحاول معرفته، كل الاحتمالات واردة أما أن تكون معجبة به بهذه السرعة فهذا احتمال بعيد، إنها سعت اليه وفتحت مشاعرها بهذه السرعة، هل تكون مخادعة نساء عابرات لاصطياد الرجال، لكن ظرفها لا يبيح ذلك فعابروا الترانزيت ليسوا مقيمين، مع ذلك عليه أن يكون محترزاً منها، ولكن لا بدّ أن يكون ذلك بحذر شديد لكي لا يخدش مشاعرها الانسانية التي قد تكون صادقة فيها.

- هل تسمحين أن توضحي لي ماذا بك؟ فنحن هنا في ظرف خاص، تعرفين أنني مسافر بعد غد وسأكون في بقعة أخرى من هذا العالم، ولا أرغب أن أحمل معي هماً مضافاً لهمومي، أريد أن تكون لحظات لقائنا هذه جميلة وتترك أثراً انسانيا لدى كلينا، ومشاعر صادقة متبادلة، وأنا على استعداد للاصغاء اليك الى آخر لحظة وجودي هنا.
- أرجوك حسن لا تسيئ الظن بي، ليس لي غرض آخر سوى إنني شعرت بسرعة بأنك انسان وتتعامل بالمشاعر، أنا أعرف بأننا هنا لساعات محدودة وقد لا نلتقي أبداً لكنني..

وراحت تجهش بالبكاء.

- أرجوكي تكلمي، كانت صورة ابنتك كأنها صوت ينطلق من أعماقي، يهزني، إنها شبيهة بطفلتي الوحيدة.

كارولينا أرجوكي لا تقعي بالوهم، فأنا لست ذلك الانسان الذي افتقديه هنا، أنا رجل من بلاد الشرق، وعمري حتماً أكبر من عمر فقيدك الذي يبدو إنك تحنين إليه، اعذريني على هذه المباشرة بالحديث.

- وجدت في وجهك ملامح قريبة من ملامحه.
- لكنني أنسان آخر يحمل ثقلاً كبيراً، وأمامي طريق طويل قد أعرف خطواته الأنية لكنني لا أعرف الخطوة اللاحقة، أنا احترم تلك المشاعر التي انفجرت بهذه السرعة من دواخلك، ولكن لماذا هجرك؟
- إنها قصة طويلة، لقد عشقته حد الجنون، وقد هجرت أهلي ووطني وأصدقائي من أجل أن أكون الى جانبه، كان يبادلني الحب من دون حدود، ويلهمني الأمل. حاولت ترتيب حياتي لكي أكون الى جانبه، وأخذت احلامي ترسم ملامح مستقبل مشرق معه، شعرت إن حبه صادق معي، كان يغار عليّ كثيراً، أصبح هو كل شيئ بالنسبة لي، كنا نخرج يومياً سواء الى مطعم أو مقهى أو مشاهدة فلم في السينما، كنا نخترع أي برنامج للخروج معاً، طبعاً عند نهاية يوم عمله كمصمم معروف في إحدى الصحف المحلية. وساعدني كثيراً في التعرف على الكثير من المهتمين بالوسط الفني

ومعارض الفن التتشيكلي الذي أحببته حتى أستطعت العثور على فرصة عمل في مجال العلاقات العامة وتنظيم المعارض من خلال جمعية كبيرة متخصصة بهذا المجال، ومع إن الراتب متواضع لكنها كانت فرصة جيدة في العلاقات العامة بالأوساط الفنية، كان همي الوحيد أن أكون الى جانبه، كنت أنظر اليه كإنسان عظيم يحمل قلباً طيباً لدرجة يتصوره البعض بأن ساذج، كان يحدثني عن ماضيه وطفولته وصباه القاسيين لأبوين فقيرين، وكيف شق طريقه بعصامية عالية، حتى أصبح من المصممين المشهورين في مجال الكرافيكس، وكان يقول لي بأنه يتمنى أن يبني بيتاً صغيراً في الريف قرب مدينته، يستغله كمرسم يلبي طموحه كفنان تشكيلي له مكانته أيضاً. كانت الكثير من علامات التواصل بيني وبينه، لا أعرف ملامحها، لكنها غائرة في أعماقي حتى شرايين القلب. يتملكني شعور بالخوف والغربة حينما أكون بعيدة عنه لساعات قصيرة في اليوم كأنني قطة ضائعة وسط عاصفة ثلجية تكاد تكتسحني وتغمرني حتى الاختناق. في لقائي معه أشعر بأنني أتنفس نسمات الحرية والربيع والحياة والسعادة. لكن ببين الحين والآخر كانت تصيبني نوبات قلق غامض كنت أعبر له عنه، لكنه كان يتجاهلها، ويصفني بصاحبة الخيال الرومانسي.

لم أقاطعها خلال حديثها، فقد شعرت إنها وجدت فرصة خاطفة للتعبير عن وضعها، لكنني سألتها بانسياب:

- وهل يتوقع أي إنسان لمثل علاقة الحب هذه أن تموت بهذه السرعة؟
- إن حبنا لم يمت.
- عفواً أقصد الفراق بلا عودة.
- هو الذي قرر الابتعاد عني.
- وما السبب؟
- كان متزوجاً. ولم يبح لي بهذه الحقيقة بداية طريقنا، لكنه صارحني فيما بعد، وإنه يمر بأزمة حادة مع زوجته، وشعر إنه يميل نحوي وتحول ذلك الى حب، وقبلت أنا هذه العلاقة لأنني احببته كذلك، ولكن بمرور الأيام كانت هذه المشكلة تشكل نقطة ألم سوداء في حبنا، لم يستطع أن يحسم موضوعه مع من يريد العيش معي أم مع زوجته. كنت دائماً أوجه له هذا السؤال، وكان يجيبني: أعطيني الفرصة.. اعطيني الفرصة.. وبين حالة الخوف والقلق من المستقبل وبين ما أعيشه من لحظات حب معه قررت داخل نفسي أن أحمل من عنده، وبعد أسابيع غضب بعد أن أخبرته بالأمر، موبخا لي قراري الانفرادي، قلت له: لقد خفت من المستقبل، وأنا أعشقك، لا أريد أن أفقدك، وأريد أثراً منك ومن دمك يظل يرافقني مدى الحياة يكون نافذتي الوحيدة حتى لو كنت بعيداً أن يكون لي طفل منك، فأرجوك أن تمنحني هذه الفرصة إن كنت تحبني، ولاحظت على ملامحه إنه قبل الحالة على مضض، وأخذ الجنين ينمو في بطني وينمو الأمل معه بأن نعيش حياتنا المستقلة والمستقرة، الى أن فاجأني ذات يوم بأنه وجد عملاً في إحدى مجلات الموضة المشهورة في باريس، وإنه قرر الرحيل لوحده، لكنه سوف لن ينقطع عني وعليّ الاعتناء بصحتي وصحة الطفل القادم وولدت إبنتي هذه. ثم أخرجت صورتها من محفظتها، وهي في السنة الأولى من عمرها، إنه يزورني بين فترة وأخرى لكنه يقيم مع زوجته في باريس.

- وحبكما؟

- لم يمت، لكنه بعيد عني، ويعدني بأنه سيتخذ قراره النهائي في فرصة مناسبة، وأنت كما تراني اشتغل لكي أعيش من أجلي وأجل الطفلة وأيام الانتظار.

لحظات ساخنة.

حسن يعرف بأن كارولينا لا تنتظر منه رأياً أو حكماً أو موعظة في هذه اللحظات، ولا يجد نفسه مؤهلاً لهذا الدور، إنها لمسات مشاعر تدفقت من أعماق هذه الانسانة عابرة الطريق.

- أنا اقدر فيك هذا الحب الصادق الوفي، تعرفين إن هذا النوع من الحب نادر في هذه الأيام وخاصة في بلدانكم، النساء فيه يمتلكن اندفاعاً ليس له حدود في العواطف، أما الرجال فأستطيع القول من دون أنانية أو تعّصب، إن الرجل في بلاد الشرق يمتلك التزامات أكثر من الرجال عندكم حينما يحب الرجل إمرأة، فإنه يقدم اليها الكثير ويلتزم تجاهها، والمرأة عندنا مقدسة عندما تكون مخلصة للرجل، لكن الرجل حينما يحس بأنها لا تبادله نفس القدرة على العطاء والحب فإنها تسقط من عرشه، ورغم ذلك لا يخذلها. نحن نسمي تلك قيم الشهامة والأخلاق، وهذه ليست حالة عامة ومطلقة.

حاول حسن في تلك اللحظات امتلاك تدفق كلماته أمامها لكي لا تقع في دائرةِ الاهتمام ومن ثم يسقط في مصيدته. وهو المسافر الراحل الذي يحمل همومه في صدره، همّ الوطن والعائلة، القرار الذي اتخذه بسبب موقفه المبدئي. لاحظت كارولينا عليه الصمت والشرود.

- أنا أشعر بكلماتك هذه بأنك تقوم بلملمة بعض شتاتي الممزقة، ليست دوائي، لكنني أشعر بأنها تمنحني الثقة بالنفس، لقد افتقدت الى من يعينني بعد أن قطعت جميع صلاتي بأهلي وصديقاتي ونسفت الجسور من خلفي لأكون أسيرة حبي واحباطاتي الجديدة.

اقترب من طاولتهما أحد رجال البوليس:

- مساء الخير، أنا آسف لازعاجكما، رفعت كارولينا رأسهانحوه فردت عليه التحية بود ومعرفة.
- كيف حالك سيدة كارولينا؟
- ها أنذا اشتغل هذه الأيام عندكم، لكنني تأخرت اليوم لهذه الساعة لأنني وجدت زبوناً لديه إجابات مفيدة لاحصائياتي التي أجريها مع المسافرين، قالت هذه الكلمات بدعابة وديبلوماسية، التفت البوليس نحوحسن وبابتسامة ماكرة قال:
- وهل اعطاك هذا المسافر الاجابات الصريحة؟

لم يكن وجهه غريباً عن حسن الذي تعرف على وجوه جميع من يشتغلون في مكتب بوليس المطار، ردّ عليه:

- أعتقد ذلك.
- أنا جئت لأطمئن عليك ولأوكد خط الرحلة بعد غد صباحاً.
- شاكر اهتمامك، ولن أنسى موعد اقلاع الطائرة لأنني داخل قاعة الترانسيت، ووثائقي معكم.
- استودعكما الله.

وقبل أن ينصرف ببرهة همست كارولينا في أذن حسن وبلغة إسبانية لا يعرفها رجل البوليس:

- أرجوك حسن إذا كنت تريد الخروج الى المدينة فدعني أكلمه بذلك واعتقد إنه قادر على تسهيل المهمة، ارتبكُ حسن قليلا أمامها فلا يريد أن تعرف تفصيلات وضعه ولهذا استجمع شجاعته الكلامية وقال لها:

- لا داعي أعتقد إذا كان غير مزعج لك البقاء الليلة فيمكن أن نلتقي غداً هنا.

ولكي لا تشك بوضعه أوضح لها بأنه لا يمتلك تأشيرة دخول، كما إن سلطات مطار تونس قد أعادته الى هنا وهم الآن مهتمون بتسفيره الى مالطا. وجد في تلك اللحظة وجهها قد انتابته سحابة حزن، ويبدو إنها كانت تأمل أن تكون لديها فرصة قضاء يوم معه في المدينة، فانهمرت تلك السحابة دموعاً على خديها المتوردتين من أثر النبيذ الأحمر.

- أعذريني كارولينا، أعذريني.
- لا. لا.. لا شيئ.. يبدو ان الخيال قد اخذني الى ما طرحته عليك. لا بدّ من أن أعيش الواقع مهما كان مرّاً، وألا أحملك ما لا تقدر عليه، أنت مسافر ولكنني شعرت بحاجة اليك. لا أدري لماذا؟ أنا آسفة يا حسن، أشعر بتعب شديد عليّ الانصراف.
- لماذا؟ ما زال هناك وقت نقضيه معاً، وتعرفين أن المطعم مفتوح لمدة أربع وعشرين ساعة، ولدّي غرفة بالفندق وتستطيعين أن ترتاحي فيها.
- لا شك إنك تريد حرق الساعات المتبقية لديك من هذه الإقامة الاستثنائية والإجباريةبأي شيء، سواء بمشاهدة فلم على شاشة التلفزيون، أو قراءة قصة درامية أبطالها حقيقيون أحدهم أمامك، قد تتعاطف معه أو تعجب به خلال الزمن المحدود..
- كلا كارولينا، فالدراما الحقيقية هي حياتنا، جميعنا قد نكون أبطالها، أو قد نكون ضحيتها، قد يكون أحدنا خلف قضبان سجن أو إقامة إجبارية، او أسير قرارات حكامنا، أو محكومين بالاغتراب عن أوطاننا، محرومين من رائحة عطر أمهاتنا وأرضنا وطيورنا الملونة الجميلة، وشمسنا.. أو منفيين عن قلوبنا وخفقاتها بالحب الجميل، قد نكون جميعنا محنّطين داخل توابيت موت مؤقت، والحوار بيننا هو حوار أموات نسترجع آثامنا وأخطاءنا، وكل ما سمعناه في لوحة ماضينا من خطوط وألوان ساطعة، نحن نحتفظ بأجسادنا وملابسنا، لكن أرواحنا محنّطة، فضربة الحياة التي تهز كل هذه الاجساد هي حريتنا، فهي منقذنا جميعاً، وهي التي تبعث فينا قوة الحياة وطاقتها اللامتناهية.
- الوقت أصبح متأخراً بالنسبة لعودتي الى المدينة.

عندها اضطرته ليدعوها للبقاء معه الليلة، ففي غرفته سريران.

- اذا لم يكن لديك مانع كارولينا، لنقضي الليلة معاً والغرفة تسع لأثنين.

ذهبا الى الفندق ودخلا الغرفة، واستأذنت لاستخدام الهاتف وتحدثت حسبما قالت له باللغة الهولندية الى الخادمة لكي ترعى طفلتها، وطلب قنينة نبيذ ووافقت، بل عبرت عن ارتياحها لذلك.. وخلعت معطفها الأسود، وذهبت الى الحمام ثم عادت وهي تشع أنوثة وجمالاً.

- هل زرت كولومبيا؟
- نعم ذهبت الى بوغوتا، كانت مدينة جميلة واصطحبني صديق عربي يمتلك مزرعة للبن والهيل وشاهدت أنواعاً غريبة من محصول «الهيل» تتميز بكبر حجمها، كما تتميز بوغوتا بنسائها الجميلات الرقيقات، والتي لا يعكسن ما يعرف عن بلد المخدرات وتجارتها، فهن متيقظات دائماً مثلما أنتَ الآن.
- ماذا تقصد؟
- لا شيئ، ثم تحركت بجلستها الى حافة السرير، وهو الى الكرسي الصغير الوحيد. حاولا ترتيب الجلسة لكي تكون مريحة لكليهما، كانت عيناها تشعان بالحيوية رغم

ما أدعته من أنها مرهقة، وتدلت خصلات من شعرها على وجهه وهي تأخذ كأس النبيذ بكلتا يديها، فقد احتضنته وكانت أصابعه تتشابك بأناملها الرقيقة الدافئة، حتى كاد الكأس يفلت من بين أصابعهما. وطبع قبلة خاطفة لكنها هادئة على خدها، ردّت عليها بنظرة مليئة بالحنان والجمال، وكأنها أومأت بانسدال ستارة حلم جميل في ليل شتائي مميز داخل غرفة في صالة الترانزيت، واستسلما لنوم عميق.

صحى على صوتها وهي تناديه بصوت هادئ كأنها تنادي طفلتها:

- ألا تريد الاستيقاظ أم تريد أن ترى نفسك في مالطا من دون طيران؟
- صباح الخير.

لأول مرة منذ خمسة أيام شعر حسن بأنه نام بشكل جيد.

- وأنت؟
- أنا كذلك.. وأطلقت ضحكة صباحية تحمل الكثير من المعاني، إنها ساعات قليلة ونفترق.

كانت طلتها رائعة وبحيوية جاذبه، يبدو إنها استيقظت واستحمت وبدت كأنها في بيتها. لقد خشى حسن من هذه الألفة أن تنقله الى عالم يرعبه مجدداً، فهل يترك لهذه الكولومبية الجميلة أن ترفع من كتفه وصدره كل النياشين والأوسمة الي حملها زمناً أخذ من عمره ولم يأخذ منه شيئاً، وأن تمسح من ذاكرته كل التواريخ المقدسة التي كان يحفظها والألقاب الألوهية التي يحفظها عن ظهر قلب ويرددها على السامعين كل صباح دون أن يخطأ في ترتيب أولويتها، فأي خطأ سيقود عنقه الى المشنقة. شعر بأنه مستعد لهذا الانعتاق الجديد، لكن عاصفة خوف تلسع روحه وتوقظ من حوله كل وقائع الحاضر، يخشى أن تغور في أعماق روحه وتلتقط من بقاياها ما ظلّ من ارتباط بزوجته وأولاده. هو الآن قلق جدا يريد أن تنتهي هذه الساعات التي لا يعرف ماذا يسميها، هل هي سعيدة أم حزينة..

نعم كانا هما الاثنان بحاجة الى تبادل جزء من أحاسيسهما ومشاعرهما، مع إنه لم يبح لها بحقيقته وحقيقة رحلته هذه الى المنفى الغامض.

- هل تتصورين كارولينا إن حساب الزمن يكون باقلامنا ومساطرنا، وإنه هو تلك الدقائق والساعات التي تدق نبضاتها مليارات الساعات الملتفة على المعاصم أو المنتصبة على اللوحات الجدارية، وإن الأيام هي التي تُشطب على صفحات مفكرات الجيب، أم إنها لحظات الشعور والألفة والحب التي تشكل بمجموعها عمراً حقيقياً للانسان. أنا أشعر بسعادة في لقائي بك، إنك جميلة ورائعة، وتستحقين السعادة لكل عمرك، أصارحك القول.. بدا ينتابني شعور بالخوف.
- ولماذا، هل كنت مرعبة ليلة أمس؟ وأطلقت ضحكة فيها أنوثة عميقة.
- أنا آسف لهذه الكلمة وهي ليست ذات معنى، كما إن الخوف لا يقترب إلا من الضعفاء الذين تختلط أمامهم الألوان ويصعب عليهم التمييز بين مشاعر الجوع للأكل ومشاعرالحاجة للحب، بين الورود الربيعية التي تقطر عطراً وندى، وبين الورود الورقية، بين الطريق المستقيم الموّشم بشارات المرور، وبين النفق المعتم الطويل، وأنا لست من بين هؤلاء، ولم أعتد الضعف، لكنني أخشى أن أكون ضعيفا.
- وهل وجدتني أقوم بدور المنتزع لقوتك؟
- عفواً لم أقصد ذلك.

حاول غلق منافذ هذا النقاش، فقال لها:

- علينا تناول الافطار.
- أنا أدعوك للافطار في مطعم في مقهى صغير أعتقد بأنك لم تهتد اليه رغم إقامتك في هذا العالم الصغير خمسة أيام.

خرجا من الفندق وتوجها نحو أحد المنعطفات، كانت زاوية مخفية لكشك صغير لم يكتشفها حسن، يقدم وجبات إفطار سريعة. جلسا على طاولتين مرتفعتين ككراسي البار، وطلبت وجبة الافطار.

قالت:

- أنا أعرف إن طلبي بقائك هنا لعدة أيام نقضيها معاً هو مستحيل لما عرفته من قيود تحيط بك، لكنني لا أدري لماذا أجدد الطلب منك مرة أخرى، لن تكلفك الاقامة شيئ.

هذه المرأة لا تعرف تفصيلات وضع حسن، وإنه من المواطنين الممنوعين من دخول العواصم الكبيرة أو الصغيرة في العالم، ليس لكون العراقيين مجرمين أو إرهابيين، كلا فالسبب لأنهم من بلد أراد أن يصل بالعلم والتقدم والتكنولوجيا مستوى الخط الأحمر، يريدون منهم أن يظلوا نائمين في كهوف التخلف والجهالة، وينعمون عليهم بقطرات العلم حسب تقديراتهم، ولأن العراق نفطي فهذه هي العقبة الكبرى أمامهم.

- أنتِ لا تعلمين كم تتملكني الرغبة القوية للبقاء معك لعدة أيام، ليس لأنك قتلتِ الوحدة التي أعيشها، أو تبادلنا الأحاديث عن أنفسنا، أو حالة التقارب التي جمعتنا، لقد شعرتُ إنني أعرفك منذ زمن، ولكن أعذريني أنا أخشى أن ينقطع عني حبل العبور الى الضفاف الأخرى التي مهدت لي سواحلها ورمالها البساط ومراسيها الأمان لي ولعائلتي في وقت عصيب أمر به، فأنا قد هربت من موقع عملي الديبلوماسي في كاراكاس لأنني صاحب رأي وموقف لم يعجب رئيس بلدي، وهو الآن يطاردني.
- ولماذا هذه المغامرة.. أنا أستطيع مساعدتك بطلب اللجوء في هولندا، وهي خطوة من هنا عند مكتب الجوازات، فكّر بالأمر.
- هل تعلمين أنا منزوج ولدي طفلان بعمر الزهور، وأمهما بحاجة الي.

لم ألاحظ على وجهها أية علامة من علامات الاستغراب، فهي قد أحبت رجلاً لديه عائلة وقد انجبت منه طفلة، فهذه الحالة ليست غريبة عليها، وأستبعد إنها تفكر بمسألة أنانية لنفسها.

- أكتشفتُ الآن يا حسن أنك إنسان رائع، ولن تضيع الأرض من تحت قدميك.
- أنا حريص جداً على عدم الوصول الى نقاط الافتراق بين روحي وقلبي وبين حرصي والتزامي تجاه أقرب الناس لي.

ولكن قد تصل يوما ما الى هذا المفترق.

- سأعمل على أن لا أصل اليه، وأسأغيّر مسار الاتجاهات اذا اظطررت الى ذلك.
- نا استطيع مساعدتك اذا رغبت، ويمكن بعد دخولك هولندا أن تلحق عائلتك بك بسرعة.

استبعد حسن هذا الخيار من رأسه،لا يعرف لماذا، هل إن جنات الخلد ستكون في ليبيا، ولماذا لا يسلك الطريق السهل؟ لا يعرف، ولكنه يعرف أن عبير ترتاح أكثر في البلد العربي وتفضله على

البلدان الاجنبية.

- على أية حال..

ثم أخرجت من حقيبتها بطاقتها الشخصية:

- هذا عنواني ورقم هاتفي، في اللحظة التي تشعر بأنك تحتاجني سألبي كل طلباتك، إحتفظ بها عندك، مثلما أتمنى أن تحفظ هذا اللقاء الذي جمعنا في هذه البقعة العالمية التي اسمها الترانسيت، وعليك أن تعلم بأن الأوطان هي ليست تلك الأرض التي تحيطها أسوار الحدود والشعوب، فالأوطان هي أين ومتى تستطيع أن تجد نفسك. أنا الآن بحاجة الى مواصلة عملي وطائرتك غداً الساعة الثامنة صباحاً، أليس كذلك؟

- لماذا نفترق منذ الآن أمامنا وقت.

- لن أقول وداعاً.

وانسحبت بهدوء بعد أن إحتظنته وطبعت قبلة على وجهه أحسس خلالها بقضبان من النار تضرب على صدره، عانقها وقبلها.

- لن أقول وداعاً لعل الأيام تجمعنا..

وغابت بين جموع المسافرين، كأنها موجة تذوب على ساحل رملي في ليلة ظلماء.

مالطا جزيرة الأمان.

مرة أخرى وجد حسن نفسه وحيداً لا يريد أن يعيد الساعات القليلة التي قضاها مع كارولينا، فقد كانت مخدراً مؤقتاً، ولكنه ليس كذلك المخدّر الذي تجرعه في كاراكاس، صحا من كل ذلك وهو يتجوّل في أرض المطار، سمع أصوات تنطق العربية تصدر من أمرأتين جالستين على مصطبة، سحبته لغة الوطن والأمة التي أخذت تفقد حراسها شيئاً فشيئاً، لقد سكرأصحابها بمتاع الليالي، وابتعدوا عن سطوة المبادئ والقيم، وظلت هذه اللغة يتيمة لكنها تدخل القلوب والضمائر.

- صباح الخير.

- أهلاً وسهلاً.. الأخ يبدو من بلدنا؟

- نعم.

- لى أين متجه؟

- لى مالطا.

- ونحن الى عمان، خرجنا من بغداد منذ أربع سنوات، والتحقنا بأقربائنا في الولايات المتحدة الأمريكية.. نحن شقيقتان متزوجتان، ولكل منا طفلة، وذاهبتان للقاء والدتنا التي تنتظرنا في عمان، لحين استكمال إجراءات ضم الشمل.. هكذا كتبت علينا الظروف القاسية.. أن تلتقي الأم بإبنتيها في عاصمة دولة ثالثة!! أترى أن كان هناك بديلاً عن الوطن؟

- لا يمكن، الغربة عن الوطن بالنسبة لنا جميعاً سيف مغمور في خواصرنا، لعل الظروف تتغير لتجمع الأهل والأحبة.. ولتهدأ رعشات القلوب الموجعة حينما يعود الفرح لسعفات نخيل العشار، والشموخ لجبال شقلاوة وصلاح الدين، وينهزم الرعب من قلوب أطفال الوطن الطرية.

انطلق نداء الرحلة المتوجهة الى عمان.

- وداعاً أتمنى لكما الوصول بالسلامة وأن تلتقيان بكل من تحبان، أنتما أفضل حالاً مني لأنكما ستكونان قريبين عن أرض الوطن.

- وداعاً.

لم تبق أمام حسن سوى ساعات قليلة لينطلق في رحلة تبدو لحد اللحظة أمينة، حيث الحصول على التاشيرة الى مالطا قد تم، وبعدها السفر الى طرابلس بالبحر. وينتظر عودة واحد من ضباط بوليس المطار الذين أصبحوا اصدقاءه. ومع ضغوطات هذه المحنة التي مرت عليه خلال الستة أيام الماضية لكنه يشعر بأنه قضى أياماً في عالم آخر لايمكن وصفه بدقة، هو ليس عالم من الفضاء، لكنه عالم لا تجده على أرض الأوطان، صحيح إن نظام الترانزيت يجعلك تعيش سويعات أو دقائق قليلة لا تشعر بمكنونات هذا العالم الحر الصغير، فالناس هنا يعرفون إنهم غير مقيمين على هذه البقعة، وإنهم سينتقلون الى فضاء ينقلهم بالطائرة الى بلد آخر قد يكون وطناً أو بلد زيارة أو إقامة، صحيح إن هذه البقعة الصغيرة تعود للبلد وسيادته، لكنها مهداة للبشرية لاستخدامها، والاستمتاع بها حتى ولو لساعات قليلة، مع إن جميع العابرين لا يشعرون بهذا المكسب الكبير. قد تكون محنة حسن في رحلة المنفى قد أعطته هذه الميزة، وهي أنه استمتع بهذه المواطنة العابرة لستة أيام، الفرق بينها وبين مستوطني السجن ان أولئك مسلوبي الحرية، ويأمرهم سجان منذ الصباح وحتى صباح اليوم التالي، لا يعرف أحدهم ما يصله من نداء أو خبر قد يغير معالم حياته أو يقذفه الى الموت، في هذه الرقعة العالمية لا يوجد سجّان، هناك فقط نداءات وعلامات ألكترونية منصوبه في زوايا متاحة الرؤية للجميع، أما هو وغيره الذين يشبهون حالته فأمرهم بيد بوليس المطار، كارولينا كانت سحابة مطر بارد في عز الصيف اللاهب. مرت عليه وهوفي أقسى ساعاته، فقد أعطته دفقة جديدة للثقة بالنفس، ومن إن العواطف الصادقة النبيلة هي ليست غلط، وإن المشاعر الانسانية طيور تبحث لها عن أوكار دافئة أمينة، حتى وإن كانت على حافات بحر هائج يقذف سيوله نحو الرمال، أو على أغصان مكسّرة بفعل عواصف الزمن، لكنها قادرة على إيواء الطيور المهاجرة وحمايتها لحين.

لن آخذلكِ يا عبير، يا رفيقة دربي الطويل، فأنت لحظة الأمان والصدق والثقة بالنسبة لي بعد أن فارقتُ أمي وتركتها تنحب على فراقي، وأنا الذي كنت بالنسبة اليها أمل السعادة والفرح والأمان الذي افتقدته طويلاً، لكنني فارقتها مرغماً، ودائماً ما كانت تقول لأخوتي: مهما كانت معزتكم غالية عندي لكن حسن يبقى هو كل شيئ.. وهو طلعة وجوهكم في هذا الزمن الغادر، وهو ضمانتكم، وأنا الان افارقكِ أيضاً، كما لن أخذل طيري الجميلين، ولن أدعهما لحظة يشعران بأنهما منكسران بسبب موقف والدهما السياسي، نعم رفضت ما طلبه مني الأمريكي من إغراء لتوفير أفضل الظروف الحياتية لهما وله ولزوجته، مقابل أن يكون والدهما جاسوساً ضد مبادئه ووطنه، وقد يشعران بتلك الخسارة فيما بعد حين يسمعان القصص والروايات وهي ستأتي في يوم ما حينما تكون الظروف مناسبة. أما الذين يستسخفون هذه المبادئ ويعتبرونها تخلفاً وعدم (شطارة) فهم فارغون لهم سكرة قد تمتد متعتها لأيام وشهور وسنين، لكن نهايتها واضحة. فللتاريخ ميزان ثقيل ومسطرة حادة كحد السيف، والحياة واحدة لا تتكرر، ولوحة بيضاء لا تتقبل إلا من يمسك ريشته، ويضع بصمته برهافة وحسّ صادق.

شقيق حسن عمر الذي جاء لزيارته لوحده وترك زوجته التي تزوجها حديثاً هناك في بغداد، بعد أن وصلت الأمور عنده درجة خطيرة من عدم التحمّل، فهو مرهف الحس ومبدع ويعشق الحرية، لكنه مكبلّ بكل القيود وقيد حسن كان الأكبر بالنسبة إليه لكونه قدوته، لكن هذا الأخ الكبير حسن يتعرض اليوم في بغداد الى حملة داخلية مخابراتية منظمة لاستدراجه للعودة، أو تسقيطه إن

لم يتحقق الهدف وعمر على يقين بأنه لن يعود. أراد تجربة زيارته ليكتشف عن قرب، بماذا يفكر، فمصير حسن لا يهمه حسب، وانما يهم عائلته الصغيرة والكبيرة.كان توقيت زيارته في لحظة الخيار الصعب لحسن بعدم العودة الى الوطن، حتى لو لم يخبره بذلك مباشرة، فقد لمس ذلك من خلال الكثير من التصرفات العامة لحسن في كاراكاس:

- لماذا إذن خدعتني خلال الشهور الثلاث الماضية، وجعلتني أدرس اللغة الاسبانية، وأسعى للحصول على عمل حر ومن ثم أجلب زوجتي الى هنا.
- أنا لم أخدعك يا أخي ولا أستطيع أن أخدع نفسي.
- على أية حال أنا هنا من أجل أن أعوض بعض الأمور التي لا تستطيع أنت القيام بها لغيابك عن عائلتك في كاراكاس، وكن مطمئناً وتوكل على الله.

لكن زوجة حسن عبير وشقيقه عمروصديقه لم يخبروه في الحال خلال سفرته، وإقامته السريالية في مطار امستردام بتفصيلات ما حدث لهم بعد مغادرته كاراكاس.. كان يهمهم أن يكون بوضع نفسي هادئ، ويصل برّ الأمان في طرابلس (ليبيا).

مشهد من فلم كابوي مخابراتي.

كان كل شيئ في كاراكاس يبدو وكأنه تحضير لفلم من أفلام الكابوي الكلاسيكية، ومشهد من مشاهد شغل المخابرات العربية ومن بينها العراقية، وتطبيق لدرس من دروس مخابرات المعسكر الشرقي المتخلفة رغم قساوتها والتي طبقت أبان الحرب العالمية الثانية. ويبدو إنهم وبسبب شعاراتهم القومية ابتعدوا عن مدرسة CIA في أساليب المخابرات، وساحة فنزويلا الرخوة كانت سهلة وخصبة وميسرة لمثل تلك التطبيقات. فأنت تستطيع أن تشتري قاتلاً بمائة دولار، فكيف إذا ما قدمت له إغراءات المال الذي قد يحصل عليه من ضحيته أو ضحاياه عند تنفيذ مهمته، وكانت لعبة تشابك مصالح اجهزة المخابرات تصب في هدف واحد هو تحطيم الضحية التي بدت متمردة على كل من حولها، فالمسرح المحيط بحسن كانت تفوح منه قذارة اللعب الرخيص، الخروج عن الطاعة الأبوية غير مقبول حتى وإن طال زمنها العمر كله، ورفض الانقياد لأعتى جهاز مخابرات للدولة الكبرى في العالم هو نوع من تحدّي الصبيان والمراهقين، ومسرح اللعبة الذي فلت منه حسن وأصبح على أرض الترانزيت هو المكان الذي بقت فيه عائلته، زوجته وشقيقه وطفلاه.. إذن كل ما نشاهده على المسرح هو في الوقت الضائع لأن الصيد أصبح خارج الشباك، وعملية الضغط على العائلة في بلد آخر، لا تعطي النتيجة المطلوبة، لكن تنفيذ الاخراج بدأ منذ اليوم الأول من مغادرة حسن أرض مطار كاراكاس.

ابتدأ المشهد بعملية سطو منظم لكوماندوز على منزل حسن المؤجر من قبل السفارة العراقية، حيث ظهرت الصحف في اليوم التالي بعناوين كبيرة ورئيسية على الصفحات الأول وسطها صورة لعائلة صدام يتوسطهم صدام ومن بينهم «حسين كامل» الذي كان قد استدرج واقتيد الى بغداد بنفس الفترة وتمت تصفيته، وكانت العناوين تشير الى أن الكوماندز جاؤوا مرسلين من القبضة الحديدية لصدام للنيل من الهارب حسن قبل أن يتمكن من الافلات منهم. كانت العملية مرعبة بالنسبة للعائلة ولم يتم إخبار الأطفال بها. وكان الصديق أحمد يطمئن عبير وعمر شقيق حسن الى أن الأمر هو عبارة عن ضغط نفسي، ويبدو إن أحد رجال المخابرات قد حضر من بغداد بذات الوقت، فقد تلقت عبير وهي في وضع نفسي صعب مكالمة هاتفية من شخص قال لها إن أسمه محمود، ولديه رسالة لها من بغداد ويطلب مقابلتها في أحد الأمكنة العامة، قال صديقنا لعبير:

اذهبي وقابليه ولا تخافي فسأرسل بعض جماعتي لمراقبتك من بعيد، ورافقها للمقابلة عمر شقيق حسن. كان اللقاء قصيراً، أخبر هذا الشخص عبير بأنه مرسل من جهة صاحبة قرار في بغداد، وإنهم يعتزون بحسن ولا يريدون التفريط فيه، وطلب منها معرفة جهة سفره.

– نا لا أعلم الى أين سافر لقد تركنا هنا وقال: سأبعث وراءكم فيما بعد –على أية حال سلمينه عليه.

كانت عبير مذعورة بعد هذا اللقاء البوليسي المرعب المبّطن بتهديد واضح، ولكن ماذا سيفعلون؟ إنهم خارج البلد. وبعد عدة أيام وصلها الخبر المفرح بوصول حسن للمدينة الآمنة طرابلس. فطلبت عبير من الصديق أحمد استئذانه للذهاب الى الشقة لقضاء بعض الاحتياجات ومحاولة تصفية الأمتعة الشخصية التي لا يحتاجونها إذا ما تهيأوا للحاق بحسن. لم تدع عبير لهذه الظروف ان تؤثر على مسيرة دراسة ولديهما ومواظبتهما على الدوام، رغم الأسئلة الملحة من البنت، وهي ذكية جداً وكان عمرها ستة عشرة عاماً، وكانت تشعر إن هناك شيئاً سيحصل يغيّر مسار حياتهم، لكنها لم تكن تستوعب لماذا قرر أبوها الرحيل أو الهرب، ومغادرة هذه الحياة الهانئة بالنسبة

اليها ولأخيها، والذهاب الى المجهول في بلد عربي لا يعرفان عنه شيئاً، مع إنهم فارقوا بغداد الجميلة الرائعة، وجاؤوا الى بلد آخر يبدو أكثر مدنية لقربه من أمريكا مركز المدنية العالمية، أما عمر شقيق حسن، فقد تراجعت أحلامه بإمكانية أن يستقر في هذا البلد اللاتيني بعد قرار حسن هذا، وأخذت اهتماماته تدور حول البقاء الى جانب عبير وولديها لحين موعد سفرهم الى طرابلس بمساعدة الصديق الوفي والمخلص..

كانت شقة حسن واسعة وقد ملأها بالأثاث الفاخر، الذي أصبح ثقلاً على عبير، كيف تتخلص منه، فأشارت الى صديقة لبنانية مقربة لها بشرائه مقابل مبلغ بسيط. كما أحيطت الشقة وهي في أحد الطوابق العلوية بنوع من الحماية للأبواب الحديدية خصوصاً في هذا البلد الذي تكثر فيها جرائم السرقات، وتنتشر العصابات في كل زاوية من العاصمة، كان حسن يشّبه الشقة «بصندوق خزنة للأموال» من شدة تحصيناتها مما يجعل الأمان متحققاً داخلها.

فوجئت عبير وشقيق حسن حيث كانا جالسان في صالة الشقة بفتح الأبواب بطريقة بوليسية، وداهم شخصان الشقة وهما يخفيان وجهيهما بجاروب قطني، وهجم كل واحد منهما على كل من عبير وعمر وبسرعة خاطفة ربطا أيديهما الى الخلف ووضعا شريطاً لاصقاً على فم عمر، أما عبير التي سقطت على الأرض وهي تعاني من مرض القلب، فقد فكا وثاقها بسرعة، وطلبا منها عدم الصراخ وفتشا المكان بسرعة، أخذا حزمة الدولارات التي كانت في المحفظة الصغيرة لعمر شقيق حسن، وخاطب أحدهما عبير: نحن نعلم بأية مدرسة إبنك وابنتك فلدينا صاحبنا الثالث ينتظرهما في باب المدرسة وسيخطفهما إن لم تعطنا كل ما عندك. وأن تعلمينا بجهة فرار زوجك. ومن دون شعور سارعت الى حقيبتها المحفوظة في خزانة الملابس، ورمتها بوجههما:

- خذوا هذا كل ما أملكه، دون أن تتعرضا بمكروه لولداي، اما حسن فلا أعلم الى أين ذهب. غادرا الشقة بسرعة خاطفة بعد أن أغلقاها وأخذا المفاتيح التي كانت موجودة على الطاولة وتركا الشقة، وسارعت عبير للاتصال بالصديق أحمد واخباره ما جرى، وإن الشقة مقفلة عليهما، فبادر للاتصال بإحدى الشركات المتخصصة بالأقفال الذين جاؤوا وفتحوا الشقة، وكان الولدان قد عادا بعد أن لم يتمكنا من الوصول الى الشقة حيث علم حارس العمارة بما حصل ووجهما للذهاب الى بيت صديقهما أحمد..

كان هذا التوقيت مريباً، وكأن الأمور تجري وفق تخطيط مبرمج لا تعرف عبير مصدره، حتى الصديق أحمد احتار في دوافعه وتشابك أحداثه.

انتظار في طرابلس.

شعر حسن باطمئنان جزئي بعد وصوله طرابلس، ذلك لأنه يعرف هذا البلد العربي، ومدى اختراقه من أجهزة مخابرات عدة في مقدمتها العراقية، فسفير بلده هنا هو ضابط مخابرات انتدب لهذا العمل ليؤدي دوره المخابراتي، فأين سيكون حسن من ذلك، وكيف سيخفي نفسه عنه. على أية حال ليس هذا هو وقت التفكير بافتراضات لامكان لها في هذه اللحظات التي ينتظر فيها وصول زوجته وأولاده وشقيقه، بعد أن استقر في سكن مناسب قالوا له إنه مؤقت لحين وصول العائلة. شعر حسن بأن القيم الأصيلة ما زالت حية في نفوس كثر. فمجيئه هنا لم يكن لغاية مخابراتية إن صح التعبير فقد قابله مسؤول المخابرات بعد ترحيبه به:

- إنك هنا في بلدك وعليك اختيار مسار وجودك.. نحن مستعدين لتسهيل كل أوضاعك ما عدا النشاط السياسي المعادي لبلدك، لأننا نتضامن مع شعب العراق المحاصر والذي تشن ضده حرب تقودها أمريكا ليس لانهاء رأس الحكم ولكن لتهديم البلد.

كانت الأيام القليلة التي انتظر فيها العائلة صعبة على حسن، فهو يعرف مدى خطورة بقائهم هناك رغم الرعاية الأصيلة التي يقدمها لهم صديقه أحمد.

أبلغ حسن بموعد وصول الباخرة من مالطا وعلى متنها عائلته،.

كان الوقت صباحاً، والشمس تمنح هذا النهار جمالاً حيث السماء الزرقاء الصافية والناس البسطاء الذين لم تلطخهم بعد مظاهر الحضارة الجديدة يعتزون بنسب صفة البداوة الى أنفسهم، توجه نحو الميناء ومعه أحد رجال الأمن في سيارة، وسيارة ثانية خلفهما لنقل الحقائب. لم يتمالك حسن نفسه ولم يتمكن من حبس دموعه وهو يشاهد إبنته أمل تنطلق نحوه من عنق الباخرة حاملة حقيبة صغيرة:

بابا.. بابا.. احتظنها وهو يتطلع الى عبير وهي تمسك بيد وليد وخلفهما عمر شقيق حسن، طبع قبلة على جبين عبير التي بدا وجهها متعباً، رغم محاولتها إخفاء ذلك بالمكياج الذي دائماً ما تستخدمه عند الضرورة، فجمالها أنصع وأرق من ذلك الطلاء، واحتضن البطل الصغير الصامت وليد.

- أين نحن بابا.
- نحن في بلد إسمه ليبيا.

وبطريقته الساخرة المنسجمة مع صغر عمره:

لوبيا!!

- اسكت لا تفضحنا.

ذهب الجميع الى مقر الاقامة في الشقة المؤقتة التي خصصت لهم،

هم الآن الى جانبك يا حسن، ها هي عبير والتي أرهقتها الرحلة، كانت صامتة، وعمرشقيق حسن يبتسم ابتسامة المنتصر على الموت، وأطلق ضحكة ما زالت تعبر عن خوف رهيب يخنق صدره من تلك العملية الخسيسة التي كادت تنهي حياتهم جميعاً على يد تلك العصابة المجرمة المدفوعة من أجهزة مخابرات ممن يريدون الانتقام منه لعدم الطاعة. كان وليد ينازع أمل على احتلال حضن والدهما، كان فرحهم ليس له حدود، مع إنهم لم يتلمسوا بعد الفوارق الكبيرة بين

حياتهم بالأمس واليوم من حيث السكن والرفاه.. فلقد ترك أبوهما كل مظاهر الجاه من أجل مواقفه المبدئية، هكذا هي المبادئ لا تتجزأ.

جلست عبير الى جانب حسن بعد أن ذهب شقيقه عمر الى غرفته، فالشقة كبيرة وفيها ثلاث غرف نوم، ومجهزة بجميع وسائل الراحة:

- كيف سارت الأمور معك؟
- لا بأس المهم وصلنا الى أرض توفر لنا الأمان، ولو بصورة مؤقتة لحين ما يفرجها الله، ولكن علينا أن نكون حذرين هنا فنحن تحت رعاية أمنية من الحكومة وهذا يعني إن حركاتنا مراقبة، وسنكون مقيدين في علاقاتنا، وهذا ماأوصاني به الأخوان، ولكن تعلمين يا عبير إن هذا البلد ليس هو المستقر لحياتنا وحياة أطفالنا، فأنا سبق وأن اشتغلت فيه قبل سنوات.
- بالنسبة لي هذا البلد يوالمني كثيراً، طبعاً أنت لا، لا مراقص ولا شرب للكحول ولا حياة مفتوحة مثل التي عشتها لسبع سنين، ليك الآن أن تدفع الثمن.

لم يعلق شيئاً لأنه يعلم مدى الجهد الذي أصابها والتعب الذي عاشته في ذلك البلد فنزويلا.

بطن الحوت.

لم يفكر حسن يوماً إنه سيعود الى هذه البقعة من الأرض بعد أن هجرها منذ عدة سنوات، كان قراره قبل هجرته لها إنه لن يعود إليها يوماً، مع إن شعبها يتمتع بتلك الطيبة العربية الأصيلة، فقد كانت بالنسبة اليه في تلك الأيام كسحب سوداء داكنة لا تحمل المطر، لا شيئ ينبض بالحياة، ولأنه يحب أن يبصم شيئاً على لوحة حياته، لكن الرتابة القاتلة كانت تعصره بقوة، ونافذته الوحيدة كانت عمله وبعض الأصدقاء المقيمين من أهل وطنه، وبعض الزائرين من العرب..

ويكتب له القدر عودة إجبارية أخرى فرضتها الظروف التي أحاطت به، وكانت هذه البقعة من الأرض هي التي احتظنته بأخوة لا حدود لها، وبعد أن إنغلقت الأبواب أمامه حينما أراد أن تكون الأبواب نظيفة وغير ملطخة بالعار والخيانة، لم يكن أمامه سوى ذلك الفم الذي انفتح ليقوده الى بطن الحوت، ولا يعرف الى متى ستدوم إقامته داخل هذه البطن، فقد أصبح الزمن بالنسبة اليه زمناً آخر لا تحسبه الدقائق والساعات والأيام، ولا يعرف كيف تشرق الشمس وتغرب، فما يحيطه سواد قاتم، ليس أمامه سوى تلّمس وجوه ولديه وزوجته ليبعثوا في نفسه الطأنينة ومواصل الطريق، وشقيقه الذي أقحمته الظروف في وضع لم يكن يخطط له، لكنه أصبح ظرف الأمر الواقع. على حسن أن يفكر ويتعاطى بنمط جديد لم يعتاده خلال السنوات القليلة الماضية، إنه لا يستطيع أن يفرح أو تبعث الأشياء من حوله على الفرح، ما عدا عائلته الصغيرة من حوله، أو أن يحزن حينما تستدعي دواعي الحزن ذلك، فالفرح والحزن هنا لهما قوانينهما الخاصة، نعم قد يستطيع حسن أن يضمر داخل نفسه جميع دواعي الألم والحزن، وزوجته قد تتمكن من ذلك، ولكن كيف لهذين الطيرين الجميلين وما زال لحمهما طرياً أن يتمكنا من ذلك، كان همّه وهمّ زوجته كيف يساعدان أبنيهما على معايشة هذا العالم الجديد في ظروف غاية بالقساوة.

يتذكر حسن أقوال الحكماء إن الانسان حين يستقبل الموت ينتابه شعور خاص لا شبيه له، لكنهم لم يتمكوا من وصف شعور من يرقد داخل بطن الحوت.

فكر حسن بعد أن استيقظ وتناول طعام الفطور أن يلامس أطراف المحيط حوله، دون أن يسمح لقطرة من هذا المحيط أن تخترق روحه وتسممها. لا بدّ إذن أن يبني جداراً قوياً يحميه، وأن يبقي تعامله بالاشياء من أغطيتها الخارجية، لتظل روحه قوية صامده، الطبيعة لها قانونها الخاص،السماء، الأرض، الأشجار، الهواء. البحر ذلك المارد الذي يكتنز الأسرار، حيث يقف أمام هالته العشاق متعبّدين صامتين منصتين الى تراتيله السرمدية، يستسلم هنا للحزن الذي يأكل من جرفه كل يوم عمراً ليس له حساب في مواقيت الزمن الردئ. والأرض هنا فقدت عطرها الأزلي الذي يمنح البشر قوة لا حدود لها على مقاومة العواصف، ولم تعد تتعامل مع جذور الأشجار بتلك الألفة والحب الذي يمنح الأغصان والأوراق خضرة ساحرة، هذه الأشجار فقدت سحر بريقها وتدلت أعناقها حزينة نحو الأرض. والهواء، هذه الطاقة الأزلية التي تمنح الكائنات قدرة الحياة بلا مقابل ودون ضجيج، يمرّ اليوم واجماً كئيباً يقول لكل الأحياء: ها أنا ذا أمنحكم قدرة الحياة، لكنكم ميتون فاقدون لكل معنى من معانيها، والسماء بزرقتها النقية الصافية، وقمرها الذي يغازل الجميع كل ليلة، ويودعهم وداع العاشق الذي سيعود، وشمسها التي تمنح الكون حرارتها البكر وطاقتها اللامحدودة، هذه الغيوم التي تغسل البشر من ذنوبهم وخطاياهم، تمر الآن ودموعها محبوسة في أعماقها.

وأمام ذلك كله ماذا على حسن أن يفعل.. هل لديه القدرة على مقاومة هذا المحيط المظلم من حوله.. هل يتمكن من فتح ثغرة في هذا الجدار السميك يطلّ من خلالها الى عالمه الواسع الفسيح،

أم عليه الاستسلام لهذا القانون المريب..

يولد الانسان هنا ليموت في لحظة ولادته.. ومنذ أن يعي ما حوله يفكر بالموت الذي يشكل قاموس التعامل مع الحياة، ويحاول إضفاء مفاهيم روحية مقدسة على مسألة الموت وعشقه للحياة الآخرى لكي يبرر لنفسه تعاطيه مع هذه الفكرة، قد تتولد طاقة طبيعية داخل نفس حسن تمنحه قدرة المقاومة لهذا التيار الجارف، تنتابه بين وقت وآخر، لكنها سرعان ما تنحسر بسبب هيمنة القانون الكبير الذي يطّوق الجميع.

العواطف والمشاعرنائمة تحت الأرض تغطيها أكوام من الزمن العتيق والقاسي، وإن نبتت يوما زهرة توعد بالربيع فسرعان ما تكتسحها الريح.

إنها مغامرة كبرى أن يحب رجل إمرأة أو أن تحبه هي، فعليهما أن يتحملان قساوة الجراح وتشظي روحيهما.. لكن إن قاوم الرجل محنته بالصمت أو التلاشي، فإن المرأة هنا عندما تحب تكون قاسية على المحيط وعلى من تحب، وقد تصل درجة أن تقتل حبيبها الغادر..

كثيرة هي الأغطية التي تحمي حباً قاسياً قساوة الرمال الحارقة في الصحراء الكبرى على الأرض الليبية.

مقاومة من نوع خاص.

حاول حسن تشكيل مفردات لبناءعلاقاته مع هذا العالم الجديد، كانت محاولاته صعبة وشاقة، كان عليه ابقاء ذلك الجدار السميك بين روحه وكيانه وبين هذا المحيط القاهر، حتى الموسيقى، تلك التراتيل الروحانية التي تشعرك بأنك على قيد الحياة وبأمان، صعبة المنال، قد يجد من المناسب التعرف على أصدقاء يلتقي بهم بعد إتقانه الاختيار لكي لا يُحبط فيصاب بالانهيار، وهذا ما يخشاه. قد تكون النخبة التي يحاول جس نبض بعضاً منها قد وصلت الى قاع بطن الحوت، ومع ذلك يحاول في سعيه هذا أن يتنفس ولو قليلاً من الهواء يعينه للزمن المفروض عليه وعلى عائلته، وقبل أن يتخذ قراره هذا كان عليه البحث عن حل لولده وليد وابنته أمل، لقد استغل شغف وليد باللهو على الألعاب فأهداه جهاز (نينتيدو) يسافر من خلاله الى عالمه الواسع، أما أبنته الصبية إبنة السادسة عشرة فكانت تشغل فكره كثيراً، فقد أمسكت بأبواب الحياة المتدفقة بالربيع والحلم وهي في سن المراهقة، وهو يعلم إنه من الصعوبة أن يجد لها حلا، وهي تعلم إن اختراق جدار بطن الحوت أمر صعب، لكنها لم تستسلم وظلت تضرب بكلتا يديها الطرتين هذا الجدار السميك الذي لم يهتز أبداً. وهكذا اعتادت على الصراخ يوميا والطرق بيديها، لكن دون جدوى لعل أمها تمتص تلك المعاناة لتضاف الى معاناة مرضها، لم يكن أمام عبير زوجته سوى انتظار ما ستصل اليه مغامرة حسن الجنونية الجديدة، لكنها استسلمت لقدر الله الذي يفعل ما لايستطيع فعله البشر.

استغل حسن زيارة مجموعة من الاصدقاء لداره وهم من عائلة صديقه المخلص أحمد، وبينهم إبنته التي تكبر إبنته أمل بأربع سنوات، فرحت ابنة حسن بهذا اللقاء حيث دعتها لاصطحابها هي وأمها الى مزرعتهم، وقد شعر حسن بتعابير وجهها التي تبدلت بعض الشيئ وفرح كثيراً، وقد أعدت زوجته لهم عشاء عراقيا لذيذاً حسب اعترافهم. كانت الأحاديث التي جمعتهم عامة ومختلفة، ثم التفت حسن الى أحد الزائرين الذي كان متميزأ عنهم في أحاديثه عن الجميع، سعيد ذي الثمانية والعشرين عاماً:

- هل ممكن أن نلتقي لوحدنا غداً أنا وأنت في مقهى قريب من سكننا.
- بكل سرور واتفقا على اللقاء في المقهى في اليوم التالي.

جلس الاثنان ومعهما عمرشقيق حسن، وكانت طبعاً للرجال فقط.

- ماذا تحب أن تشرب يا استاذ حسن.
- ليس عندكم غير القهوة والشاهي.
- إذن قهوة، فبادر حسن سعيد بالسؤال الذي بدا مفاجأ له.
- أنت يا سعيد شاب وتعمل طبيباً، كيف تنظر للحياة؟

صعق سعيد لسؤال حسن الخطير الذي لم يواجهه منذ أن وعى للحياة.

- لا أدري مثلما تراها أمامك، ونحن نعيش في فلكها.
- ألم توجه مثل هذا السؤال داخل نفسك، وأنت متعلمّ.
- كلا لأنها مغامرة كبيرة، ولا أريد المخاطرة بها.

أصبح وجه سعيد كالليمونة المعصورة واختفت منه تلك الابتسامة الميتة التي كان يوزعها ليلة أمس في دار حسن، لم يحاول حسن إحراج سعيد بهذا النوع من الأسئلة، مع إنه تشجع لأنه وجد

فيه شخصاً متميزاً عن الحاضرين في تلك الجلسة. المهم وجد حسن أن يجعل من سعيد صديقاً يؤانسه.

ثم بادره حسن بسؤال آخر كمن يريد ان ينتزع من رأسه شيئاً يبحث عنه:

- ألا تمتلك قلباً يخفق في صدرك؟
- ولم لا، إنه القلب الذي يخفق بشيئ عظيم تسمونه الحب، وتقولون ان لا حياة بلا حب، لكننا هنا نعيش معادلة أخرى تقول: يمكن للانسان العيش من دون حب، سوى حب والديه وأخوانه، اعذرني يا استاذ حسن، فالاغلال هنا ضخمة وكبيرة، ونحن ستسلمون لها، وقد هجرنا المقاومة والتمرد لأننا نعرف إن لا فائدة مرجوة منها.

انهالت الدموع على وجنتي سعيد وهو يطلق هذه الكلمات، شعر حسن بانتصار كبير في تلك اللحظة كونه تمكن الدخول الى أعماق سعيد وان يمسك رأس الخيط في حياكة علاقة متينة به تكون ملاذاً له في الأيام المقبلة الصعبة التي ستواجهه.

- سعيد انت تعرف وأنت الطبيب بأن الانسان يمتلك طاقة هائلة ليست طاقة الحركة والحياة، وليست هي آلاف الكيلومترات التي يقطعها الدم يوميا عبر شرايين جسم الانسان، إنها قوة مخزونة في عقله وروحه، وان الاطباء والعلماء غير قادرين على معرفة حدودها، وكل انسان لوحده قادر على تفجيرها في لحظة من اللحظات.
- لكنها ماساة درامية كبرى يا صديقي حسن.

حرص عمر شقيق حسن على الاستماع والاستمتاع فقط بهذه المحاورة الجدلية التي ودّع مشاكساتها منذ أن كان طالباً بالكلية في بغداد، وهو الآن يحاول تلمس موقع لقدميه في هذه البقعة الجديدة التي أختارها شقيقه، وليس أمامه الا مساعدته على اتمام جزء من صفحات هذه المغامرة السياسية غير الأمينة في مواجهة اخطر جهاز مخابرات عربي هو جهاز صدام.

وجد حسن ضرورة الانصراف واستأذن من سعيد ووعده للقاء آخر في الأيام المقبلة.

أين المستقبل؟

عاد حسن مع شقيقه عمر الى البيت ووجد إن عبير قد أعدت لهما عشاء فاخراً، وتناولا الطعام وعلق عمر:

- ما ألذ طهوك يا عبير، أين تعلمت فنون الطبخ؟
- من نفسي وتجاربي ومن الطباخات اللائي اشتغلن في بيتنا السابق. لماذا تريد يا عمر أن تذّكرنا بأيام السعد والرفاه، لقد ودعناها بسبب عقل أخيك ومغامراته.

شعر عمر بأن عليه الاتصال ببغداد لطمأنة الأهل مع إنه كان خائفاً من تبعات هذه المحادثة التلفونية على أشقائه في بغداد، لكنه وان لم يبح بهذا الأمر لحسن علم حين كان في كاراكاس بأن والدهما مريض جداً، وكان قد ترجى من عمر أن يسمع صوت حسن، استفسر من عبير، فقالت له يوجد تلفون بالصالة مربوط بسنترال خاضع لمراقبة الحكومة يمكن اعطائهم الرقم وهم يؤمنون لك الاتصال. انتظر لدقائق رن حينها جرس الهاتف، لحظات تبدّل فيها وجه عمر، وارتعشت يداه، وكانت عبير دائماً ما تطلق على عمر باللهجة العامية (الرعاش) لكثرة انفعالاته، لكن الأمر ببدو كان جدياً لم يتمالك عمر أعصابه، لكنه ضبط مخارج صوته:

- البقاء بحياتك يا حسن والدنا توفي!!
- ماذا؟
- منذ أسبوع.

اخذ الجميع بالنحيب، وقام حسن بتهدئة شقيقه عمر وزوجته التي كانت تحمل من الوفاء والمحبة للعائلة درجة كبيرة، ماذا يفعلان؟ كانت صدمة كبيرة، أن يتوفى والدهما ولا يستطيعان حضور جنازته أو مجلس العزاء له.

في الصباح الباكر رن جرس الشقة وكان على الباب رجل كانت عبير قد تعرفت عليه حين كان يؤمّن لهم بعض احتياجات البيت، وطلبت منه الدخول:

- السلام عليكم.. البقاء بحياتكم وانقل لكم تعازي جميع المسؤولين بوفاة والدكم رحمه الله، نحن نأسف لعدم امكانية اقامة مجلس فاتحة للظرف الاستثنائي الذي تمرون فيه. ويبدو انهم قد علموا الخبر من مراقبتهم للمكالمة.

علمت عائلة صديقه أحمد بالخبر فحضروا للتعزية، كانت الشقة واسعة لدرجة أن ينفصل الرجال عن النسوة في الجلوس، وهكذا عادة التقاليد المحافظة.

مرت أيام حزينة ذات ايقاع رتيب، حتى الشمس الساطعة تمتزج أشعتها بالغبار الذي هب على طرابلس تلك الأيام رغم الجو البارد. وكان على حسن مراعاة وضع طفليه، والعمل على تسجيلهما في المدرسة الانكليزية الوحيدة والتي يدخلها أبناء العاملين في شركات النفط الأجنبية وأولاد السلك الدبلوماسي، أخبره السؤولون إنه تم استكمال الأوراق وسينظما للدراسة الأسبوع المقبل.

حاول حسن أن يخرج مع طفليه قليلاً، إلا أن أمل رفضت بشدة الخروج قالت لأبيها:

- أنا سأبقى مع ماما، وليخرج وليد معك وكذلك عمو عمر.

خرج الثلاثة الى ساحل البحر المجاور للبناية التي يسكنون فيها. كان الحزن يخيم عليهم، لكن حسن حاول مداعبة وليد لكي يبعد هذه الحالة الكئيبة، كان الطقس شديد البرودة مصحوباً بريح حادة.

- كيف تشعر وليد بهذا البرد القارص؟
- لا أشعر بالبرد، ما فائدة هذا الشحم، وأشار الى جسمه الضخم. دائماً تقول لي ماما أن أنحف، هل رأيت بابا كيف يقيني هذا الجسم من البرد.

كانت هذه المداعبة مدخلاً مريحاً، فتوجه وليد بالسؤال نحو عمه عمر:

- عمو لماذا لا يوجد عندكم في بغداد بحر؟
- لدينا نهر دجلة هو أجمل من بحار العالم كلها وتنتصب عليه الجسور بينما في البحر لا توجد جسور، وماء النهر حلو لكن ماء البحر مالح.
- وهل هناك سمك القرش؟
- كلا يوجد سمك صغير الحجم ألا تتذكر حينما كنت إبن أربع سنوات وذهبنا جميعاً في سفرة الى النهر في مدينة سامراء وكدت تغرق، وشوينا السمك «المسكوف».
- كانت أمل تريد إغراقي في النهر لأنها تغار مني.

فرد والده عليه:

- كانت تلعب معك ولا تريد اغراقك، وقبل أن يستكمل كلامه توجه وليد الى أبيه بالسؤال:
- بابا.. هل يوجد حوت في هذا البحر؟

انتبه حسن لهذا السؤال المفاجئ.

- نعم الحيتان تقطن في البحار، لكنها لا تعيش في السواحل، تحاول الذهاب الى الأعماق، لأنها تحب الأعماق، ولا أعلم إذا كانت موجودة هنا في هذا البحر، ولكن

بجميع الأحوال ليست على السواحل.

- أنا أعرف الحوت وشكله في التلفزيون، وأعرف إنه لا يعيش على الأرض.

حاول حسن الابتعاد عن هذه المناقشة، فبادر عمر في سؤال إبن أخيه:

- هل تفكر بايجاد أصدقاء هنا؟
- نعم يعجبني ذلك وقد يتكلمون اللغة العربية
- أعتقد هناك أجانب وعرب في هذه المدرسة، وهي مختلطة وستكون أمل الى جانبك بنفس المدرسة.
- لكننا كنا في مدرسة حلوة لماذا بابا جاء بنا الى هنا؟
- ليس هو بإرادته لكن الظروف هي التي قادتكم الى هذا المكان.

رفع وليد رأسه الى السماء ونادى بأعلى صوته:

- انظرا الى هذا الشكل المتحرك في هذه السماء، ما هذا يا بابا؟

كانت الطيور تتخذ أشكال دوائر ومربعات في قلب السماء الزرقاء تتغير ألوانها من الأسود الى الرمادي حسب انعكاس أشعة الشمس.

- إنها جميلة يا وليد أنظر.

وجد حسن وشقيقه عمر بأن وليد بدت عليه علامات الانشراح.

بدأ الظلام يخيم على ساحل البحر بسكون موحش، حيث أخذت أعداد المارة تتلاشى ما عدا أصوات السيارات التي تمر على هذا الطرق مسرعة. تحدث حسن عن والده الراحل كيف كان شجاعاً بين أبناء مدينته، وكان يردد دائماً المثل الشعبي «الحصان ما يعيره جلاله» كتعبير عن إن الفقر والحاجة لا تقلل من القيم العالية للانسان ولكرامته، قرروا العودة الى البيت. لم يسع عمر لفتح أية نقاشات مع شقيقه في هذه اللحظات الحرجة، فلتلك المواضيع أوقات أخرى.

هواجس مؤلمة.

أصرت عائلة أحمد صديق حسن على دعوتهم للمزرعة، فاستجابوا لهذه الدعوة وقرروا الذهاب، وكانت المناسبة مفرحة حيث جاء أحمد من فنزويلا لزيارة عائلته، كان بيت احمد بسيطاً وريفياً يعكس مواصفات أحمد المتواضعة لكنه بيت جميل وكبير يضم عائلة أحمد الكبيرة وسط مساحة واسعة من البساتين، يتوسطه طريق داخلي يحزم مساحة المزرعة التي تبلغ عشرين فداناً. كان هذا الطريق هو مسار للأحصنة التي يهتم بتربيتها أحمد وأولاده. وكانت الفرس (حسنة) التي يعتز بها قد فازت بسباق الركض قبل ثلاثة أشهر.

- جئتم لأرضكم وبلادكم الثانية، وحتما ستكون مريحة للسيدة عبير، مع إن حسن قد خلّف وراءه أناس ينحبون على فراقه.

كان وقع هذه الكلمات التي أطلقها أحمد مصحوبة بضحكة عالية مريحاً على نفس عبير.

طلب إبن أحمد من أمل أن تمتطي مهرة جميلة، كانت خائفة لكنها خضعت لالحاح الجميع.

أصر الصديق أحمد على أن ينظموا نهاية كل أسبوع زيارة لهم في هذا المكان ووعدوه بذلك.

قضى الجميع ساعات مريحة، مع إن الحزن كان يقبض نفسيّ حسن وعمر لفقدانهما الوالد.

لم تتمكن تلك الساعات أن تخمد مسحة الحزن التي كان ظاهرة على وجه إبنته أمل دون غيرها من الجميع، أمها الصابرة الصامتة، شقيقها وليد الذي كان همه الألعاب، وعمر الذي دخل في حقل من الألغام لم يكن يتوقعها. كان يحلم بالحرية في تلك البلاد البعيدة وذلك العالم اللامتناهي، لكنه يصدم بهذا الواقع الحزين المؤلم. لقد اختفت تلك الضحكات الطفولية من وجه أمل حين كانت تعود من المدرسة الأمريكية التي كانت تدرس فيها هي وشقيقها في كاراكاس، ولديها شلّة من الصديقات والاصدقاء المنتمين الى عوائل مرموقة، ينضمون في نهاية كل أسبوع فعالية من فعاليات اللهو البريئ، يستمعون الى الموسيقى وتناول الساندويشات الخفيفة، أو مشاهدة الأفلام، أما اليوم فقد نسيت إن هناك موسيقى.

- ألست مشتاقة الى عالمك المدرسي يا أمل؟ يمكنك أن تحققيه بعد أيام حين تباشرين الدراسة في هذه المدرسة.

- لماذا تسألني بابا هذا السؤال، أنت تعرف بأنك المسؤول عن دخولنا في هذا الدهليز المظلم.

كانت أمها تقاطعها بين الحين والآخر لتهدئتها، لكن أمل تواصل صبّ غضبها على والدها:

- أخطاؤك، كنت تفكر بنفسك فقط، لم تضع بحسابك إن لديك أولاد وزوجة، والمستقبل كان بين يديك لماذا فعلت ذلك؟

- أرجوكي إبنتي لا توخزين خاصرتي بسكين، فالظروف أكبر مني، كان لي موقف سياسي قد لا تدركين أبعاده وأنت في هذا العمر، لا تتصوري بأنني لم أفكر بكما، كنت أعلم أنكما ستدخلان طريقاً وعراً في الحياة، لكنكما ستحملان شرف قيم والدكما، فلو تحولتُ الى جاسوس للأجنبي، فسيظل هذا العار لصيقاً بكما وبأخوتي وعائلتي مدى العمر. الحياة ليست مفروشة بالورود دائماً، هذه تجربة وأنا لا أتخلى عنكما، قد تكون هناك صعوبات في الظروف المحيطة، لكن الحياة تستمر، والفرج بيد الله، وستتعلمان كيف تمسكان الطريق نحو المستقبل بقوة.

- وأين هو المستقبل؟

- الحياة ليست أبواب مقفلة يا أبنتي.
- لا أرى ذلك.
- أنتِ على خطأ، وأنتِ في بداية الطريق، الأمل شيئ مهم، لا حياة بلا أمل.

نظرت أمل الى والدها واغرورقت عيناها بالدموع ورمت برأسها على صدره.

- بابا أنت تعلم كم أنا احبك، لكنني يائسة.
- عمرك ستة عشرة سنة يجب ألا تدعي اليأس يدخل الى نفسك، تصوري حالك داخل غرفة بجدرانها الأربع وبابها المغلوق، وليست هناك سوى نافذة صغيرة مفتوحه، لا بدّ ان تتنفسي الهواء من خلالها.
- وأي هواء، إنها ريح صفراء مسمومة، لا أريد أن أتسمم بهذه الريح والأفضل لي أن اغلق هذه النافذة وأتنفس هواء الأربع جدران.
- إنه خطأ كبير أرجو ألا تقعي فيه

وجدت عبير بهذا الحوار الحاد بين إبنتها ووالدها مناسبة لكي تخرج من داخلها لحظات التأزم التي عاشتها خلال هذا الشهر الذي إنقضى على وصولهم هنا.

انتظم أمل ووليد في مدرستهما وكانا يذهبان ويعودان معية السائق الذي خصص لحمايتهما، كان ذلك مبعثا للطمأنينة لقلب الصابرة والدتهما التي ما زالت صرخات تهديد ذلك اللص الذي هدد باختطافهما حين اجتياحه البيت في كاراكاس ترن في صوتها. لهذا فلم تعد تطمئن الى حال الطفلين، خصوصاً إن وسائل الحماية في هذا البلد ضعيفة وسط انتشار كبير للمقيمين من العراقيين وغير العراقيين فلا تأشيرة دخول تطلب لمن يطأ أرض ليبيا، لكنها تتذكر الوعد الذي قطعه حسن للسلطات الليبية بالامتثال الى رجائهم بعدم النشاط السياسي العلني ضد نظام صدام.

مرت الأيام ثقيلة على حسن، فهو ممنوع من النشاط السياسي خصوصاً بسبب الوضع الأمني العام. وقيل له بأن بامكانه التدريس في إحدى الجامعات باختصاصه التعليمي، لكنه اعتذرعن ذلك.

بدأ الضجر والكآبة تدبان في نفس عمر شقيق حسن بعد شهرين من إقامتهم بهذا البلد، لم يجد خلالها عمر أية مناسبة أو ضرورة للبقاء معهم، كما لا توجد هنا أية فرصة عمل له، إنه خريج أكاديمية الفنون وبمرتبة عالية، طلب منه أحد أصدقاء حسن أن يشتغل هنا في مجال التدريس، ويستطيع أن يجلب زوجته، لكنه لم يقتنع بإمكانية إقامته في هذا الجو الخانق، إنه متمرد رافض حتى للحياة في بغداد فكيف سيمكنه المعيشة هنا.

خرج حسن وعمر يتمشيان على رصيف البحر المجاور لبيتهم، وهو المتنفس الوحيد، سأل عمر أخاه:

- هل تحتاجني للبقاء الى جنبك أكثر أم تسمح لي بالعودة؟

نظر حسن الى وجه عمر وتطلع فيه وامتلأت عيناه بالدموع:

- يا عمر أنا فقدت بلدي، ولا أريدك أنت أن تفقده مثلي، أنت تقدّر بأنني لن أتمكن المكوث هنا، وسأبحث في شتى السبل للخروج من بطن الحوت، صحيح إن خياراتي محدودة بعد الموقف الذي وضعت نفسي فيه، فالمعارضات اليوم تحت ظل مخابرات الدول وفي مقدمتها أمريكا وبريطانيا، وأنا أشعر بصعوبة ظروفي بعد موقفي الرافض للتعاون مع المخابرات الأمريكية، وأقدّر لصديقي أحمد هذا اموقف العروبي الأصيل في تسهيله مهمة ضيافتي في بلده. وهنا الوضع كما تشاهده، أرجع الى الوطن ولنر ما سيكتب الله لنا.

كان وقع هذه الكلمات شديداً على نفس عمر، واحتظنه بقوة الى صدره وهو يجهش بالبكاء:

- ليكن الله معك ياأخي.

طلب حسن في اليوم الثاني من الجهات المسؤولة عن اقامتهم ترتيب سفر شقيقه عبر الطريق البري الى العراق.

كان فراق عمر مؤلماً على نفس حسن، فقد كان يخفف عنه معاناته في بعض الأحيان. لقد ودّع عمر أبناء أخيه، كما ودع عبير التي لم تتحمل البكاء واكتفت باحتضانه:

- لقد حملناك الكثير، إرجع الى أرضنا وأهلنا.. لإنها ستكون الأفضل من هذه الحالة التي تراها.

الضغوط تكبر.

تمرّ الأيام كئيبة حزينة، فعبير لا تستطيع الاتصال بأهلها خوفاً عليهم من بطش المخابرات، وهم لا يتحملون هذا الوزر الكبير، فهم بعيدون عن السياسية، أولادهم منشغلون في تأمين المعيشة، لقد كانت تضحيات عبير أكبر مما تتحمل صحتها وقلبها الموجع، كما إن أشقاء حسن قد أُتخذت بحقهم اجراءات الابعاد عن وظائفهم، بنقلهم الى دوائر غير حساسة و وتستخدم معهم بين فترة وأخرى أساليب الترغيب والترهيب. تم استدعاء عمر بعد عودته مباشرة، وأجريت التحقيقات اللازمة بحقه، كانوا يريدون معرفة ما يفعله حسن في ليبيا وهل لديه اتصالات مريبة، خصوصاً بعد التقارير التي كان يبعثها وكيل المخابرات في طرابلس السفير العراقي الى المركز باستمرار، وقد أستخدم في بعض المرات أولاده وهم زملاء لوليد وأمل في الضغط عليهما، وأسماعهما كلمات مثل: أبوكما خائن، الى غير ذلك، كان هدف السلطة هناك استرداد حسن الى بغداد، لكنه كان واعياً من الوقوع في شراكهم. في صباح أحد الأيام استيقظت عبير وهي تعاني من آلام في صدرها وضيق في التنفس، وفوراً إتصل بالسائق المكلف لمساعدتهم وطلب منه نقلها الى المستشفى، كانت حالتها صعبة، ومع إن تلك المستشفى هي أفضل ما عندهم لكنها كانت تفتقر الى المستلزمات الطبية الخاصة بالقلب. كان وجه عبير شاحباً بعد غيبوبة قصيرة أثر حقنها بحقنة خاصة لتخفيف ضغط الدم، فتحت عبير عينيها نحو حسن:

- أرجوك لا تخبر وليد وأمل واذهب أنت الى البيت لاستقبالهما.
- سنخرج بعد قليل أنا وأنت إنشاء تحسنت صحتك وقال الطبيب أن بامكانك الخروج الى البيت.

لم تفكر عبير بصحتها بقدر حرصها واطمئنانها الى الطفلين

لم يتمكن حسن من الانسجام مع الوضع الصعب في حياته هنا، رغم الرعاية من أصدقائه وعائلة أحمد، ومحاولتهم حثه على التأقلم، لكنه وجد أن لا أفق في حل لأوضاع بلده العراق، هناك اصرار وعناد وسيطرة أوهام القوة لدى رأس النظام بأنه سيهزم أمريكا، رغم إن قواتها سحقت الجيش العراقي في يناير 1991 وطوقت بلاده بحصار قاتل. كل يوم تسير الأمور من سوء الى أسوأ، معارضة الخارج تأخذ أشكال الرعايات المخابراتية. إيران كانت لها حصة السياسيين الاسلاميين الشيعة، ودمشق عندها البعثيين المنشقين والقوميين، والسعودية رعت قطاعا مهما من بعض قادة الحزب والجيش والدولة من بين الذين فروا من بغداد، لكن تلك الحصة التي كانت السعودية تأمل باستيلائها على الحكم انقسم قادتها، لأسباب لا مجال لذكرها، وأصبحت الكتلة السياسية التي عنوانها «الوفاق» كتلتان إحداهما «الوفاق» والثانية «الوفاق الديمقراطي». الأولى تحولت الى

CIA. والثانية ظلت تعيش أيامها الأخيرة على فتات المساعدات الشحيحة من السعودية، أما القيادة الكردية التي هيمنت على منطقة كردستان بعد انسحاب الحكومة المركزية منها، فقد كان غالبية المعارضين على أرض كردستان من أصدقاء جلال الطالباني وحلفائه من الشيوعيين والديمقراطيين.في لندن اشتغل احمد الجلبي برعاية ودعم من المخابرات الأمريكية المركزية على قيام تحالف ما بين الأكراد والشيعة المدعومين من طهران، تحت عنوان «المؤتمر الوطني» وكان مشروعه المخابراتي قيام حركة انقلاب عسكري على يد بعض العسكريين الفارين من الجيش والموجودين في شمال العراق وبدعم واسناد الولايات المتحدة الامريكية، لكن هذه المحاولة فشلت، وتم اجتياح الجيش العراقي للمنطقة بتحالف من قبل قيادة مسعود البارزاني، وهروب فلول جماعة الجلبي. الذي انتقل للعمل المعارضي في لندن، وتحول مصدر الرعاية من يد CIA الى البنتاغون ومجموعة اللوبي اليهودي المتطرف الذين يمتلكون مشروعاً شموليا لتحويل المنطقة الى ما سمي لاحقا بالفوضى الخلاقة يكون قاعدتها العراق. والذي تطور الى استخراج قرار من الكونغرس الأمريكي سمي «بقانون تحرير العراق». وهكذا سحب الملف العراقي من السعودية، بمعنى تراجع وانسحاب التوجهات الليبرالية العروبية لصالح دعوى التقسيم الاثني والعرقي، وتنشيط ودعم التحالف الكردي الشيع. وعدم فسح المجال لأي من المعارضين من خارج الكاتونة الشيعية الكردية للمساهمة في إدارة النشاطات المعارضية في الخارج. والحاق أفراد موالين لأي من طرفي التحالف الاستراتيجي هذا، رغم كل ما يظهر على المسرح السياسي للمعارضة من تشكيل لزعامات ذات توجهات عامة، ودور غير رئيسي لكتلة أياد علاوي المسنودة من CIA لكنه دور مشارك.

هذا التطور في الملف العراقي جعل من الدوائر الأمريكية، تبحث وبوقت مبكر لتحقيق خيارين لانهاء حكم نظام صدام: الأول – خيار الانقلاب العسكري الذي تبته CIA واعتمد على نشاط أياد علاوي وصلاته بمجموعات داخل مؤسستي الجيش وحزب البعث، والثاني خيار الاجتياح العسكري الذي تقوده مؤسسة البنتاغون، وأوكل لأحمد الجلبي لتنفيذ صفحة المعارضة فيه، وهو دور اعلامي تعبوي قبل وبعد الاجتياح. لقد اشتغل الجلبي على استقطاب بعض الأسماء من أركان النظام كالسفراء أو العاملين المهمين في السفارات العراقية الذين قدموا استقالاتهم وهربوا وسفروا الى لندن برعاية المخابرات الأمريكية ودعمها بمساعدة المخابرات البريطانية، ليتحولوا كجزء من النشاط الدعائي للمرحلة المقبلة من مشروع الاجتياح. لقد تسلم حسن فاكسات كثيرة من المؤتمر الوطني حينما كان في مقر عمله بكاراكاس تحثه على الانشقاق وتقول له بأن لديهم معلومات عن خلافه مع نظام بغداد. قبل أيام وصلته رسالة شفوية من حميد زعيم المعارضة في لندن تدعوه للانضمام اليهم.وهم لا يستطيعون اخراجه من ليبيا، عليه ان يحاول ذلك من جانبه وبعدها ستكون الأمور سهلة.

إذن مرة أخرى تداعيات وتبعات الموقف تضغط على رأس حسن بعد قطعه الصلة بالوظيفة الرسمية، هل تعود فكرة إرجوحة الخيار ما بين الانضمام لمعارضة تقودها المخابرات الأمريكية، أو البقاء هنا في طرابلس للمحافظة على ما أقنع حسن نفسه به في تعلقه بالانتماء الوطني وهو يعيش الآن وضعاً شاقاً.

تمكن أحد أصدقاء شقيقه عمر الاتصال بحسن لايصال رسالة شفوية اليه، ويبدو ان عمر أرشده للطريقة الصحيحة للوصول اليه عن طريق مدرسة أبناء حسن حيث تمكن من إعطاء رقم هاتفه، فاتصل به حسن في اليوم التالي وتواعدا للقاء في أحد الفنادق المطلة على البحر.

- كيف حال عمر والأخوة هناك.

كان السؤال السريع والأول الذي توجه به الى خالد القادم من بغداد.

- جيدون ولكن الاستدعاءات المتواصة لمقر المخابرات أزعجتهم كثيراً، خصوصاً ألحوا على عمر كثيراً لمعرفة التفصيلات عن وضعك وأين تسكن الى غير ذلك، ووالدتك صحتها جيدة، قال لي: هناك كلام كثير حولك في بغداد بأنك هربت الى أمريكا، وليس صحيحا انك بقيت في طرابلس، بعد أن اقنعك الأمريكان للعمل معهم.

- معلوماتهم دقيقة للغاية أنت تشاهدني أمامك، ولو اخترت هذا الطريق السهل لما شاهدتني هنا، ولكن هذه معلومات وكيل المخابرات العراقية الذي أخذ يستخدم أساليب الضغط على أطفالي، وهم في بغداد يضغطون على أخوتي وعائلتي.

ودع حسن صديق أخيه على أن يلتقي به قريباً.

وداع مؤلم واتصالات غامضة.

وجد حسن إن بقاءه في ليبيا شبيه بوضعه تحت السجن فلا هو قادر على الحركة الطبيعية بين الناس ولا عائلته كذلك، كما إن رعاية عبير الصحية ضعيفة هنا، وأولاده يدرسون تحت ظروف قلقة جداً، هو يخاف على حياتهم من تهديدات ذراع المخابرات العراقية، إنه لا يتحمل صدمة جديدة، عليه التفكير جدياً بالخروج لوحده ومحاولة المغامرة بالدخول الى أي بلد أوربي آمن له ولعائلته. هذه الأفكار أخذ حسن يناقشها مع عبير:

- بالنسبة لي وللأطفال أعتقد لا مشكلة لدينا، ولكنك أنت تريد بلداً منفتحاً.
- ما يهمني الأمن وهو غير متحقق هنا.
- أعمل ما تريد وحاول الخروج، لكنك سمعت أكثر من مرة من الجماعة هنا إنهم لايريدونك أن تخرج من ليبيا، وتعلم إن جواز سفرك معهم.
- لدي جواز سفر آخر بنفس الاسم ولكن من دون وظيفة أحاول طلب تأشيرة مرور من سفارة أية دولة مجاورة (تونس، مالطا، مصر)، وأسافر الى كوبا حيث لا يشترطون تأشيرة الدخول على العراقيين.
- أفعل ما تراه.

حاول حسن جس نبض الجماعة في طرابلس لمساعدته على الخروج للمعالجة حسبما أخبرهم، وينوي الذهاب الى كوبا لوحده، وهذا ما يطمئنهم بأنه سيعود، ومع ذلك فإن الضيافة والكرم لا تقودان الى فرض مسارات حياة الضيف، نعم إنهم حريصون على خياراته السياسية الوطنية، لكن يبقى الخيار الأخير له. باءت جميع محاولاته للحصول على تأشيرة مرور من تونس أو مصر أو مالطا بالفشل، وكانت أبواب القنصليات تشير بمعرفة شخصيته الحقيقية، ووظيفته الديبلوماسية، وإنه هارب من النظام ومعارض له.

ثم تحصل المفاجأة، حين أخبره أحد أصدقائه والذي كان يعمل في فنزويلا وهو يعرف «ساندريلا» بأنها اتصلت به وأبلغته تحياتها الى حسن، وهي تريد اخباره بقدرتها على مساعدته في الحصول على تأشيرة دخول عن طريق مالطا، وما عليه سوى أيصال صورة جواز سفره اليها.

لم يكن وقع الخبر على نفس حسن مريحاً، فظروفه الآن لا تسمح بنوع من المغامرات الجديدة التي تصب في إيذاء العائلة وعبير بالذات، تردد قليلاً بنوع الجواب المناسب لصديقه، لكنه فكر بأنه لا يريد غلق هذه النافذة، فوعده بايصال صورة جواز سفره بعد يومين، ولم يشأ إخبار عبير بذلك خوفا على صحتها. قامت ساندريلا بالحصول على تأشيرة مرور لحسن من سلطات الجوازات المالطية مرورا الى كوبا المحطة النهائية قبل أن يتوقف في جزيرة (كوراساو) ليوم واحد.

كانت لحظات وداع حسن لعبير وطفليه قاسية وحزينة، عبير الصامتة الصابرة لم تعلق على لحظات الوداع سوى همهمتها بكلمات اختلطت بزفرات بكاء:

- الله يكون معك ويوفقك لما تريده.

لم يتمالك حسن بحبس دموعه واحتضانه لطيريه الجميلين، ابنته أمل قالت له:

- مرة أخرى تودعنا وتسافر لوحدك ونحن لا نعرف ماذا نفعل؟ أما وليد المنهمك بالالعاب:
- ستجلب لي لعبة playstation؟
- بكل تأكيد.

شعر حسن في لحظات الوداع هذه إنه دخل في دهليز ساخن، وإن رأسه أصبح ثقيلاً لدرجة إنه تمالك نفسه من السقوط، لماذا يختار حسن طريق البحث عن مكان آمن لوحده؟ لماذا لا تصطحبه عائلته؟ كان صوتاً هادئاً ينبعث من روحه يقول: لكي لا تحملهم المشاق والصعاب، فأنت تبحث لهم عن مكان آمن..

كان في وداعه على بوابة الباخرة في ميناء طرابلس إبن صديقه أحمد الذي طمأنه الى أن عائلته هي في أمان ورعاية ولا يقلق عليهم لأنهم بين أهلهم، الى جانبه كان صديقه الذي أوصل اليه رسالة ساندريلا.،كانت أختام الخروج على جواز حسن الجديد يشير الى (خروج وعودة) للعمل، وهذا ما يبيح له العودة السهلة الى طرابلس، أما جوازه الديبلوماسي فقد ظل لدى سلطات المخابرات الليبية دون تفسير عن السبب، وقد يكون لضمان استمرار رعاية وضيافة عائلته.

شقت الباخرة عباب البحر المتوسط، كانت الشمس ساطعة والنسيم العذب يعانق بعض الستائر والاعلام المتدلية على جوانب الباخرة الصغيرة التي ستقطع مسافة ثلاث ساعات للوصول الى جزيرة مالطا. تطلع حسن الى معالم طرابلس حيث تحتضن أحبائه، وأخذت تتلاشى شيئاً فشيئاً وتنغمر في أفق البحر الأزرق.

إنها رحلة المجهول مجدداً، صحيح إنه مسافرالى كوبا، ولكن ماذا هناك، هذا البلد الفقير الذي يعتلي سلطته حاكم شبيه بالحاكم في العراق، متمسك بشيوعيته رغم تفكك الاتحاد السوفييتي، وعدو لأمريكا التي تحاصره منذ أربعين عاماً. وتعود الأسئلة مجدداً:

لماذا تقوم ساندريلا بهذه الخطوة من أجله، وهو الذي انقطع عنها منذ أكثر من سبعة شهور، ولم يعد يفكر فيها، فهي جزء من مرحلة وجد حسن نفسه قد تجاوزها، وكيف حصلت على معلومات وضعه، وإنه غير مرتاح باقامته، إنها أسئلة غامضة لأجوبة مفقودة، قد تبددها ما سيحصل عليه من أخبار عنها في الأيام المقبلة.

أخذت ملامح الجزيرة الفضية مالطا تلوح وترتفع علاماتها وسط امتداد الأفق البحري الأزرق الهادئ. إنه يحمل رقم التأشيرة في ورقة صغيرة دسها اليه صديقه قبل مغادرته المرفأ الليبي، وهكذا أخذت أصوات الأمواج تمتزج بالحركة الانسيابية للباخرة الليبية التي سلّمت عنقها الى مدخل المرفأ المخصص لها على ساحل جزيرة مالطا الساحرة. وانفتحت البوابة الكبيرة وانسابت العوامات التي تربط جسم السفينة بالساحل. خرج حسن وهو يسحب حقيبته وسط جموع المسافرين حيث ينتظرهم المستقبلون بعد حاجز حديدي لسلطات الميناء، سلّم حسن جواز سفره والورقة التي تحمل رقم السماح وبطاقة سفره التي تشير الى رحلته بعد خمس ساعات الى جزيرة (كوراساو) في الكاريبي. وقام ضابط الجوازات بختم جوازه بسرعة لم يكن يتوقعها. وخرج حسن الى بهو فسيح للمستقبلين، لم يكن يتوقع ما حدث له، ركضت ساندريلا نحوه وعانقته مهنئة له بسلامة الوصول.

- انها مفاجأة.. اليس كذلك؟
- تعال تعال إنها ليست مفاجأة المهم إنك تخرج من بطن الحوت كما تسميها أنت.

واصطحبته الى أحد المطاعم القريبة، كانت تسحب حقيبتها وهو كذلك.

- علينا قضاء الساعات الأربعة المقبلة قبل الذهاب الى المطار ثم الى هافانا، المحطة المقبلة الى أسوار الحرية.

يبدو إن كلّ شيئ معدّ من قبلها، بدأ يستوعب تدريجياً معالم خطتها، فستصطحبه برحلته الى هافانا، هذا ما يتوقعه، أم إنها ستتوقف في محطة كاراكاس وتودعه في مطارها، لا يعلم.

اختارت أحد المطاعم الذي يقدم السمك على شواطئ هذه الجزيرة الفضية التي جعلها القذافي وكأنها إحدى محافظات ليبيا، فهي المنفذ لبلده بعد اغلاق مطار طرابلس وتطويقه بالحصار.

جلس الاثنان:

- ماذا وكيف..؟ عرفت كل هذه التفصيلات، هل تشتغلين بأحدى المخابرات الأجنبية لتعقبي؟
- كلا عن طريق صديقنا المشترك إبن احمد. ثم إني ذهبت في رحلة عمل الى لندن، وسمعت أخباراً مشوشة عنك فسألت عن شخص اسمه «حميد» والتقيته سألته عنك، قال إنك في طرابلس وانهم يسعون لمساعدته للوصول الى لندن، وطلب مني إخبارك عند مغادرتك طرابلس.
- ومن قال لك بأنني أريد الاتصال، بهذه المجموعات؟
- المهم أنت تخرج من هناك الى عالم الحرية الواسع، فحين قررتَ ترك نظامك هذا لا يعني إنك تدخل في قبو آخر يقتل تطلعاتك وأمانيك التي أعرفها عنك كانسان تريد الحرية والديمقراطية لشعبكم.
- لكننا لا نريد استبدال الدكتاتورية بالتجسس وتخريب القيم.
- على كل حال حسن أنا سأرافقك اذا لم يكن لديك مانع لرحلتك الى هافانا.

صمت قليلاً، وماذا يستطيع أن يفعل، لم يكن أمامه الرفض، هي مغامرة ليدخلها، ويرى ماذا بعد.

- طيب رفقة موفقة.

تناولا السمك وسألته عن عبير والطفلين. ثم تحدثت عن الحياة في بلدها فنزويلا، وعن عائلتها.

استأذن حسن لكي يجري اتصالا هاتفياً بعائلته وليخبر عير بأنه بخير، أجرى الاتصال الهاتفي وعاد الى جلستهما.

ثم استقلا الطائرة المتوجهة الى جزيرة (كوراساو).

حطت الطائرة في حزيرة من جزر الكاريبي الوادعة الهادئة. فعلى هذه الجزر المبثوثة كالنجوم على سطح الكاريبي تعيش أجناس مختلفة قذفتها الظروف والمنافي وبقايا تاريخ اندثر، لإمبراطوريات كبرت وتقاسمت هذه الجزر ثم شاخت وماتت، أبرز امبراطوريتين هما بريطانيا وهولندا، فقسم منها ما زال يخضع لتاج الملكة البريطانية رغم استقلالها الشكلي، والأخرى تخضع لادارة هولندا. جزيرة «كوراساو» من القسم الهولندي، وشعبها يتمتع بثقافة هولندية، مع إنها تميل للحياة الأمريكية الأقرب جغرافياً. ما تفاجأ به حسن إن الدخول الى هذه الجزيرة لا يحتاج الى تأشيرة، مع إنه عاش الى جانبها في كاراكاس لسنوات، لأنه لم يكن يفكر في الهجرة واللجوء، وتخيّل في تلك اللحظة إن العراقيين بهذا الخبر لتوافدوا اليها، رغم إن من يريد الاقامة للعمل عليه الايفاء بشروطها.لم يكن حسن يتوقع أن تقذف به أولى خطوات رحلة المنفى الى هذه البلاد التي لا تستطيع أن تقدم له ولعائلته حلاً بالاقامة والاستقرار لحين ساعة الفرج. قد تفكر ساندريلا بأوهام داخل نفسها لكي تجعل حسن الى جانبها، لكن هذا الموضوع محسوم من جانبه.

الفندق الذي أقام به حسن مع ساندريلا جميل جداً على ساحل الجزيرة التي تتمتع بجو معتدل طوال أيام السنة لكونها تقع على خط الاستواء.في النهار لا يوجد شيئ متميز فالناس القادمون من أمريكا أو أوربا يستمتعون بالشمس سواء على المنصة الطويلة الممتدة داخل البحر أو على المسبح

المفتوح داخل الفندق. موعد العشاء هو المناسبة اليومية للاحتفال على أنغام الموسيقى والرقص اللاتيني بمختلف أشكاله من البرازيل وحتى كوبا. كان عليهما الانتظار ليومين لمجيئ الطائرة الكوبية التي ستقلهما من كوراساو الى هافانا وتتوقف لساعة في مطار كاراكاس لتأخذ المسافرين وهم العدد الأكبر. جلسا قليلاً في بهو الفندق المفتوح الى الشرفةالأرضية المطلة على البحر، رن جرس الهاتف القريب منهما على مكتب للعلاقات العامة في الفندق، ثم سمعا الموظف ينادي بإسم (ساندريلا) تفاجأ حسن بذلك. مَن الذي يتصل بها في هذه الساعة لا بدّ أن يكون شخص يعرف موعد وصولهما الى هنا، سمعها تتكلم معه باللغة الانكليزية التي تتقنها:

- لحظة من فضلك ها هو حسن.
- مَن؟
- إنه حميد يريد التحدث معك، لم يتمكن حسن من التعليق على هذه المفاجأة قبل أن يرد على المكالمة.
- أهلاً بك حسن والحمد لله على السلامة، نحن تتبعنا خروجك من طرابلس، وإذا أحببت سنعلن بإسمنا خروجك.
- أرجوك لا، لأن عائلتي هناك وأخاف عليهم من حصول أي مكروه.
- على أية حال حينما تصل هافانا اتصل بي على هذا الرقم، وأملى عليه رقم هاتف مكتبه في لندن، وسيجيبك مدير مكتبي لمتابعة تفاصيل الموضوع.
- مع السلامة.
- مع السلامة.

وعاد حسن الى الطاولة غاضباً، وقبل ان يتحدث بشيئ:

- أنا آسفة حسن ولكن حميد قد عرف مني تفاصيل رحلتنا وتوقفنا هنا وهو الذي طلب مني أن يكون اتصاله بك مفاجأة لك؟
- أية مفاجأة يا ساندريلا، لو كنت أريد الذهاب معهم لما أضطررت لكل هذه المتاعب.
- أنا أريد لك الخير وها هي فرصة جديدة لكي تذهب الى لندن.
- سيكون ما يكتبه الله لي ولعائلتي.

وقعت الكلمة الأخيرة على مسامع ساندريلا كأنها الصخر، لأن أحلامها شيئ وما يفكر به حسن شيئاً آخر. لم يجد في هذا الوقت ما يدعوه للاصطدام بها، هو في ظرف صعب ويحتاج الى من يقدم له المساعدة، إذن عليه مواصلة ما تقدمه الأيام من حل!!

لم يشعر حسن بمتعة المكان، حيث البشر هنا يستغلون كل دقيقة من أجل الفرح واللهو، شمس الكاريبي تبعث بسحرها الى الساحل الذهبي لهذه الجزيرة، أما هو فالساعات والأيام تعصر روحه ولا يحس بالجمال من حوله. إنها محطات يريدها أن تكون سريعة من أجل الهدف الذي رحل من أجله الى هذه المنطقة من العالم، والتي غادرها قبل عام، وهو في طريقه الى بلد لا يختلف عن نظام بلده، لكن ميزته إنه يسمح للعراقيين بالدخول من دون تأشيرة. مهما كانت صبغته وتوجهاته أليس أفضل من الأنظمة العربية التي تمنع دخول العراقيين الى أراضيها، كأنهم مصابون: «بالجرب» أو «الأيدز» بلده استقبل قبل عشر سنوات ستة ملايين مصري يعملون من دون تأشيرة دخول، وهو الدبيلوماسي العراقي طلب تأشيرة مرور منعتها عنه حكومة ذلك البلد خشية من غضب صدام.

كان حسن يأمل أن تودعه ساندريلا عند أرض بلدها حين تحط الطائرة في مطار كاراكاس، ويودعها شاكراً جميلها، لكنها أخبرته بأنها سترافقه الى هافانا لحين انجلاء موقفه النهائي، وهي مستعدة لمساعدته مهما كلف الأمر.

ماذا يفعل؟ هل يطردها؟ فكّر بقصة ترتيب سندريلا لجواز سفر فنزويلي له حسب اقتراحها، وعرض عليها فكرة أن تنزل في مطار كاراكاس ثم يواصل هو السفر الى هافانا وينتظرها هناك. وافقت على الفكرة، وودعته في ترانزيت مطار كاراكاس. شعر حسن بالانعتاق لأنه وحده وتمنى لو كان قادراً على ترتيب خطته لوحده من دون أن يصبح مخططه أسير هذه اللاتينية، وهو لا يمكن أن يكون انانياً رغم محنته، لكن لم يوعدها بشئ، هي تعرف التزامه العائلي. حطت الطائرة في مطار هافانا، وعلى الرغم من معرفته القديمة بهذه الجزيرة الحمراء التي تقع في خاصرة العملاق الكبير لكنه لم يزرها إلا مرة واحدة. كان يعلم بأن الانسان هنا يقاوم ويناضل من أجل لقمة الخبز، وإن الناس كل الناس هنا يحلمون، بعضهم يحلم بالسفر خارج كوبا للعمل لكنه لا يسنطيع تحقيق ذلك إلا بواسطة الحكومة. حسن يعلم أن لا أحد هنا في هافانا ينتظره، وعليه ترتيب أمره بنفسه.

سأله ضابط الجوازات إن كان يحمل عنواناً سيسكن فيه فندقاً أو دار سكن مؤجرة، فرّد بالنفي، ولكنه أبدى استعداده لتسجيل عنوان أي فندق، فردّ عليه الضابط بأن شرط الحجز أن يكون قبل يومين من الوصول. كان على حسن الخروج من هذا المأزق وكيف إن ساندريلا لم تخبره بذلك أو إنها كانت تعلم لكنها أرادت أن تثبت له حاجته اليها برفقته بهذه الرحلة الطويلة.

- هل يوجد أحد بانتظارك؟
- كلا.
- اذن عليك الانتظار لحين استكمال اجراءات جميع المسافرين على هذه الرحلة.

نظر حسن في وجوه الحاضرين من مسافرين أو مستقبلين، فلمحت عيناه وجه فتاة سمراء كانت واقفة لوحدها، فنظر اليها بعينين تسترجيان شيئاً، فتقدمت نحوه:

- هل تتكلم الاسبانية؟
- نعم.
- هل لديك مشكلة استطيع مساعدتك؟
- نعم، طلبوا مني إن كان لدي حجز في فندق.
- لا عليك، ثم ذهبت الى ضابط الجوازات وأعطته عنواناً وانتهت الاجراءات بسرعة وخرجا سوياً من بوابة المطار.
- أنا أشكرك جداً على هذه المساعدة.
- لم أفعل شيئاً كبيراً.
- عليّ توديعك سأستطيع تدبير أمري.

نظرت الفتاة اليه وهي تعلم إنه أراد عدم تحميلها ثقلاً جديداً وهي التي قدمت له هذه المساعدة دون أن تعرفه، فبادرته بالقول:

- ألا تعلم بأنني تركت لدى بوليس المطار عنواني؟
- هل تعطيني من فضلك هذا العنوان لكي أذهب اليه؟
- إنه عنوان بيتي.

فوجئ حسن بذلك، وبدا القلق على وجهه.

- لا تقلق، لقد كنت بانتظار صديقة لي في المطار، لكن يبدو إنها لم تصل، وبإمكانك أن تذهب معي الى البيت ثم بعد ذلك تدبّر أمر إقامتك في الفندق أو تستأجر داراً، أنا أعرف صديقة تمتلك داراً تؤجره للسياح، وسيكون أرخص عليك من الفندق.
- كيف لي أن أشكرك يا:
- لوجاني، وأنتَ؟
- حسن.
- اسم عربي.
- نعم، أنا من تلك البقعة من العالم، ومن بلاد وادي الرافدين..
- أنتم أصدقاء زعيمنا كاسترو صديق صدام..
- أرجوك أنا بعيد عن السياسية.
- هل جئت للسياحة؟
- نعم وللعلاج الطبيعي كذلك.

نظر اليها حسن وهي تقود سيارتها موديل (لادا الروسية القديمة) ولكنها بحال جيدة، فهنا في هذا البلد مضطرون لمداراة سياراتهم، كانت فتاة جميلة، ثم سرح في نظره الى الجانب الثاني من الطريق وتطلّع الى البنايات القديمة والمساحات الخضراء الواسعة، وكانت لوجاني تشرح له عن معالم المناطق التي تواجههما. واجه حسن ألفة سريعة وغريبة لهذه المدينة الدافئة، ومنذ اللحظات الأولى شعر وكأن هافانا عروساً جميلة ترتدي فستاناً قديماً ممزقاً، لكن هذا القميص لم يمنع تدفق سحرها وفتنتها وألفتها.

توقفت السيارة بهما عند باب دار جميلة في منطقة يبدو عليها إن سكانها متوسطي الحال، وأخرجا الحقائب، ثم دلفا الى مدخل الدار الذي يقود الى صالة تعلو جدرانها لوحات رائعة وصورة تجمعها مع زوجها السابق وابنتها حسبما أخبرته بعد ذلك.

- أتعلم لدي موسيقى عربية، فأنا أحبها، لدي شريط لمغني عراقي شاب أهدته لي صديقة من كندا يدعى الساهر.

كانت تلك الالتفاتة مفاجأة لحسن، فهذا المغني قد وصلت شهرته الى بيوت العالم بسرعة، أدارت لوجاني جهاز التسجيل فكانت أغنية «استعجلت الرحيل» لم يصدق حسن ذلك، يبدو إن للحياة نظام خاص تسير عليه، غير محسوس وغير مرئي، لكنه يفاجئ الناس العاديين بين حين وآخر، ويبدو مفاجأة.

- نعم إنني اعشق هذه الأغنية.
- لا أفهم كلماتها العربية، لكن موسيقاها رائعة.
- لقد عشت سنوات في فنزويلا وتنقلت في بعض بلدان أمريكا اللاتينية وأحب شعوبها التي تشبهنا كثيراً.
- إذن سأحضر لك قهوة لاتينية،لا بدّ إنك اشتقت اليها.
- شكراً هذا كرم منك.

وبعد أن قدّمت له القهوة بادرته بالقول:

- أقوم أتصل بصديقتي أسألها إن كان لديها مكان لتؤجره لك.

تلعثم حسن، وكاد أن يطلب منها أن تؤجر له غرفتها الثانية في بيتها. لكنه تراجع عن ذلك.
سمع حديثها مع صديقتها حول تأجير بيتها الصغير.

كان كل مظهر من مظاهر دارها واللمسات الفنية على جدرانه من لوحات راقية، يدل على أن لوجاني ذات مستوى ثقافي رفيع، لكن ذلك لم يمنع لمحات الحزن التي بدت على ملامح وجهها الأسمر، لكن الأنوثة تشع من هذا الوجه والجسم رغم إن عمرها يقارب الأربعين.

كانت هذه اللحظات بالنسبة لحسن ذات استفهامات كثيرة،لا يعرف كيف يستخرج كلمات الشكر للخدمة التي تقدمها له، وهو لا يريد الدخول في مغامرة جديدة تكلفه غالياً. جاء الى هنا لكي يستطلع الطريق الى موطن الحرية له ولعائلته، اذن عليه أن يكسبها كصديقة، وهي قد تفكر بذات الطريقة.

سمح تصرف الفتاة العفوي معه لروح التطفل أن تقفز الى رأسه فسألها:

- هل أنتِ متزوجة؟

- نعم، ولديً فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، وهذه صورتهما المعلقّة على الجدار امامك، إنفصلت عن زوجي منذ ستة أعوام، إبنتي سافرت الى اسبانيا للدراسة والعمل هناك وأنا هنا، كان لدي عمل في إحدى شركات السياحة لكنني اضطررت للسفر الى ابنتي والاقامة معها لشهرين لظروف خاصة مرت بها، فقدت عملي على اثرها. حياتي يحيطها الحزن والكآبة بسبب البطالة أحاول إيجاد عمل ولدي علاقات واسعة لكن فرصة العمل هنا صعبة للغاية مثلما تعرف. لقد ابتعدت شكوكه الصغيرة بأنها قد تريد تأجيره غرفة في بيتها، وهي عادة انتشرت خلال السنوات الأربع الأخيرة بعد سماح الحكومة بذلك الى جانب سماحها بتحويل بعض البيوت التراثية الى مطاعم تديرها العوائل ذاتها، حيث بادرت للقول مرة ثانية بأنها ستتصل بصديقتها ويمكنه تأجير بيتها إذا رغب بذلك.

أخذت الأفكار تتزاحم في رأس حسن، لماذا لا يؤجر الغرفة عندها، ولكن ماذا سيفعل مع ساندريلا التي حدثته عن تأجير دار لوحدهما.

- أنا متزوج ولدي طفلان فتاة في السابعة عشرة من عمرها وولد في الرابعة عشرة من عمره.. قصتي طويلة لا أريد إقحامك بتفصيلاتها ودروبها، جئت الى هنا للاستجمام والاستشفاء لعدة ايام بعد رحلة طويلة ما زلت أطوي صفحاتها بحثاً عن الحرية، فأنت تعلمين إن الانسان الباحث عن حريته قد تصيبه الكدمات والجروح، أو قد يفقد حياته، وأنا ما زلت أتشبث الامساك بحبل الحرية، لكنني معلّق بالهواء بين قمة جبل ووادي عميق لا أعرف ملامحه، أصارع بقوة، لدي أمل كبير بالوصول الى أرض تساعدني على نيل الحرية في وطني المكبل بالفردية.

- مفهوم الحرية بالنسبة لنا هنا مختلف، نحن لم نعد نشعر بالفردية والدكتاتورية والاستبداد، لأننا نواجه انتقاماً بشعاً وكريهاً من الولايات المتحدة الأمريكية التي عاقبت الشعب الكوبي لخمسين عاماً بفرضها الحصار لأن كوبا وقعت في معسكر مناهض لها هو الاتحاد السوفييتي، وكانت خنجراً في خاصرة الولايات المتحدة، والصواريخ السوفيتية في أرضنا كادت تحدث الحرب العالمية الثالثة، ورغم سقوط الاتحاد السوفييتي لكن العقوبات ما زالت مستمرة، مع إن الأمريكان يأتون الى هنا للاستمتاع بالطقس الجميل والفتيات السمراوات والسيكار الكوبي، هل يمكن أن تتصوّر هذه الازدواجية في المعايير؟ ولذلك نحن هنا لا نقاوم الرئيس الكوبي لأنه متضامن معنا لمواجهة الحاجة والفقر، ولا نكترث لما يفكر فيه وبزعامته.

كانت كلمات لوجينا قد هزّت مشاعر حسن الوطنية، وعززت مبادئه رغم معارضته لنظام صدام، وجد في حديث هذه الفتاة معيناً له على التشبث بمبادئه الأساسية، وإنها ليست غلطاً.

- لوجاني، أحتاج الى ترتيب موعد مع طبيب لإجراء فحوصات طبية.
- هنا الظروف صعبة للغاية خارج نطاق الحكومة الرسمي، سأساعدك، لدي طبيب صديق يمكنه تدبير الأمور، أولاً علينا الذهاب لترى البيت إن كان يعجبك أم لا لكي تسكن فيه، مكانها ليس بعيدا عني.

ذهبا بسرعة لمشاهدة البيت الذي أعجبه ووافق على تأجيره، البيت يحتوي على هاتف، أعطته صاحبة البيت رقمه ودفع لها الإيجار الشهري مقدماً. لم يكن أمامه إلا أن يتصل بزوجته في طرابلس ويعطيها رقم الهاتف، كما وجد إنه إن لم يعط الهاتف لساندريلا فإن ذلك يعني القرار الحاسم بعدم مواصلة رحلة الحرية، فقرر الاتصال بها واعطائها رقم هاتف المنزل. وصباح اليوم التالي كانت لوجينا على الهاتف:

- كيف قضيت ليلتك.
- جيدة.

شباك الصيد الممزقة.

في اليوم الثاني من الوصول اتصل حسن برقم الهاتف الذي اعطته إياه ساندريلا لمكتب حميد في لندن، أجاب على المكالمة بعد انتظار، مؤيد الذي رحب بحسن وطلب منه إرسال صورة جواز سفره بالفاكس الذي أعطاه رقمه، ووعده إنه خلال يومين أو ثلاثة سيتم إخباره عن تأشيرة الدخول الى لندن. بعد ساعتين أرسل صورة جواز السفر بعد أن اضطر للخروج الى الفندق حيث جهاز الفاكس متوفر هناك وباشراف من الجهات الرسمية الكوبية الخاصة، كان عليه الانتظار. لم يعط لهذه الخطوة آمالاً واسعة، لأنه الآن لجأ الى هذا الحل بعد أن أغلق الأبواب على نفسه. المهم إنه يشعر بنوع من الارتياح حيث إن عائلته في مكان الى حدما آمن.

الهاتف في البيت تدفع أجوره بواسطة كارت مدفوع الثمن مقدماً.

رن جرس الهاتف فوجئ حسن، مع إن المفاجآت لم تعد تثيره، فبعلاقة ساندريلا معه عليه أن يتوقع كل شيئ، كان المتحدث شخص عّرف بنفسه، فوجئ إنه أحد أقربائه الذي اشتغل في الخارجية ولم يكن يعلم إنه نقل لادارة الشؤون الادارية بالسفارة العراقية في هافانا، سلّم عليه، وطلب أن يراه في الفندق الرئيسي، التقيا، سأل حسن قريبه علي عن كيفية معرفته بقدومه الى هنا.

- هذا ليس غريباً على الحكومة التي تركتها يا إبن عمي، سيأتي أحد المبعوثين من بغداد الذي طلب تأمين لقاء معك وأرجوك ألا ترفض.
- كلا أنا بالخارج لماذا أرفض اللقاء لنرى ما عندهم!!
- يهمني أنت يا إبن عمي.
- انشاء الله يكون خير.

ودعه على أمل الاتصال به بعد مجيئ مندوب بغداد.

استقل حسن سيارة التاكسي التي ظل سائقها معه، في طريق عودته الى البيت، أخذت تتصاعد في رأسه لفافات هائلة من الدخان الأسود كادت تخنقه، حاول ربط الحوادث منذ خروجه من طرابلس إثر حصول ساندريلا على تأشيرة الدخول له، مروراً بالتوقف في جزيرة «كوراساو» واتصال زعيم المعارضة حميد به، ثم معرفة بغداد بمجيئه الى هافانا وتتبعه ومحاولة اللقاء به، الأمر الأخطر هو ظهور ساندريلا خلال السنة الأخيرة قبيل هروبه من وظيفته، مَنْ وظّفها لهذه المهمة؟ ولمصلحة من تعمل؟ لمخابرات بغداد، أم لأية مخابرات أجنبية؟ وماذا يريد الجميع من حسن؟

حاول الخروج من هذه الدوامة باتخاذ قرار طرد ساندريلا، وعودته الى طرابلس حيث يحتفظ ببطاقة سفر العودة، لكن الغطاء الذي قدمه في طرابلس بأنه مسافر من أجل العلاج قد ينكشف إن عاد سريعاً. كما إن خطوات ساندريلا لحد اللحظة هي لمصلحته، بادعائها إنها تحبه وتريد أن تكون الى جانبه.

لقد حسم وضعه، لكنه قلق على أشقائه وعائلته الكبيرة في العراق. ومع ذلك أراد حسن ومن باب حب المغامرة والاستطلاع معرفة ما يدور في ذهن صدام ومخابراته عن دوافع الاتصال به، ثم كيف علموا بمجيئه الى هافانا؟ كيف علمت المعارضة بخروجه من طرابلس وتوقفه في جزيرة «كوراساو».

وجد حسن نفسه محرجاً أأاامام زوجته ورفيقة عمره، ماذا يخبرها؟ وماذا ينتظر في هافانا؟ ولماذا ذهب الى هناك؟ هل طريق لندن يمر عبر هافانا؟؟

أجاب نفسه: وماذا تفعل يا حسن، لعل هذه المحطة تكون نقطة العبور الى لندن بعد الحصول عن طريق الجماعة على تأشيرة الدخول لنفسك ثم تلتحق العائلة بك. أما ساندريلا، فليست لديها مشكلة تذكر، فجواز سفرها يتيح لها الدخول الى لندن مثلاً من دون تأشيرة، هي صديقة جاءت لمساعدتك يا حسن.. عليك قبول هذه المساعدة.

اتصل بزوجته في طرابلس، واطمئن على صحتها وعلى الطفلين، وأخبرها إنه بانتظار انفراج الأمور.

بعد ثلاثة أيام من انتظار نتيجة تأشيرة الدخول الى لندن عن طريق الجماعة، عاود الاتصال بمدير مكتب حميد بلندن متسائلاً عن نتيجة الموضوع، لكنه فوجئ بأن لغة هذه الشخص المتحدث من هناك مختلفة، أمّله لبضعة أيام لأن حميد سافر الى واشنطن، وبعد عودته سيتصل به.

رن جرس هاتف الدار، فكان علي إبن عمه على الطرف الثاني من الخط، أخبره بأن الضيف من بغداد قد وصل ويرغب اللقاء به.

- طيب عصر اليوم نلتقي في «الفندق الوطني» بالعاصمة.

لم يشغل حسن فكره كثيراً بهذه المقابلة لكنه يتوقع إنهم سيطلبون منه العودة الى بغداد.

وهذا ما توقعه، فبعد أن رحب به الشاب القادم من هناك ونقل له تحيات بعض أصدقائه المقربين وكذلك رسالة خطية من شقيقه عمر فهم من خلال قراءة ما بين السطور: إن الجماعة يريدون استدراجك للعودة.

- بلدك يريدك يا حسن وما تقترحه من أفكار لمشاكل البلد يمكن أن يسمع هناك، ونحن نعرف إنك لا تبيع نفسك للآجنبي.

- من الذي يضمن إنكم ستعدلون سياستكم؟ هل ستطبقون الديمقراطية؟ وتطلقون قانوناً للأحزاب ودستوراً يستفتى عليه الشعب، وتحلون مجلس قيادة الثورة؟ هذه مقترحات قدمناها للمراجع الرسمية العليا لكن لم يكن هناك من يسمع، كما إنكم أصدرتم بحقي قرار الفصل ومصادرة الأموال المنقولة وغير المنقولة، وماذا أملك غير دار السكن الذي بنيته بشقاء عمري وخدمة خمس وعشرين عاماً بالوظيفة.

- سيلغى هذا القرار فور قبولك العودة الى الوطن.

- متى؟

- اليوم سأتصل ببغداد.

- طيب انتظر قراركم.

حاول حسن اللعب في الحوار لتمضية الوقت، فهو يعلم حقيقة القرار في بغداد، استدراج حسن لحبسه ثم قطع رقبته لأن خرج عن طاعة صدام، ولعبة القرارات المزيفة يعلمها حسن جيداً فبالإمكان تسليمه قرارات بالاعفاء لكنها غير حقيقية.

وعد حسن الضيف القادم من بغداد بأنه سيعود قريباً بعد تدبير وضع عائلته، وودعه، وخرج برفقة إبن عمه الذي شعر بأن حسن قد انتصر على اللعبة الخبيثة.

هافانا ولعبة الانتظار.

اتصل هاتفياً بساندريلا بكاراكاس، وأعطاها رقم هاتف الدار في هافانا والعنوان لكي تتمكن من الوصول اليه، بعد عودتها من كاراكاس.

تمر الأيام على حسن وهو في أقسى حالات الانتظار، انتظار قرار قبول دخوله الى لندن أم لا؟ أخذت الأفكار السوداوية تخيم عليه مجدداً، لكنه ماذا يفعل: هل كل من يعارض نظام بلده عليه أن يكون عميلاً، لماذا هكذا هي المعادلة في المعارضات الخارجية؟ وجد حسن إن عليه عدم انتظار فيزة الدخول وأن يخطط لطريق آخر.

فكر بأن يتصل بإبن عمه علي الذي يشتغل بالسفارة لعله يؤنسه في هذا الوقت العصيب، خابره واتفقا على موعد بذات الفندق، التقيا واقترح عليه الذهاب الى البحر، فهو لوحده أيضاً. جهزا حالهما واستقلا سيارته الديبلوماسية، لم يجد حسن غرابة في ذلك فقد كان ديبلوماسياً لحين هروبه.

انطلقا منذ الصباح الباكر الى مدينة «فاراديرو» الساحلية كانت جميلة جداً وساحل الرمال الذهبية والبشر المنتشرين كالفراشات على الساحل، والشمس تنساب بحرارة معتدلة، داعبه علي قائلاً.

- دعنا نتعرف على الفتاتين اللائي أمامنا لقضاء الوقت، وعليك استثمار لغتك الاسبانية التي تتقنها، وأنا لا أعرف شيئاً منها لعلك تساعدني في ذلك.
- ولا يهمك.

تقدما وسلما على الفتاتين اللتين رحبتا بهما.

- هل انتما سائحان.
- نعم.
- نحن من هذه المدينة فاراديرو، أنا اسمي سونيا وهذه صديقتي لونا.
- أنا حسن وهذا ابن عمي علي، مدينة فاراديرو رائعة، والأكثر جمالا وروعة بناتها.

طلبا من البائع المتجول على الساحل أربعة علب من البيرة المثلجة، وقدم علي لحسن عوداً من السيكار الكوبي، لقد كانت الاحاديث المتبادلة جميلة، فيها كالعادة تبادل المعلومات انشرح حسن خلالها. وفي نهاية الجلسة دعاهما حسن لاصطحابهما الى هافانا، وافقتا لكنهما طلبتا الذهاب الى بيتهما القريب لاستبدال ملابسهما.

- لا مانع.. يمكن أن تصطحبا معكما حقيبة ملابس صغيرة وتغيرانهما في بيتنا بهافانا.

كان كل شيئ سلس وبسيط. انطلقت بهم السيارة الى هافانا، وطلبتا سماع موسيقى، لكن علي لم تكن لديه الاشرطة وأدار المذياع الى إذاعة محلية اطلقت العنان لأغاني اسبانية جميلة، كان حسن يرددها مع الفتاتين فيما علي منشغل بالسياقة لأنه لا يتقن الاسبانية. كان الطريق تتخلله بعض المتعرجات وسط الغابات الاستوائية والاشجار الموردة، شعر حسن بشيئ من الحنين الى هذا المناخ الجميل والحياة البسيطة، توقفوا في إحدى المحطات المبثوثة على الطريق الى فاراديرو، مقهى صغيرة، مجموعة من كراسي الخيزران تتقدمها طبلات قديمة، والجالسون من أهالي كوبا ومن مختلف أجناس العالم السواح ومختلف الأعمار، يتبادلون الاحاديث والضحكات وتنتصب على الموائدة الخشبية قناني الشراب الكوبي «الروم» والباعة من الفتيان يحتضنون علب السيكار، لكنهم

حين يقتربون منك يسألونك إن كنت تريد شراء «السيكار الهافاني» المخفي في حقائبهم الصغيرة، فهم يبيعونه بأسعار رخيصة جداً أقل من السعر الرسمي بكثير. لم يتمالك حسن نفسه بشراء أربعة علب من السيكار.

- لماذا تشتري؟ أنا عندي عدة علب من النوع الفاخر الذي يرسل الى بغداد من مكتب كاسترو الى رئيسنا، ويقدمه لنا المراسون كهدايا
- ولم لا، نأخذ هذا وذاك.

واصلوا المسير لكي يستعدوا للخروج ليلاً فقد أخبرت إحدى الفتاتين بأن هناك حفلة للمطرب هوليو اجلاسيوس.

- أنا أعشقه، وهل نحتاج الى حجز مسبق؟
- لدي صديقة في مكتب بيع التذاكر.

وصلوا بيت حسن الذي طلب من الفتاتين أخذ راحتهما في استخدام الحمام والتحضير للسهرة، شعر حسن إن عليه الاتصال بعبير والاطمئنان عليهم.

سألته عن حاله ووضعه، أخبرها بأن الأمور ليست سهلة، وهناك صعوبات سيحاول تذليلها، لم تسأله عبير عن صديقته.

- أسأل الله أن يوفقك في مسعاك.
- الله يحفظك أنت وولدينا الحبيبين..

استأذن علي للذهاب الى بيته وتبديل ملابسه، ثم عاد سريعاً ومعه علبتي السيكار الخاص من النوع الذي يرسل الى صدام.

- علينا الاستمتاع ولو بدخان الزعماء.

وأطلق ضحكات سخرية عالية.

ذهب الاربعة الى قاعة الحفل الفني، واندست احدى الفتاتين بين أفواج الطابور وعادت بسرعة تعلو وجهها ابتسامة الانتصار.

- اعطني المبلغ لقد وجدت صديقتي.

وناولها حسن مبلغ البطاقات الأربعة.

كان «هوليو» رائعاً في أدائه ورهافة حسه وصوته الرومانسي العذب، تذكر حسن آخر حفلة له في كاراكاس حين ذهب وبرفقته عبير التي كانت تحب أغانيه، وتشبهه بالملحن العراقي الخالد طالب القرغولي خاصة حين كان يغني في جلساتنا الخاصة ببغداد أغنية «جذاب».

بعد انتهاء الحفلة الممتعة خرج الأربعة وأتفقوا على استكمال السهرة في أحد المطاعم التي تستمر مفتوحة حتى الصباح. وكان علي ابن عم حسن يعرف هذا المطعم، حيث تناولوا العشاء على أنغام الموسيقى ورقصات السانبا. بعد انتهاء العشاء شعر حسن بأن هذا اليوم كان مليئاً، فأشار الى علي بضرورة العودة الى بيته لأن الفتاتين تبدوان في الرغبة بالسهر حتى الصباح. وقبل وصولهم اقترح حسن على سونيا التي كانت تتحدث مع علي أن تبيت معه في بيته لأنه لا يمتلك فراشاً لأربعة، كان هذا الاقتراح مريحاً للاثنين وبعد وصولهم ودع علي حسن وصديقته لونا اللذين دخلا البيت.

- هل تزور هافانا لوحدك؟
- نعم جئت للعلاج الطبيعي هنا حيث أعاني من مشكلة في ظهري وصفوا لي بأن الأطباء هنا في هذا الاختصاص جيدين.

- أنا تخرجت من الجامعة في قسم الفنون المسرحية ولكن تعلم بأن البطالة هنا كبيرة وأعيش مع والداي، حيث والدي كان ضابطا كبيرا في الجيش وحالتنا جيدة وهو ينفق علي، وأنا بانتظار الدور للتعيين، أتعلم اللغةالانكليزية حيث أحاول العمل بإحدى المرافق السياحية، هي المجال الوحيد الذي يوفر فرص عمل مناسبة.
- أتمنى لك الخير.

كانت سونيا جميلة، سمراء البشرة نحو البياض المعجون بالدم اللاتيني، عمرها لا يتجاوز الثلاث والعشرين عاماً، رشيقة القوام متوسطة الطول ممتلئة الوركين وذات عينين واسعتين سوداويين.

- هل تنتمين الى سلالة عربية، فعيناك فيهما هذه المسحة الشرقية؟
- لا أدري ربما، عليك سؤال أمي إذا التقيتها.

انتقلت من الأريكة المقابلة وجلست الى جانبه، بعد أن استبدلت فستان السهرة بقميص نوم حريري وردي اللون انسدل على جسمها. اقتربت منه أكثر.

- وأنت؟
- أنا متزوج ولدي طفلان، عائلتي تعيش في ليبيا حيث نقيم، وأنا أمارس مهنة التعليم هناك.

لم يكن أمام حسن سوى أن يذهب بحقيقته بعيدا عن اسئلتها المحرجة.

- أتمنى أن تتوفر لي فرصة السفر الى أي من البلاد العربية خصوصاً ليبيا التي تربطها علاقات جيدة ببلدي كوبا.
- لكن الشغل لديهم يمر عبر اتفاقيات حكومية بالانتداب خصوصاً في مجال الصحة.
- هل تستطيع مساعدتي في ذلك؟

انشاء الله بعد عودتي اتكلم مع أصدقائي هناك، أعطيني المعلومات الشخصية وطرق الاتصال بك أو عائلتك.

طبعت سونيا قبله على خد حسن، شعر بحرارة شفتيها المشتعلتين، حيث نقلتاه الى عالم آخر..

استيقظ حسن على أنغام موسيقى هادئة وقبلة من سونيا:

- بونيس دياس، وتعني بالاسبانية (صباح الخير).
- بونيس دياس.

ويبدو إن حسن قد استيقظ متأخراً حيث تصرفت سونيا كصاحبة منزل، فأعدت الفطور على المائدة الصغيرة في صالة المنزل. وبعد استحمامه السريع جلس معها لتناول الافطار.

- هل ستبقى عدة أيام تتوفر فيها فرصة لقائنا مرة ثانية؟
- هل لديك تلفون؟
- نعم وناولته الرقم.
- أحاول الاتصال بك قبل سفري.

رن جرس الباب حيث قفزت سونيا الى الباب وكأنها تعيش في هذا البيت لسنوات. لا أعرف هذا البشر اللاتيني له خاصية فريدة في الألفة السريعة، وهذا لا يعني الجنس النسوي فقط.

- لونا حبيبتي، وتعانقت الصديقتان، دخل علي ملقياً التحية على ابن عمه حسن.
- كيف قضيت السهرة يا حسن؟
- جيدة، وأنت؟
- كذلك.
- الفطور جاهز تفضلا.
- ما هو مشروعك يا حسن؟
- نودعهما الى محطة الباصات التى تقلهما الى مدينتهما فاراديرو.
- ولكن لماذا يا حسن ما الذي يستعجلك؟ أنا وأنت لوحدنا، إلا إذا كانت صديقتك الفنزويلية قادمة!!
- أنت لا تعرف ما أعانيه يا علي مثلما تلاحظ أحاول أن أجد حلاً لموضوع استقراري في أي البلاد من هذا الكون بعد أن فقدت وطني..
- لندن.. يا أخي لندن محج المعارضين من كل انحاء العالم، بلد الرحمة، وأنت حائر.
- وكيف الوصول الى هناك، الطريق ليس سهلاً.

خرج الأربعة حيث محطة سيارات النقل كان وداعاً حاراً، ويبدو إن علي رتب مسألة التواصل مع صديقته لونا خصوصاً انه مقيم في هافانا.

عاد حسن وعلي حيث جلسا في إحدى المقاهي الشعبية في هافانا القديمة التي أحبها حسن، وراح يتطلع الى مبانيها القديمة، فردد بصوت عال:

هافانا.. عروس جميلة فاتنة ترتدي فستاناً ممزقاً.

- يعجبني الذهاب الى بيت همنغواي.
- لك ما تريد وكذلك الى متحف جيفارا.

كان بيت همنغواي المطل على المحيط هو نقطة للرومانسية والتجلي والخيال، كتب فيه همنغواي أجمل رواياته «الشيخ والبحر» مثّل همنغواي فيها معاناة الانسان واحباطاته، وقدرة تحمله على الأزمات بصمت.

وقف حسن أمام هذا البيت الصامد بوجه المحيط، كل حجر في بنيانه يتحدث عن تلك الهواجس الحزينة التي عبر عنها همنغواي في روايته الشيخ والبحر وقبل أن ينتحر كتعبير عن الهزيمة أمام الحياة، في حين وقف جيفارا صامداً بوجه الموت، حيث بطولته الفريدة وانضمامه الى الثوريين في غابات أمريكا اللاتينية واستهزائه بالموت من أجل قضيته الانسانية بوجه الغزاة. وهو إنموذج راق للتخلي عن مكاسب السلطة والجاه من أجل المبادئ، لعل هذه الأمثلة تدفع حسن للتشبث بمبادئه وقيمه الانسانية.

كان يوماً حافلاً ومليئاً بالحياة، قتل فيه حسن وبمساعدة إبن عمه الضجر والكآبة التي رافقته في رحلته هذه.

أوصل علي بسيارته حسن الى البيت، ورجاه قبل أن يودعه أن يتصل به في أية لحظة.

- أنا لا أريد ازعاجك خصوصاً بعد مجيئ صديقتك، في أية لحظة تحتاجني أرجوك أن تتصل، لا أريد التدخل في مشاريعك فأنت أدرى. وصلت ساندريلا هافانا، وقد اهتدت الى العنوان بسهولة، فاجأته حين دقت جرس الباب وأحتضنته، وبادلها قبله سريعة

عابرة، فهو حزين، ولا يجد أي معنى لهذه الرفقة التي تزيد من أزمته، إنه لا يشعر بداخله بحرية القرار، فقد أصبح هناك من يشاركه في تحديد الخطوة المقبلة، لا يدري ماذا يتصرف؟ فأطلقت كل عبارات الشوق، وإن فنزويلا كلها تسّلم عليه، وهي لا تعلم بأن هذا البلد بالنسبة لزوجته كان نقطة سوداء، وإن كاراكاس لا تشكل بالنسبة لعبير سوى خنجراً مسموماً انغرز في قلب علاقتهما، وقنبلة هددت كيان عشهما.

لم تترك ساندريلا فرصة للجلوس حتى أخرجت من حقيبتها جواز السفر الفنزويلي:

- أنت الآن فنزويلي بجواز سفر حقيقي وليس مزوراً، أنظر، أنظر أنت الآن «آلهاندرو» أناديك منذ الآن بآلهاندرو، رفعت جواز السفر فوق رأسها بيد واليد الأخرى تلوح برقصة السانبا، وتردد أجمل الأغاني الاسبانية، وانهالت على حسن:
- حبيبي عملتُ المستحيل لكي أخرج لك هذا الجواز.
- كيف؟
- أبن عمي بنفس اسم عائلتي ذهبت بالاتفاق معه وجددنا جواز سفره وبدلاً من صورته وضعنا صورتك، أنت تعلم بأنه في فنزويلا نعمل كل شيئ.
- هذا أكيد.
- والآن إسم عائلتك وعائلتي واحد.
- وماذا يعني هذا؟
- قترح عليك نسافر معاً الى روما فالدخول الى هناك من دون تأشيرة دخول ووقبلها ترتب موعداً مع القيادي في المعارضة حميد هناك.
- قترح عليك لقاءه لمعرفة الحقيقة ثم نعود.
- أليس من المناسب أن أعرف رأيه بذلك ومن قال انه يوافق على هذا اللقاء.
- إنها مجازفة كبيرة لم اعتد على مثل هذه الطرق.

لم يكن أمامه سوى الموافقة فهو في مركب وسط البحر، خروجه منه يعني الغرق.

اتصل بمدير مكتب زعيم المعارضة حميد وبعد دقائق عاود الاتصال به لمعرفة الموقف، أبلغه بأنه يمكن أن يلتقي حميد به بعد ثلاثة أيام في روما. وتم تحديد الساعة ومكان اللقاء.

اجرى حسن ترتيبات حجز التذاكر. وأصرت ساندريلا على السفر معه مدعية إن سفره لوحده بهذا الجواز قد يجلب الشك حوله.

صعدا الطائرة وحسن في دوامة المغامرة، فهو مستسلم الى عواصفها وأمواجها العاتية، ينتظر الى أين سيكون مرساها.

حين هبطت الطائرة في مطار روما شعر حسن بقشعريرة تهز جسمه وتوالت الأسئلة السريعة تهاجم رأسه:

لم يفكر في يوم من الأيام بأنه سيسافر بجواز سفر مزور يجوب به العالم، ولكنه لماذا لا يسافر بهذا الجواز الى لندن ويطلب اللجوء السياسي هناك، وماذا بشأن ساندريلا.. لأنها رتبت له هذا الجواز وتريد خدمته، لكن هل هذه الخدمة من دون مقابل؟

وصلا مطارروما وأخذا يتكلمان فيما بينهما باللغة الاسبانية خلال تقديم جوازي سفرهما الى طاولة ضابط الجوازات:

- جئنا لقضاء عطلة لعدة أيام؟

دخلا روما التي يعرفها حسن جيداً وذهبا الى أحد الفنادق المتوسطة، وليس في مكان الموعد الذي اتفق حوله معه حميد حيث كان فندقاً كبيراً وضخماً.

كان الموعد بعد يوم من وصولهما، واستغلت ساندريلا الوقت فاقترحت عليه الذهاب الى الأماكن السياحية والتاريخية لروما، رحب بالفكرة، كانت معالم روما تبعث بالشعور بعظمة الامبراطوريات في التاريخ، ومكانة الفن في تلك الحضارة الرومانية العظيمة زارا الفاتيكان وساحته الفسيحة، ثم وقفا الى جانب نافورة العشاق مثلما يسمونها، قالت له:

- أرم مجموعة من الفلوس واضمر أملاً تريده.

تمنى حسن من الله في نفسه أن يذهب الى لندن ويسحب عائلته معه الى هناك بأمان.

ذهب الاثنان الى مكان اللقاء في ذات الموعد وأطل حميد من بعيد في قاعة الاستقبال الكبيرة للفندق وصافحه وهنأه بسلامة الخروج من ليبيا.

جلس الاثنان يتحدثان اللغة العربية التي لا تتقنها ساندريلا رغم ذلك استأذنت للذهاب والعودة بعد ساعة.

- كيف دخلت؟ هل منحك الايطاليون تأشيرة دخول.
- كلا دخلت بجواز سفر فنزويلي طبيعي ولكن بإسم آخر.
- لماذا لم تستطع تدبير تأشيرة الدخول؟
- أعتقد أحسن طريق هو وصولك للمطار وطلب اللجوء السياسي.
- على أية حال يبدو إنني لا أعرف بأن المعارض في الخارج عليه أن يمر عبر بوابة أية مخابرات دولية،.
- وعائلتي؟
- يأتون بعدك وأنا أضمن لك ذلك.. بعد ذلك تأتي ونعمل معاً، لقد أرسلت لك فاكسات كثيرة الى السفارة.
- وهل تتوقع أن أجيبك على فاكس من السفارة.

جرى الحديث بأمور كثيرة في الشأن العراقي خصوصاً القاء القبض على مجموعة من الضباط من أهل مدينة حسن المتهمين بمحاولة الانقلاب العسكري واعدامهم بعد وشاية من أحد المحسوبين على معارضي صدام، وتم اعتقال المناضل علي عليان وأعدمه مع المجموعة العسكرية.

ثم تودعا:

- أراك في لندن قريباً.
- مع السلامة.

في تلك اللحظات عادت سانديلا حيث ودعها كذلك.

الطريق الى بوابة الحرية.

كانت عودة حسن الى كوراساو كئيبة حزينة بعد مغادرتهما هافانا، لم يعد أمامه سوى التفكير بسيناريوالذهاب الى لندن بهذا الجواز الفنزويلي، ولا بد أن يصطحب معه هذه الفتاة الفنزويلية ولكن كيف ولماذا؟ أفكار تتداخل في رأس حسن.

جلس أمامها وبصورة عصبية قاطع استرسالهاحول عملية النزول في المطار وأخذها لجواز سفره العراقي وكل ما يحمله من وثائق وجوازات سفر حيث تدخل بها لوحدها.

- ولماذا تذهبين معي، ألا أستطيع لوحدي.
- وأغراضك الشخصية وجواز سفرك الديبلوماسي، إذا ما رفضوا دخولك أليس من المحتمل أن يسفرونك الى العراق بهذا الجواز؟
- أقول لهم أريد الذهاب الى طرابلس.
- ومن يثق بذلك؟

كانت طرق تعبيرها تحاول من خلالها إشعاره بأن هذا هو السيناريو الوحيد لدخوله.

انفجر بوجهها بعد أن تزاحمت أمامه صورة عبير وطيراه الجميلان:

- لا أريد الذهاب الى لندن سأعود الى طرابلس من هنا وأنت اشكرك على هذا الجهد، ومع السلامة.

أخذ يفكر باحتمالات أن تسرق جواز سفره العراقي لكي تمنعه من التصرف لوحده، فذهب الى حقيبته مباشرة واحتضنها.

وأخذت الدموع تنهال على خديها وتردد:

- هل أنا سارقه، وهل تتوقع أن أسرق أموالك التي تحملها، أنا أحبك وأريد أن أكون الى جانبك.
- ولكن ساندريلا أنا عندي عائلة وأطفال ينتظرونني، أما أنت فلك مستقبلك وحياتك، أرجوكي تفهمي هذا الأمر، أنا اشكر مسعاك وجهودك لمساعدتي ولن أنسى ذلك طوال عمري، أنا الآن لا أريد كل شيئ سأعود الى طرابلس. في تلك اللحظات ارتمت عليه:
- لا أرجوك دعني أساعدك في الدخول الى لندن وأنت قرر في حينها ما تريد.

وجد حسن إن لا مفرّ أمامه من الموافقة على إصطحابها له، كانت الخطة ان يسافرا الى لندن عن طريق روما ثم تنقلهما الطائرة الايطالية الى لندن، وعند نزولهما المطار تأخذ هي جميع جوازات السفر وأوراقه وتتركه في قاعة الترانزيت ينتظر لساعة لحين مغادرة الطائرة الايطالية ثم يذهب هو ويقدم طلب اللجوء السياسي من خلال الفايل الذي يحمله وفيه الطلب إضافة الى صورة من جواز سفره العراقي الديبلوماسي.

سافرا الى روما نزلا في المدينة لست ساعات لحين موعد الطائرة المتوجهة الى لندن. أخذت عواصف القلق تتلاطم على رأسه، والأسئلة المثيرة عن نجاح مهمة دخوله المطار وتقديمه طلب اللجوء السياسي، في تلك اللحظات حيث كانا يتمشيان في أحد الشوارع القديمة لمدينة روما لم يجد أمامه سوى الذهاب الى كابينة الهاتف العمومي ليتحدث مع عبير في طرابلس لعلها تلهمه القوة وليستمع الى صوت طيريه الجميلين:

- كيف حالك والأطفال؟

- نحن بخير وأنت؟
- الحمد لله.
- ماذا بك حسن صوتك ضعيف، هل حصل لك شيئ؟
- أبداً انشاء الله كل الأمور تسير نحو الخير، المهم أنتم أطمئنوا، وداعاً.
- الله معك وحفظك.

عاد حسن الى سندريلا التي وقفت أمام أحد المحلات لشراء بعض النماذج الفولكلورية، وجد حسن في روما جزءاً من بقايا الشرق الممزوجة بحضارة الرومان القدماء، ليست هذه المرة الأولى التي يزورها، فقد كان يمّر بها حين يعود الى بغداد من سفرياته الرسمية وتعجبه أناقة الملابس الرجالية.

شعرت ساندريلا أن وضع حسن ومعنوياته أفضل من قبل ساعة، وهذا مما شجعها على مداعبته واطلاق النكات المرحة استعداداً لدخول النفق الجوي الذي سيقود الى لندن، نعم لندن لا غيرها. هذا العالم الذي يحلم به الباحثون عن العلم والمدنية، عالم الحرية المفقودة التي يتوق اليها المهوسون بالديمقراطية والخلاص من الاستبداد، بل هي مركز الأمان الذي افتقده حسن وعائلته منذ اللحظة التي اتخذ فيها قراره معارضة النظام، لكنه يشعر في كل لحظة إنه يخطو خطوات لم يصنعها هو، فهو متردد، ولو كانت معه عبير وطفلاه لكن الأمور مختلفة، مرة أخرى تتصارع الهواجس داخل رأسه، هو يخاف عليهم ولا يريد أن يتعرضوا الى مواجهات مجهولة خصوصاً وإنه لم يختر الطريق السهل لعبور المحيط.

صعد حسن وساندريلا الطائرة وقلبه يرتجف، لم يختر يوماً من الأيام طريق الخديعة والكذب في حياته، ولم يفكر إنه سيغامر مغامرة المنفى مثل غيره من الآف العراقيين الذين لكل واحد منهم قصة يحفظها ويرويها لأولاده الذين أصبحوا إنكليزاً أو سويديين أو نرويجيين أو هولنديين، لم يكن يتوقع هذه اللحظة التي يحمل فيها جوازاً مزوراً للدخول الى لندن وبمعية هذه الفتاة التي لا يعلم أسرارها، وهل إنها قد تنكث بوعدها في لحظة من اللحظات وتتخلى عنه، لأنها تيقنت بأنه يريد عائلته، وهي صديقة عابرة ليست إلا، لقد شعر حسن في تلك اللحظات بقوة حبه لعبير وطفليه، عبير التي وصلت تضحيتها له درجة قد تكون نادرة، كانت تريد أن يكون حسن بخير، وأن لا يتأثر أو يتأذى، كانت تعينه بكل شيئ، لم يكن حبهما كلاماً أو لهواً. وفي لحظات شعورها بأنه يريد اللهو الذي إفتقده في صباه أو قتلته التعليمات والوصايا الحزبية والعقائدية، أطلقت جناحيه، ولم تعبأ لأنوثتها معه، إن جمالها كان رائعاً. قرأ في نفسه عشرات الآيات القرآنية والدعوات بأن يسهل الله طريق وصوله من أجل العائلة، كانت جميع أوراقه ووثائقه عند ساندريلا حتى ورقة تقديم طلب اللجوء التي كتبها على ورقة وضعتها هي في ملف مع صورة جواز سفره العراقي حسبما أخبرته لكي يكون دليل تعريف به عند تقديمه الطلب، حيث يتطلب السيناريو أن تفترق هي عنه داخل المطار قبل مكاتب الجوازات، وعليه تقديم الفايل أمام منضدة ضابط الجوازات، ويخبره بصوته: إنه يريد طلب اللجوء السياسي!! سلمته الفايل وودعته، إنتظر على إحدى المساطب المنثورة في قاعة الترانزيت، ولم يفكّر بفتح الفايل ويرى ما بداخله لأنه يعرف: طلب اللجوء ونسخة من جوازه العراقي، مرّت الدقائق كأنها أيام طوال قبل أن يتوجه حسن بخطى ثابتة نحو مكتب الجوازات:

- أنا عراقي وأطلب اللجوء السياسي وهذه أوراقي ورمى الفايل بهدوء أمام ضابط الجوازات الذي تسلمّ الفايل وقبل فتحه طلب منه الجلوس في إحدى الزوايا لحين ما

ينادي عليه. انتظر لربع ساعة، جاءه موظف جوازات وطلب اصطحابه الى غرفة بعد ممر طويل وحسن في وضع مرتبك.

طلب منه الجلوس وبعد دقيقتين جاءت ضابطة ومعها مترجم للغة العربية مع إنه يتقن الانكليزية، ولكن المترجم كان يفيده في التقاط أنفاسه، وبدأ الحوار حول نقطة السفر وطريق الوصول الى لندن وعبر أي من العواصم وهل كان برفقته أحد. قال لهم بأنه لوحده ووصل بجواز سفر فنزويلي مزقه داخل المطار ورماه في أحد المرافق الصحية. كان حسن يروي قصته بهدوء الوائق من كلماته الحقيقية، وإنه ديبلوماسي منشق عن النظام، وكان في ليبيا حيث ترك عائلته هناك وهو الآن قلق عليهم لأن البلاد هناك ليست آمنه.

التفت اليه الضابط وبطريقة تثير السخرية من رواية حسن:

- أنتَ قلت لوحدك، لكن الفايل الذي سلمتني إياه فيه صورة لجواز سفر فتاة فنزويلية، أين هي؟

كانت صدمة كبيرة لحسن، فلم يكن يتوقع أن تدّس ساندريلا جواز سفرها في الفايل.

- هي صديقتي رافقتني بالسفرة ودخلت لوحدها.
- عليك الانتظار لحين ما نعثر عليها.

كانت هذه كلمات ضابطة الجوازات بغضب واضح.

كيف سيتصرف حسن بعد هذه الفعلة الكاذبة التي تقتل مسيرة طلب اللجوء السياسي، إضافة الى أن صفة الكاذب وهي أقسى صفة يمكن أن تلحق بصاحبها الأذى في مثل هذا الوضع مهما كانت صفته أو مكانته. الصدق هو المعيار الأول لطلب اللجوء، شعر حسن إنه دخل في نفق لن يخرج منه بسهولة.

وضع في قاعة الانتظار وبعد ثلاث ساعات يبدو إن البوليس قد تمكن من الوصول اليها وجلبها للمطار. وأدلت بمعلوماتها حول الرحلة بأنها أرادت أن تدخل معه لكنه لم يوافق، يبدو إن البوليس فهم أصل القصة ودوافعها، وسمحوا لها بالدخول، لكنهم قرروا احتجاز حسن بعد علامات الشبهة التي لحقت به على أرض المطار. كان هذا الموقف قاسياً بالنسبة اليه، وبدأت رحلة جديدة بينه وبين أجهزة الأمن التي لم توافق على دخوله الأراضي البريطانية، واقتيد الى محتجز المطار بذات الليلة. كان الوضع صعباً عليه، ولا يدري ماذا يتصرف، ولماذا تطورت الأمور لهذه الدرجة؟ لكنه استسلم للأمر الواقع وبات ليلة قاسية في ذلك المحتجز الذي يجمع صنوفاً من البشر المهيئين للترحيل من مختلف الجنسيات، خصوصاً أولئك الذين دخلوا الأراضي البريطانية بصورة غير قانونية. كانت بناية المحتجز أشبه بسجن، أدخلوه فيه وخصصوا له غرفة مستقلة. أما الآخرون فكل اثنين أو ثلاثة بغرفة واحدة، لم ينم ليلته، وراح يكتب:

أسوار الحرية.

قالوا بأنك تمنحين الفجر نوراً، والورد عطرا.
قالوا.. أنتِ التي من دونك يفقد الزمن ذاكرته.
وبغيرك ليس للدراويش نشوة التجلّي..
وليس للبحر أمواج وخلجان..
وليس للصبايا عبثٌ وغرور وهيام..
قالوا.. انتِ التي تمنحين الدنيا روحاً وسناء..
وبكِ يكون للشمس زهوَ وبهاء..

وللقمر ترنيمة في الليالي الوردية..
أنتِ التي غنّى لك حادي الإبل.
وقضى عمره مرافقاً خيالك الأبدي
أنتِ التي سهر العشاق يغنّون بإسمك في صحارى ليلهم الطويل...
يا من همستِ بآذانهم.. أنا قادمةٌ محمّلةٌ بالحلوى والورود.
فانثروا الحنّة والياسمين.. واطلقوا البخور وتحرّزوا بسورة الكرسي وياسين..
وتقطّعتْ انفاسٌ، وجفّتْ حناجر المنادين باسمكِ..
وسالتْ دماءٌ على مشارف قصركِ المهيب..
وتهاوتْ هاماتٌ وهامات..
على مصلبكِ المقدّس..
يدفعه العاشقون مهراً بعد مهر.
وكم تداول الدّجالون بطاقتك النقيّة.
تأشيرة دخول لأرض الفقراء والمشرّدين.
فعربدوا ولعبوا قمار الثورية والقومية والصمود..
وظلّ وجهكِ يحمل ملامح الطهارة.
ويرفض مخازي الزيف والدعارة..
وبقيتِ وفيّة لعهدكِ ترافقك الشمس مدى الدهور.
وتُنقرُ لك الدفوف كلّ ليلة ويطلق البخور..
ويعزف لك الدراويش ألحان التجّلي والنذور..
ومن بعيد عبر البوادي والبحار..
سمعتُ ترنيمة أغنيتك الخالدة..
كانت موجةً حالمة تعزف لحن فراقكِ الطويل..
في ليلةٍ من ليالي صحوة الحنين.
.
فعزمتُ وتوكلتُ وتنكبتُ سلاح الروح والتاريخ.
وشفقُ الصبح الجميل لاحِ من بعيد..
مزّقتُ أوراقي، ورميت واحدةً تلو أخرى..
وآخرها رميتها في زبالة آخر مطار..

وهاأنذا قبالة قصركِ المهيب تحزّمه أسوار وأبواب..
عاري الجسد، مدمي القدمين.. تدفعني المناكب..
وأنا ألوذ باسمكَ..
فدخلتُ محرابكِ متعباً أسحب خطاي..
تملأ كياني صرخةُ فرحٍمحبوسةٍ منذ دهور..
فأنا الذي بين يديكَ..
لا ادّعي عشقاً سرمدياً..
فلستُ العاشق الأوّل أو الأخير..

لن أقامر بكبريائكِ كما قامر الآخرون..
رسموا الأوشام على سواعدهم ووجوهم..
ولم يعرفوا أن وشم الروح سرٌّ لا يباح..
إعذريني إن لم أفتح ذراعيّ لعناقكً..
فبين يديّ شموع ميلاد طيوري الجميلة..
وسأظّلُ في محرباك أصلّي واوقد البخور
حابساً وهجٍ الشموع ليوم ميلادي.
يوم تعود طيوري الجميلة..
محنة الصبر وامتحانه.

شعر حسن بتعب شديد، فأخذته إغفاءة قصيرة لم تتجاوز الساعتين استيقظ على صوت جرس أشبه بمنبه الحريق أو جرس المدرسة الابتدائية حين كان يرن بقوة للدخول الى الصفوف، هذا المنبه هو للاستيقاظ والذهاب الى الحمامات في الطابق الأرضي حيث كانت غرف النوم المرقمة في الطابق الأول من البناية.

وهناك صالة هي بمثابة قاعة الطعام حيث تتوزع الوجبات الثلاث بشكل منظم.

سمع نداء أسمه من مكبرة الصوت وحضر الى المكتب قالوا له إجمع أمتعتك الشخصية ثم تم اقتياده الى قاعة التحقيق في المطار، حضر إثنان أحدهما جسمه ضخم ذكره بهيئة رجال الأمن وآخر الى جانبه كان يدوّن الملاحظات وبينهما المترجم الذي فرضوه للترجمة:

- هل تعلمنا بحقيقتك؟ من انت؟
- وهل أنتم لم تتعرفا على حقيقتي لحد اللحظة، أنا قدمت لكم كل المعلومات المتعلقة بخروجي من السفارة العراقية بكاراكاس وذهابي الى ليبيا ثم ذهابي الى كوبا لكي أتدبر جواز السفر للوصول الى هنا بلد الأمان. وبالنسبة لهذه الصديقة أعرفها منذ أن كنا في كاراكاس، وأرادت مساعدتي، هذا كل شيئ.
- كان قرارنا إرجاعها الى بلدها ولكنها طلبت اليوم حق اللجوء، فتم منحها شهر واحد لمراجعة ملفها، أما أنت نريد التحقق من هويتك.
- لديكم صورة من جواز سفري العراقي.
- ليس هذا الموضوع، هناك إمرأة جاءت الى المطار تسأل عنك وتقول إنها إبنة خالتك واسمها «هالة».
- ليس لدي أقرباء هنا ولا أعرف هذه البنت.

كانت ساندريلا التي جلبوها للتحقيق جالسة الى جانبه وسألتها إن كانت تعرف هذه البنت فنفت علمها بها.

لقد تعقدت الأمور ،هل إنهم لا يعرفون هويتي، أم إنه فلم هندي، يريدون من خلال هذا العرض تعقيد دخولي الى لندن، هذا كل شيئ.

أعادوني الى مكتب الاحتجاز مرة اخرى

انتظرت قليلاً وجاءني سجّان يحمل مفاتيحه وطلب مني مرافقته، مشيت خلفه في ممرات البناية الى أن توقف عند بوابة الغرفة رقم 18 قال لي: أدخل هذه غرفتك، نحن نضع في كل غرفة أربعة اشخاص، ولكن لخصوصية وضعك تكون في هذه الغرفة لوحدك. لأننا لا نعرف مدة مكوثك هنا، هذا رهن بالتحقيقات.

اتصلت بعبير فأخبرتها ما حصل معي، لقد تأثرت كثيراً، وجاء صوتها حزيناً خافتاً.

- عليك أن تصبر يا حسن وانتظر مشيئة الله، أين جماعة المعارضة العراقية وأين هذا الشخص الذي تبنى معاونتك؟
- لا أعرف، عليّ أن أسعى لحل مشكلتي وذلك بصمودي لأن الطريق الآخر يعني تسليم رقبتي لصدام.
- وهذه التي رافقتك ماذا حل بها.
- لقد أمهلوها لشهر، وهي في لندن.
- أصبر يعينك الله.
- مع السلامة.

لقطات من خارطة الظلم

سمع حسن أصواتاً ممتزجة ببعضها لا يعرف مصدرها، حاول الخروج من الغرفة، نزل الى الطابق الأرضي تصاعد الضجيج فوجد قاعة واسعة ينتصب في صدرها جهاز تلفزيون كبير يعرض فلماً، وهناك أجناس مختلفة من البشر، بيض وسود وقسم منهم من بلاد العرب يحلقون حول الشاشة، تذكر كيف كان في مدينته الصغيرة حيث تم جلب جهاز التلفزيون لأول مرة في المدينة وكان أصحاب المقاهي الكبيرة يضعونه في مقدمة المقهى ويلتف حوله الجلاس، أما هنا فالمشاهدون هم مشردوا أنظمة الاستبداد والاضطهاد، وبلدان الكوارث والحروب، ومن لا سبيل له سوى المجيئ الى هنا طالباً اللجوء في بلد الحرية والأمان. وهذا البلد من أكثر البلدان في العالم تطبيقاً لمبادئ حقوق الانسان، ولكن لديهم نظام للقبول والرفض. هناك مقاييس للتحقق من الهوية والموطن. هذا المكان أشبة بمنطقة ترانزيت قد تطول الاقامة فيه لسنة، وقد تقصر ليوم واحد. القدماء المقيمون في هذا المكان يعرفون الكثير عن تفصيلات الحياة فيه وكيفية التعامل مع البشر، المقيمون هنا ليسوا مجرمون أو متهمون بتهريب المخدرات أو الإرهاب، إنهم مظلومون وهم طالبوا حرية. مشكلتهم هي انتظار الحرية القادمة لذلك تجد في صدر كل واحد منهم قصة مع بلده، لا تجد بينهم عراقيون إلا أنا لأن هذا البلد سهّل أمر دخول العراقيين دون معوقات. تجد البلغاري واللبناني والسوداني والسوري،هناك عوائل وأطفال كل منهم ينتظر لحظة القرار بالترحيل الاجباري أو الدخول الى بلد الأمان، لا يقل عدد الموجودين عن مائة شخص، الجميع يستمع الى صوت مكبر الصوت المنادي بالأسم، وكلّ يتوقع إن إسمه هو المطلوب. أما للذهاب الى الاستعلامات أو لاستقبال مكالمة هاتفية أو غير ذلك.

في اليوم الثاني.. راجع حسن أفكاره ووصل الى نتيجة بأن عليه تحمل هذا الوضع والتعامل معه كأنه معتقل، دون تهمة سوى إنه يريد الدخول الى لندن وطلب اللجوء، وهو ليس محتالاً أو كذاباً، أنه دخل من دون جواز سفر، فلا أحد يستطيع تسفيره الى أي بلد في العالم، مثلما لايتحملون مسؤولية تسفيره الى العراق. ذهب الى قاعة تناول الافطار بعد أن أخذ حماماً بعد طابور طويل قبله، كان الطابور كذلك على شباك استلام الفطور، انتظر لحين انتهاء الجميع ثم تقدم الى النادل بهدوء حيث سلمه طبق الفطور وتوجه الى إحدى الطاولات، كانت الأصوات المتزاحمة خليطاً من لغات العالم، الآسيويون والأفريقيون، كانوا يصرخون ويضحكون، لمحت عيناه شخصين جالسين على طاولة في الزاوية يتضح من ملامحهما إنهما عربيان، سلم عليهما ردا عليه السلام وطلبا منه الجلوس، تبين من خلال التعريف بأنفسهما إنهما من الجزائر تم ترحيلهما من مدينة لندن لأنهما دخلا من باريس بصورة غير مشروعة وطلبا حق اللجوء السياسي، ومضى على وجودهما في هذا الحجز شهران، وهما لا يرغبان الذهاب الى الجزائر ويقولان إنهما مضطهدان ويخافان من العودة. وخلال حديث حسن معهما عرفهّما بنفسه بأنه عراقي، فاستغربا من وجود حسن بينهم، وقال أحدهم:

أتعلم يأخي إن بعض المصريين حصلوا على اللجوء السياسي في بريطانيا بعد أن قدموا أنفسهم في المطار كعراقيين لأنهم سكنوا هناك لسنوات وتعلموا لهجة العراقيين. ثم سمع صوت إمرأة تتحدث الاسبانية،كانت في الخمسين من عمرها، سألها حسن عن سبب وجودها هنا؟ قالت:

أنا أقدم محتجز هنا مرت عليّ سنة حضرت الى لندن وطلبت اللجوء السياسي في المطار لأنهم لا يسمحون لي بالبقاء، أريد أن أعيش الى جانب ابنتي وحفيدي الصغير.

هنا كل صاحب مشكلة له حق توكيل محامي يدافع عن قضيته بصورة مجانية تنتدبه الحكومة لمتابعة قضيته، كل شيئ هنا وفق القانون. فالقانون هو الحاكم وحقوق الانسان لها الرجحان في النظر بقضية كل شخص.. هنا عشرات القصص التي تصلح كروايات وأفلام سينمائية، هذه شابة منغولية تركت حبيبها في لندن وتم ترحيلها لأنها لا تمتلك وثائق شرعية للاقامة في بريطانيا. وذاك الشاب اللبناني الذي تحدث عن بطولاته في كيفية الدخول الى اسرائيل مع زميله عن طريق الجنوب اللبناني، ثم سافر الى لندن وطلب اللجوء وبعد أربعة شهوررفض طلبه، لكنه استمر متخفياً ويعمل لمدة أربع سنوات وتمكن من جمع بعض المال، يبتسم ويقول:

إنها مغامرة حلوة جمعت من خلالها مالاً..

وذاك الشاب من الاكوادور الذي فرح لأنه وجد من يتكلم معه الاسبانية، تحدث عن حالته من إنه مقيم هنا في لندن منذ أربع سنوات الى جانب زوجته وأطفاله الثلاثة، ووجد الحياة المعيشية صعبة فقرر طلب اللجوء السياسي في المطار وهو هنا ينتظر قرار دخوله لاجئا ويوميا تزوره زوجته وأطفاله.

حالات كثيرة وحسن في حالة انتظار، الزيارات مسموح بها يومياً ما بين الساعة الثانية ظهراً والتاسعة مساء. تمر الساعات كأنها ساعات الاعتقال السياسي في بلادنا ولكن من دون تعذيب فللإنسان حقوقه، حيث يقتاد المقبوض عليهم الى قاعات الاعتقال ولا يعرفون متى يطلق سراحهم. الفرق الكبير هو إن المحتجز في هذه البلاد هو ليس متهماً لكنه باحث عن الأمن والسلامة في بلد يسعى لحمايتك من المصير الخطير الذي يهدد حياتك في بلدك. أتصل بي هاتفياً سكرتير حميد الذي سبق وأن تحدثت معه من هافانا، وأخبرني بأنه سيزورني غداً. وتحققت الزيارة حيث قدم اعتذار سيده وسادته مما حصل لي ووعد إن الخطأ سيصحح خلال يومين، لكنه ذهب ولم يعد.

منذ اليوم الأول لدخولي مطار هيثرو كان الحدث الكبير هو لعبة صدام مع المفتشين الدوليين والضغط الأمريكي والأوربي على إجباره لدخولهم وتفتيشهم أي مكان يختارونه، كانت الاستفزازات متبادلة، هذه اللعبة هدفها استنفاذ ما تبقى من صبر للشعب العراقي الذي أنهكته حربان متتاليتان لم يواجههما شعب آخر قبل شعب العراق. كانت أخبار العراق تتصدر الصحف.

زارتني ساندريلا، تطلعت اليّ وبكت. كان موقفي محرجاً جداً، لماذا وضعت هذه المرأة نفسها بهذا الموقف، ولماذا لم تسافر حينما طلبوا منها ذلك، وكعناد منها قدمت طلب اللجوء. قالت لي وبحرقة حزن تصاحب كلماتها:

لماذا تركوك وحدك.. أين صديقك الذي تعهد بك، وأين الآخرون.

لن أعود مرة أخرى للتفكير بالسبب الذي جعلني أقع في هذا المحتجز، إلا أن جميع الحالات التي سمعتها تنحصر في حالتَي عدم الاقامة الشرعية أو المعلومات الكاذبة، ولعل ما حصل معي بقولي إنني جئت لوحدي واكتشفوا إن معي إمرأة سهلت وصولي الى هنا هو السبب الحقيقي وراء هذه القصة. لقد وهبني الله الصبر وقد عزمت على البقاء هنا حتى أخرج الى الأراضي البريطانية من هذا المحتجز، وفق القانون الذي هو أعلى سلطة في هذه البلاد، المهم إن عائلتي بخير في طرابلس، وانا احتاج الى الصبر والصمود وعدم الانكسار.

كنت جالساً الى جانب بعض الأشقاء العرب وجاء شاب عرّف عن نفسه بأن سوري هرب من الجيش السوري في لبنان وذهب الى الدانمارك وطلب اللجوء السياسي هناك، وهو متزوج وله ثلاثة أطفال، ومكث ثلاث سنوات في الدانمارك ثم رُفض طلب لجوئه السياسي هناك، فقرر الهروب من الدانمارك مع عائلته بجوازات سفر مزورة، وتبدأ مغامرته من مطار أوسلو حيث يقوم أحد

الاشخاص باخراجه حتى صالة الترانزيت ثم يسلمه بطاقة الطائرة، ثم انضم الى مجموعة سياحية قاصدين (مونتريال بكندا) وكان على الطائرة الهبوط في مطار لندن، ويظل المسافرون لمدة ثلاث ساعات في مطار هبثرو، وكانت عائلته مع المجموعة السياحية، وبعد ذلك طلب من زوجته أن تتقدمه في الصعود الى الطائرة مع أطفاله ثم يلحقهم. وعند باب الطائرة طلب منه ضابط الهجرة جواز سفره لكنه اعتذر، وقال له: إني مسافر مع المجموعة السياحية وإنه لم يدخل الأراضي البريطانية، لكن الضابط أصر على طلب جواز السفر، عندها قال إنني لا أمتلك جواز سفر، فأصطحبه معه، وقال له إن لدي أطفال داخل الطائرة، فتم التعرف عليهم واقتيدوا الى خارج الطائرة الى مكتب الجوازات والهجرة، وأجري التحقيق معه، واعترف بحقيقته، وإنه كان بنية الذهاب الى كندا وطلب اللجوء السياسي هناك، ثم دخل المحتجز هنا، وأفرج عن زوجته وأطفاله حيث تم اسكانهم في أحد الفنادق في لندن، وظل هو في الحجز لمدة شهر، وأخيراً ابلغوه بعد إجراء اتصالاتهم مع الدانمارك حقيقة وضعه، وإنه هرب من تلك البلاد خوفاً من ان يعيدوه الى سوريا ويتم إعدامه باعتباره هارب من الجيش، وقد قررت الحكومة الدانماركية منحه اللجوء السياسي وأرسلت مذكرة رسمية الى الحكومة البريطانية. وأبلغته هذه السلطات بذلك، وهيأت له مستلزمات السفر الى الدانمارك مع عائلته، إلا أنه تم تأجيل السفر ليوم غد، وهو هنا في حالة الانتظار.

قلت له: إنها مغامرة قال:

- وماذا أفعل؟ لم أتردد من فعل أية مغامرة باستثناء العودة الى سوريا.

هذه حالة من مئات الحالات، وقصة من بين مئات القصص، فهؤلاء المقيمون هنا أغلبهم ممن مزقوا جوازات سفرهم المزيفة في حمامات آخر طائرة تحط في مطار لندن.

نهضتُ صباحاً على صوت جرس التنبيه الموحش الممزوج بأزيز طائرات هيثرو كل نصف دقيقة هبوط وقلوع. نزلتُ بعد أن أخذت الحمام، وطالعت الصحف العربية حيث تأتي صحيفة الشرق الأوسط يومياً. العناونين تتحدث بالمانشيتات العريضة: عقوبات جديدة ضد العراق، منع سفر المسؤولين ورد من النظام بطرد المفتشين الدوليين. ذات اللعبة، والشعب العراقي ضحية الحصار والجوع.

كانت ساندريلا قد أخبرت حسن بأنها ذهبت الى مركز اللاجئين في لندن والتقت هناك بمحامي وافق على الحضور صباح اليوم، وفعلاً فقد حضر معها في اليوم التالي، جرى تقييم المعلومات التي أعطاها حسن لضباط الجوازات عند دخوله المطار، كان تقييمه إن حسن لن يمكث هنا طويلاً في الحجز، خلال ذلك حضر أحد مسؤولي المركز التابع لقسم الهجرة والاقامة، وأخبرحسن بأن قضيته ستحسم خلال أيام قليلة، حيث تدرس مع جهات أخرى، ولن يستغرق حسم الموضوع أكثر من ثلاثة أيام.

تركت هذه الأخبار جواً من الارتياح في نفس حسن، وبعد نهاية المقابلة، بقيت ساندريلا الى جانب حسن، فبادرته بالقول ودموعها تتسرب على خديها:

- قررت السفر الى وطني بعد ان تأكدت بأنه لا يوجد في أوراق طلبك اللجوء ما يشير الي.
- وماذا افعل؟
- لقد عبرت المحيطات من أجلك وعملت كل شيئ من اجلك.
- لا نريد الحديث بهذا الموضوع لأنك تعلمين ما فعلتيه حين د سست صورة جواز سفرك بين الأوراق دون علمي، وهو سبب احتجازي لأنني ظهرت أمامهم بالكذاب،

وأنا لم أكذب طيلة حياتي. ومع ذلك أنا أقدر سبب ما تفعليه.

ودعتني وغادرت المكان.

كان على حسن الاتصال بعبير ليطمئنها:

- انشاء الله تفرج، كيف حالك والأطفال؟ لقد وهبني الله الصبر وهو نعمة كبيرة والدواء الوحيد الذي امتلكه.

قالت عبير:

- فتحت القرآن الكريم اليوم على آية قرآنية فيها تفاؤل بالخير إنشاء الله، كانت دموع حسن كالمطر وهو يردد: انشاء الله.

تحدث حسن مع أمل صغيرته، كان صوتها يبعث على الأمل، كانت المحادثة الهاتفية مهمة لحسن، منحته طمأنينة يحتاجها في هذا الظرف القاسي الذي يمر به.

بعد ذلك مرّ حسن الى غرفة الشابين العربيين اليمني والجزائري. كان معهما شخص إيراني بذات الغرفة، أكملا سنة في هذا المحتجز، وقضيته حسبما رواها بسيطة جداً حيث لديه هنا اقامة منذ أربع سنوات على أساس اللجوء الانساني، ولديه وثيقة سفر بريطانية يستطيع السفر بواسطتها خارج بريطانيا لمدة لا تزيد عن الثلاثة أشهر، إلا انه بقى في سنغافورا لمدة أطول، مما أسقط عنه هذه الوثيقة وأودع الحجز، والسلطات البريطانية لا تريد إعادته الى سنغافورا ولا الى بلاده إيران لأنه معارض، وهو رهين هذا المكان لينظروا كيف يحلوا وضعه. هؤلاء المسؤولين هنا رغم مخالفات القادمين والمقيمين غير الشرعيين ينظرون في المقدمة للجانب الانساني، لا يريدون أن يتعرض حتى المخالف لقوانينهم للأذى. ثم نزلنا جميعاً الى قاعة التلفزيون لمشاهدة فلم روائي أمريكي كان يعرض على الشاشة حول اختطاف طائرة، المختطفون يظهرون عرباً جزائريون، والأبطال أمريكان.. يصور الفلم بأن العرب قتلة مجرمون وارهابيون، والأمريكان هم المدافعون عن الانسانية، انضم الينا أحد الشباب اليمنيين، ويبدو ان هناك جماعات للتهريب بواسطة السفن. حكى روايته بعد نهاية الفلم، بأنهم وضعوه داخل باخرة صغيرة دون أن يعرف وجهتها، ثم نقل الى باخرة أخرى حتى قالوا له بأن هذه الباخرة ستقلك الى أحد السواحل البريطانية، وما عليك سوى مواجهة قدرك مع البوليس البريطاني. وعند نزوله ركب في شاحنة كبيرة وعثر عليه البوليس، وقادوه الى هنا. وقال بأنه معارض سياسي للحكم القائم ويخاف العودة الى صنعاء. حدثني هذا اليمني عن قصة شاب عراقي جاؤوا به الى هنا حيث كان لاجئاً سياسياً في هولندا منذ خمس سنوات وحضر الى لندن بوثيقة سفر هولندية لزيارة صديق، حسب إدعائه فلم يسمحوا له بالدخول وأودعوه هذا المحتجز. بعد قليل حضر هذا الشاب وبعد التحية جلس يروي لنا قصته:

منذ غزو الجيش العراقي للكويت كنت هارباً من الجندية فسافرت الى الكويت، وبقيت هناك مع شقيقي الذي كان من المقيمين السابقين في الكويت، وبعد انسحاب الجيش العراقي وعودة الحكومة الكويتية، القي القبض عليّ من قبل السلطات الكويتية وادخلوني المعتقل وعذبوني كثيراً طالبين مني الاعتراف بأنني من منتسبي المخابرات العراقية، وبعد مرور عشرين يوماً على عمليات التعذيب داخل المعتقل، كانت لي صديقة كويتية توسطت من أجل إخراجي وخرجت من المعتقل، ووضعوني مع مجموعة من العراقيين ورمونا على الحدود العراقية قرب مدينة صفوان، ثم جاءت شاحنة كبيرة ركبنا فيها نحن مجموعة تزيد على الثلاثين شخصاً وبيينا نساء وأطفال، وعند وصولنا الى اقرب نقطة عسكرية عراقية داخل الأراضي العراقية تم اعتقالنا وقالوا لنا: انتم من «الغوغائيين» الذين يطلقون على أنفسهم «انتفاضة» ضد نظام صدام بعد انسحاب الجيش من غزو الكويت مباشرة عام

1991 قلنا كلا نحن من المقيمين في الكويت، ثم اقتادونا الى سجن الرضوانية على أطراف بغداد، وحين التحقيق معي أعطيتهم إسماً آخر غير إسمي وهو إسم أخي الذي غادر الكويت بعد الغزو الى الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد عدة أيام زارنا شخص مسؤول قيل إن أسمه «صدام كامل» الذي قال لنا «كيف حالكم؟ ستكونون بخير إنكم في بلدكم». بعد ذلك نقلوني الى معتقل (العلوية) في بغداد حيث أخبروني بأنني سأخرج من المعتقل بعد يوم واحد، وانتظرت اسبوعاً وشهراً ثم ستة أشهر، وبعد ذلك جاءني أحد الذين يجلبون لنا الطعام فاخبرته بقصتي وانني بريئ ولدي أهل وهذا عنوانهم، ووعدته بهدية إذا عاونني وبعد عدة أيام عاد فأخرجني بسيارته وأطلق سراحي، بالأسم الثاني وهو إسم اخي المهاجر الى امريكا، عندها فكرت بالهروب، وهكذا سافرت الى شمال العراق، وخرجت من العراق الى تركيا بجواز سفر مزور، وبعد ثلاثة أشهر انتقلت الى رومانيا ثم الى موسكو وعدت بعدها الى بلغاريا، حيث قررت السفر الى اليونان مع مجموعة تهريب بالباخرة، ودخلت اليونان، وهناك أشتريت جواز سفر يوناني، بقيت ثلاثة اشهر في اليونان ثم استطعت بهذا الجواز السفر الى أي مكان أريد، فسافرت الى هولندا ودخلت أمستردام بجواز سفري اليوناني، أقمت في أمستردام لمدة شهرين. وحصلت لي مشاجرة مع أحد الأشخاص حيث طعنته بالسكين لأنه عرف بأنني عراقي وشتم العراقيين وكان هو من ايران، دخلت على أثرها السجن لمدة ستة اشهر، وبعد إطلاق سراحي منحت اللجوء السياسي وأصبحت اتمتع بحقوق اللاجئين السياسيين، وقررت بوثيقة السفر الهولندية السفر الى لندن لزيارة أحد الأصدقاء، فأعتقلوني بشبهة وجاؤوا بي الى هنا. وفعلاً في صباح اليوم التالي أخرجوه من المحتجز بعد أن تأكدوا من هويته الحقيقية.

تمر الايام على حسن رتيبة كئيبة ففي هذا المكان لا ينتظر الانسان سوى الصوت القادم عبر مكبرات الصوت ليطلب إسماً من الحاضرين، هاتف أو إخراج أو استدعاء. لا يريد حسن أن يفقد نعمة الصبر التي وهبها الله له، لأنه إذا فقدها فسيصل الى نقطة الهزيمة والانكسار، وطلب الخروج من الأراضي البريطانية. حاول مداواة هذا اليوم عن طريق إجراء بعض الاتصالات التلفونية، اتصل بمكتب صديق آخر من قادة المعارضة الذي تحدث معه مستغرباً مما واجهه وقال له: بأن الجهات المسؤولة اتخذت قراراً بخروجك وسيصل القرار اليك اليوم أو غداً.

الأمل هو الحبل الوحيد الذي يربط جميع المحتجزين هنا.

لم يتمكن حسن من إبعاد كوابيس القلق والتخيلات بأسباب احتجازه وهل في ذلك ارتباط بانفجار الأزمة مع نظام صدام حيث كان ذلك ساعة دخوله المطار، واليوم تقول الأخبار إن صدام اذعن لقرارات مجلس الأمن وأعاد المفتشين للعمل في العراق لعل في ذلك خيراً لحالته، أو إن الموضوع خاضع لقرار يتعلق بالملابسات التي حصلت بدخوله.

تمرّ الأيام دون جدوى فلا وعود تنفذ ولا كلام يأخذ طريقه الى الواقع، أقطاب المعارضة العراقية هنا لم يعملوا له شيئاً، الاسلاميون الشيعة يعتبرون «إن كل معارض تابع للنظام غير صادق في معارضته، ولهذا يخشونه ولا يثقون فيه. لأنهم يعتقدون خطأ بأنهم يمثلون الطائفة المظلومة و ولهذا فكل معارض لا ينتمي الى هذه الطائفة مشكوكاً بأمره. ما عدا الأكراد الذين حسابهم مختلف». كان على حسن أن يتخذ قراره بسلوك طريق القضاء لحسم قضيته، بعد مرور قرابة الأربعين يوماً على احتجازه، وهي أيام صعبة، ساندريلا لم تفوت يوماً دون زيارته حيث تقطع المسافة من مدينة لندن الى مطار هيثرو في فصل الشتاء والبرد القارص، وماذا يستطيع أن يرّد عليها مهما كان هدفها. في إحدى المكالمات الهاتفية التي هزّت كيان حسن.. تحدثت زوجته عبير

معه بلغة الاشفاق على هذه الانسانة وعدم زجرها أو منعها من زيارته، مع إن عواطف المرأة وأحاسيسها تقول غير ذلك، لكن عبير كانت أكبر من ذلك بكثير، وكان حبها لحسن يفوق التصور. كان حرصها على حسن وسلامته يتجاوز عواطف الغيرة النسائية، هذا هو الاخلاص الحقيقي الصادق، من إنسانة ملائكية.

واصل المحامي النظر في متابعة الدعوى التي رفعها على سلطات الاقامة والجوازات بأنه لا يجوز حجز حسن العراقي الذي يمتلك كل الحقوق بطلب اللجوء السياسي في البلد، تم الاتفاق على عقد جلسة للمحكمة في المطار.

كانت الجلسة كبيرة حضرها ممثلوا الصحف البريطانية، تحدث المحامي خلالها بفحوى الدعوى، ثم وجه القاضي سؤاله الى ممثلي الأقامة والجوازات إن كان هناك سبب أمني وقانوني يمنع حسن من دخول البلاد، فلم يقدموا ما يقنع رئيس المحكمة بذلك، فطلب تأجيلها الى ما بعد يومين على أساس الخروج بكفالة حسبما أراد مندوبوا الاقامة.

وقبل حصول الجلسة نشرت صحيفة (times Sunday) تقريراً على صفحتها الأولى بالقضية مع تحقيق صحفي فيه الكثير من المعلومات الغير حقيقية يبدو إن المحامي أراد استغلال الموضوع لتحقيق شهرة يحتاجها.. وتم إجراء التكذيب من قبل حسن في اليوم التالي. عقدت جلسة المحكمة التي قررت رفع الحجز ودخول لندن. كان المشهد مؤثراً عند جميع الحضور والأصدقاء العراقيين بصورة خاصة. هذا هو البلد العادل، الذي تتغلب قراراته على جميع السلطات التنفيذية مهما كان تأثيرها طالما لا يوجد هناك شيئ يهدد أمن البلد.

خرج حسن طليقاً حراً، شعر في تلك اللحظة ماذا تعني الحرية الى جانب الأمان، إنطلقت السيارة والى جانبه صديقته وأحد اصدقائه حيث توجهوا الى بيت صديقه العراقي الذي كانت ساندريلا مقيمة عنده. أحد الأصدقاء كان قد حضّر دعوة غداء في بيته فذهب الجميع الى هناك، كان حسن يتطلع الى الشوارع والبنايات الممتدة ما بين المطار ومكان سكن الصديق، كان الجو غائماً وبارداً، لكن حسن شعر إن الشمس ضاحكة مشرقة، لم يكن مصدقاً إنه طليق ومتحرر في اللحظة التي وصلوا فيها البيت، استأذن حسن لمخابرة زوجته وأطفاله، كانوا هناك في طرابلس، لم تستطع عبير حبس بكائها، فتلعثمت بالكلمات:

- لحمد لله على سلامتك.
- ساتصل بك لاحقاً المهم كل شيئ على ما يرام.

كانت ساندريلا تتصرف وكأنها صديقة لجميع الحاضرين، لم يعلم حسن ما هو السر، الذي عرفه فيما بعد إنها لم تترك شخصاً عراقياً سياسياً مهماً، إلا واتصلت به، لدعم قضية حسن. جلس الى جانبه أحدهم الذي همس بإذنه:

- إنها خطيرة، لم تترك أحداً إلا واتصلت به حول قضيتك، ما هذا الحب الجنوني؟

لم يرّد عليه حسن لأن الوقت غير مناسب، وليدع هذه الساعة تمر على خير، كانت الأحاديث عامة حول الأزمة التي افتعلها صدام مع المفتشين، وكذلك لعب الأمريكان معه، وإنهم يريدون إتعابه لكي يستسلم. كان المضيّف رائعاً واستأذن الجميع للسماح لحسن بالانصراف والخلود الى نوم هادئ، ذهب بمعية صديقه الذي تسكن عنده ساندريلا، ويبدو إنه هيأ له المكان المؤقت في شقته لحين استئجاره شقة. وحسن ليس لديه علم بقوانين البلد، كان المفروض أن تنقله الجهات الرسمية الى مكان للإقامة ولكن ساندريلا وصديقه أخبروهم بأنه يستطيع أن يسكن معه وبذلك فقد أول

حقوقه كطالب لجوء سياسي، كانت فكرتها أيضاً.. لكي لا تكون بعيدة عنه ولتقاسمه السكن، لعبة نسوية متقنة، وماذا يعمل بمثل هذا الظرف القاسي الذي وضع فيه غير الاستسلام.

بعد وصولهم بيت صديقه سليم. رن جرس الهاتف، وأعطى سليم السماعة الى حسن، إنه صديقه وزميله القديم سعد الذي اشتغل في لندن قبل تركه الوظيفة، وكان لحسن موقف لصالحه حينما كان في بغداد قبل التحاقه بكاراكاس.

- سأزورك غداً.
- انشاء الله.

كان قرار الافراج مقروناً بإجراء أمني حيث يتطلب من حسن التوقيع في مركز شرطة المنطقة التي يسكنها الآن لتأكيد الحضور والاقامة، ويستمر ذلك لثلاثة أسابيع.

جاء سعد في اليوم الثاني واصطحب حسن بسيارته، أخذا يتحدثان عن ذكرياتهما، وكيف أصبح حال البلد وهجرة العقول والكفاءات، هجرة الناس القادرين.

- لكن أهلنا ملتحفين أرضهم بصبر أتعب الدهر والزمان.

استمر سعد بالزيارات اليومية لحسن واصطحابه للتوقيع في مركز الشرطة والخروج معه خلال النهار في الأوقات التي يكون فيها سعد متفرغاً من عمله في مجال العقارات. أول مَعلَم حرص حسن على زيارته هو منطقة (الهايدبارك) هذا المكان الذي يرمز للتعبير عن الرأي والحرية، كان النهار مشمساً، والعشب الأخضر يناغم الشمس ويمتزج بطعم الحرية التي يتلمسها حسن الآن. يريد أن يغرف منها حتى الارتواء، يريد أن يشرب ماءها نيابة عن كل العراقيين المحرومين، لماذا؟ سؤال لم يستطع الاجابة عنه. إرتصف الاثنان في زاوية وهما يستمعان الى خطيب حماسي استطاع حسن معرفة فقرات من أحاديثه، فلغته الانكليزية قد هجرها منذ سنوات لصالح الاسبانية التي اتقنها. كان الحديث حول العراق، وكان المتحدث معارضاً لأية ضربة عسكرية ضد هذا البلد. كان الرئيس الأمريكيي كلنتون قد عزم عليها لوحده.

على الرغم من التحول الكبير الذي حصل لحسن في مفاجأة الحرية التي داهمته، وعليه التعايش والاعتياد على تقاليدها، فما زال حين يتحدث مع سعد يخفض صوته وكأن هناك رقيب جنبهما. طلب حسن من سعد أن يبحث له عن شقة حسب معرفته ووعده بذلك. وأستطاع العثور على شقة بغرفة نوم وصالة وحمام. بعد ثلاثة أيام إنتقل اليها حسن فوراً وكانت ساندريلا معه بالطبع. لم يكترث للأمر المهم سعيه مع المحامي الذي تعرف عليه عن طريق سعد لجلب العائلة وهي مهمة صعبة قبل حصول الاقامة الدائمية، التي لا يعرف متى تتم، لن يهدأ باله قبل مجيئ العائلة. ومن خلال اتصالاته بعبير علم إنها تعمل على تدبير ما بعد مرور سبعة أشهر على وجوده في لندن ولم يتمكن من الوصول الى حل لجلب العائلة، صراعه الجديد الذي نشب بينه وبين ساندريلا هو استمرارها في الاقامة معه، وتأكيده لها اكثر من مرة بأنه ينتظر وصول عائلته، وعليها مغادرة لندن، كانت تتوسل باستمرار وتقول له:

- أنا لا يهمني أن تأتي عائلتك دعني أعيش قريبة منك هنا في لندن.
- هذا غير صحيح أرجوكي.

كثيراً ما كانا يتشاجران، وأكثر من مرة تدخل صديقهما سعد لحل المشاكل. وفي أحد الأيام كان حسن يتحدث مع سعد حول مستوى المسارح هنا في لندن وكيف إن المسرحية تستمر عشرات السنين كمسرحية (CAT مثلاً فقررا الذهاب سوية برفقة صديقة سعد وساندريلا.

كان المسرح رائعاً إضافة للمسرحية العظيمة.

اكتشف حسن إن ساندريلا قد تعرفت خلال الخمسين يوماً التي قضتها خلال مراجعاتها له في المحتجز على مجموعة كبيرةِ من العراقيين، وكانت توحي لهم بأنها زوجته، وهو ما اغاضه كثيراً وكانت إحدى نقاط الشجار..

لا يعرف حسن كيف يتمكن من إنهاء حالة الصراع الداخلي، فوصوله الى جنة الحرية لندن لم يوقف تداعيات الصراع داخل نفسه في جانبها العاطفي، لقد حسم وضعه السياسي في بلد الأمان. لكنه لا يعرف كيف يخرج من هذا الوادي الذي انحدر إليه بعد رحلة المنفى التي أصبحت ساندريلا رفيقته المرغمة فيها، أما عبير وطفلاه فهم هناك في طرابلس ينتظرون شارة الفرج من هنا. ذهب الى مكتب محاميه حيث رجاه بأن يكتب رسالة الى مديرية الاقامة والجوازات يطلب فيها لم الشمل رغم عدم حصوله على الاقامة الدائمية، وذكر الأسباب الانسانية والوضع الصحي لعبير، كتب المحامي تلك الرسالة، لكنه شكك بامكانية الاستجابة لهذا الطلب. شعر حسن بأن عبير أخذت تشكك في صحة ما يقوله لها حسن بأن طلب لم الشمل سيأخذ وقتاً، وإن وعود قادة المعارضة بالمساعدة على تحقيق ذلك كانت مجرد كلام في الهواء. بدأت الهواجس داخل رأس عبير تشير الى احتمالية أن يكون سبب ذلك وجود ساندريلا في لندن. حاول حسن تصحيح هذه الهواجس، ومن أن عبير ذاتها طلبت من حسن عدم طردها لأنها الوحيدة التي وقفت الى جنبه في محنته. حزن حسن كثيراً لتدفق مشاعر اليأس في نفس عبير مجدداً التي قاومت وصمدت كثيراً من أجله، ولن يكون في لحظة من اللحظات غير وفّي لها ولرفقتها ولطفليهما.

وقد علم من إبنته إن أمها مريضة ومتعبة، لكن حسن لا يستطيع مغادرة لندن وهو في هذا الظرف الذي يتطلب بقاءه لحين صدور الاقامة الدائمية. عاد الى البيت بعد أن تكلم عبر الهاتف مع عبير وشعر فعلاً بأنها متعبة ولم يتمكن النوم، راح يكتب اليها:

في لحظة انهيار.
في لحظة اختيار..
في لحظة ما بين عام انقضى
وعام فوضوي مقبل بلا قرار
عام سيأتي بلا حروف أو رتوش.. هو عام الانتظار..
لكن حبّكِ فوق هذا وذاك..
فوق السنين والشهور واللحظات..
فأنتِ لحظة من الزمن المسكوب على عتبات آلامي.
وأنتَ لمسةٌ حريريةٌ في ليل من الزمهرير المتكسّر على جنبات أوشامي.
أنتِ نقطةُ ضوءٍ في عتمة أيامي.. ولوحةٌ سرمدية في غرفة نومي..
فانا الذي وثّقتُ ايامي بأوراقِ حلمٍ وأحزان..
وبمداد من الدم المسفوح بلا أثمانً..
أنا الذي ابحثُ عن يومٍ مشمسٍ..
وزخات مطرٍ ربيعية تدغدغ صدور الصبايا.
لكنّكِ لا تعلمين.. لأنكِ في يومٍ من الأيام همستِ:
لنْ يكون غدنا أقوى من قسوة يومنا الجريح

وكنتُ أرقد على وسادةٍ من كلماتكِ المعسولة.. وانا المذبوح في محنة الضياع.. ووجع الليالي المكبّلة بتاريخٍ سحيق..

وكنتُ احلمُ كما يحلم الأطفال.

حين قبلتُ ورضختُ وقايضتُ عبث الأيام بحبنا الكبير..

وقبلتِ أنتِ تلك المقايضة..

لكنكِ طُعنتِ في قلبكِ بخنجرٍ مسموم.

وبقيتِ تكابرين..صابرةً كريشةٍ من أجنحة الملائكة. ويبدو إن هذا اليأس دفع بعبير لكي تتحرك الى أصدقائهم في فنزويلا للمساعدة على تدبير ثلاث جوازات سفر فنزويلية يصلون بواسطتها الى لندن، وعملت عبير على هذه الخطة بصمت لكي لا تخرّبها ساندريلا عن طريق علاقاتها هناك، جرت الأمور بسلاسة.

لحظة الفرح.

وصلت لحسن إشارات من عبير عبر مكالماتها الهاتفية، بأنهم الآن يمتلكون جوازات فنزويلية حقيقية صالحة للسفر، وعلى حسن الانتظار لحظة الوصول في أي يوم بعد إسبوع من الآن. كانت مهمة حسن صعبة للغاية في اقناع ساندريلا للسفر، استخدم براعته العاطفية لكي يقنعها بأن نقطة الخطر هي وجودها هنا وحضور عائلته، وافقت على أمل التواصل فيما بعد، رتب اجراءات سفرها بسرعة، وكان قد اتفق مع أحد الأصدقاء على تأجير بيت بعيد عن السكن الحالي له لكي لا تعرفه ساندريلا، وفعلاً تم ذلك بسرعة عجيبة.

كان التلفون الذي رن في مسامع حسن مذهلاً ولم يصدق صوت أمل طفلته:

- بابا.. نحن هنا في مطار هيثرو تعال بسرعة، أغلق سماعة الهاتف واتصل بأحد أصدقائه العراقيين الذين يعملون في مجال الترجمة لطالبي اللجوء السياسي وذهبا بسرعة البرق الى المطار، والى قسم اللاجئين الذي يعرفه صاحبه جيداً، شاهد إبنته أمل من بعيد حيث ركضت اليه واحتضنته.
- بابا أتعلم إنني اليوم عمري أصبح ثمانية عشر عاماً أي إنني مستقلة منذ اللحظة حسب تعليمات ضابطة جوازات السفر التي دونت ملفي الخاص المستقل، أما وليد فاصبح برفقة ومعية والدتي فهو ما زال طفلاً، جاء وليد بحركته الهادئة وعانق والده. وفي لحظات مشحونة بالدموع الحارة وعواطف الفرح عانق حسن عبير.
- الحمد الله على سلامتكم أنتم الآن في بلد الأمان، ويبدو إن الاجراءات تمت بسرعة وأخذوا ملفاً مستقلاً للجوء السياسي.

ذهب الجميع الى البيت بسيارة صديقه المترجم الذي كان لطيفاً وشفافاً في مشاعره الأخوية، حيث استأذن بالانصراف على أن يعاود الاتصال بعد اخبار المحامي لفتح الملف الخاص بطلب اللجوء، ودعه حسن شاكراً له جهوده المتواصلة.

كان البيت المستأجر جميلاً ومطلاً على نهر صغير متفرع عن نهر التايمز في الشمال الشرقي من لندن. جلس حسن في صالة البيت بعد أن حدد غرفة كل من أمل ووليد الذي سأل عن جهاز «النينتيندو» الذي كان حسن قد حضره له قبل وصوله، والتفوا حوله، كانت عبير سعيدة جداً بدا ذلك عليها رغم مسحة الحزن والألم التي رافقت تعابير الفرح على وجهها.

- هكذا إذن نحن لاجئون سياسيون نعيش على الحكومة البريطانية،.

عقبت عبير:

- هكذا يقدم البلد متطلبات الأمن والخدمات الصحية والمعيشية لأناس من خارج الوطن، ونحن في بلدنا مهانون محتاجون مضطهدون، الله يحفظ الملكة.

ضحك حسن.. وفي مداعبة مع وليد:

- هل تعرف ملكة بريطانيا التي تعيش أنت في بلدها الآن؟
- أعطني خمسين باوند لأريك وجه الملكة.

أيا ملعون.. أين تعلمت هذه الشيطنة؟

كان على حسن أن ينام اليوم لأول مرة منذ أكثر من عام بهدوء واطمئنان فعائلته معه وحريته بين يديه.

المؤلف في سطور

د.ماجد السامرائي

كاتب واعلامي وسفير عراقي سابق
يكتب في الأدب والسياسة
إضافة الى نشاطه الاعلامي التلفزيوني

صدر له :

– شعر ثابت قطنة العتكي–جمع وتحقيق 1973
– التجربة الاشتراكية في الريف –1974
– المهمات الثورية للثقافة والاعلام –1975
– نازك الملائكة .. الموجة القلقة – 1976
– التيار القومي في الشعر العراقي الحديث – 1982
– العرب .. أزمة الفكر والسياسة – 2002

انتهى